من سيرة
الخليفة العادل
عمر بن عبد العزيز

تأليف
أ. د / السيد عبد الحليم محمد حسين
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا الجنوبية
والأمين العام المساعد بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

من سيرة

الخليفة العادل

عمر بن عبد العزيز

رقم الإيداع
٢٠١٣/١٧٠٢٤

من سيرة
الخليفة العادل
عمر بن عبد العزيز

أ. د. / السيد عبد الحليم محمد حسين

الأمين العام المساعد لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية

عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
بين يدي عمر بن عبد العزيز

هذا الاسم الباهر الرائع، المثير اللامع، الذي يشرق بسيرة صاحبه إشراق الشمس وينير بهديه إنارة البدر، ويرق بحلته رقة النسيم الوارع، ويشفي بحكمته شفاء الدواء الناجع، ويقوي في عقيدته قوة الحق الصادع، ويكون مع الضعفاء ماء سلسًا نميرًا، ومع العتاة الأشداء أسدًا هصورًا.

هذا الأمير -عمر بن عبد العزيز- بلغ من عدالته في حكمه، واستقامته في خلافته وإصلاحه بين الخلق مبلغًا بعيدًا، وقطع في ذلك شوطًا طويلًا، حتى وحَّد المسلمين ولمّ شعثهم، وجمع كلمتهم، وساس بالرفق والحكمة والإخاء دولتهم، فاستظل بلواء عدالته وإنصافه كل رعيته، ودخل في رحاب مساواته أفراد الأمة من المسلمين والكتابيين وأهل الذمة، فملأ الأرض عدلًا كما ملئت الدنيا جورًا، فهو الإمام الذي سار بسيرة جده الفاروق عمر بن الخطاب، وكان أشبه الناس به، فهو الفارس الراشد الزاهد، الورع المتعبد، والمتقشف المتهجد، والخليفة الشاب، الذي نشأ في مطارف النعمة والرفاهية، وانتهى إلى مسوح الزهد والخشوع والخوف من الله في كل أمر، والسلطان الذي كانت ثيابه في شبابه تسيل عطورًا وطيبًا، وشعره يفوح، وجسده يتأرج بالشذا، فأصبحت عيناه تفيضان بالدمع خوفًا وخشية، وأصبح وله قميص مرقوع لا يجد غيره إذا أراد أن يغسله.

لقد أغنى الأمة وأفقر نفسه وأهله، وأشبع الخلق، وأجاع بطنه وبطون نسائه وأولاده، فأطعم المسلمين الشهي من الطعام، وسقاهم اللذيذ من الشراب، وجعلهم يتقلبون في ألوان النعمة، وحرم ذاته وبيته.

فهو الرجل المهدي النجيب: معلم العلماء الذي جلس منه معلموه مجلس التلميذ من الأستاذ، وكان الإمام المجدد الأول في الإسلام، والمعتصم بالكتاب والسنة والقوال بالحق، والناطق بالصدق، والمراجع للجائرين والجبارين والطواغيت، والمنكر على الخلفاء ما أساءوا، وصاحب الكلمة البليغة والعظة الموجعة، والجواب الرشدي، والبيان الناصع، أخذ الحقوق من الأغنياء وردها على الفقراء، صاحب الفضل، واستغنى الضعفاء عن السؤال، فجمع بعد الفرقة، ووحّد بعد الشتات، وجمع سنة الرسول ﷺ وسجلها، لم يصدر عنه بريد إلا بإحياء سنة، أو إماتة بدعة، أو قسمة خير، أو أمر من أمور البر.

يقول الإمام أحمد بن حنبل: «لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز».

ويقول سفيان الثوري: «كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة»، ويقول: «لا أوافق رأي أحد أحب إليَّ من عمر بن عبد العزيز؛ لأنه كان إمام هدى».

ويقول مكحول: «لو حلفت ما استثنيت ما كان في زمانه أخوف لله عز وجل من عمر، ولو حلفت ما استثنيت ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر».

ويقول مالك بن دينار: «الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي أتته الدنيا فتركها».

وميمون بن مهران يقول: «إن الله عز وجل تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز».

بل قال ملك الروم على عهد عمر: «لأحسب أنه لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز، إني لست أعجب من الراهب أن أغلق

بابه، ورفض الدنيا، وزهد وتعبد ... ولكن أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب».

وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء خلال حديثه عن عمر بن عبد العزيز: «وأجمعوا على جلالته وفضله، ووفور علمه وصلاحه، وزهده وورعه، وعدله وشفقته على المسلمين، وحسن سيرته فيهم، وبذل وسعه في الاجتهاد في طاعة الله، وحرصه على اتباع آثار رسول الله ﷺ والاقتداء بسنته وسنة الخلفاء الراشدين، وهو أحد الخلفاء الراشدين ومناقبه أكبر من أن تحصر».

ويقول الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء حين تقديمه ترجمة عمر بن عبد العزيز: «وكان واحد أمته في الفضل، ونجيب عشيرته في العدل، جمع زهدًا وعفافًا، وورعًا وكفافًا، شغله آجل العيش عن آخره، وألهاه إقامة العدل عن عازله، كان للرعية أمنا وأمانًا، وعلى من خالفه حجة وبرهانا، وكان مفوهًا عليمًا، ومفهمًا حكيمًا».

ولما بلغ الحسن البصري موت عمر بن عبد العزيز قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير» وفي رواية أنه قال: «مات خير الناس».

ولقد نظر مسلمة بن عبد الملك إلى عمر وهو مسجى على فراشه ميتًا فقال: «يرحمك الله، لقد لينت قلوبًا قاسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرًا».

وقال عبد الملك بن عمير لما مات عمر: «رحمك الله يا أمير المؤمنين، لقد كنت غضيض الطرف، أمين الفرج، جوادًا بالحق، بخيلًا بالباطل، تغضب في حين الغضب، وترضى حين الرضا، وما كنت مزاحًا ولا عيابًا، ولا بهاتًا، ولا مغتابًا».

وبكى أحد الرهبان عندما سمع بموت عمر بن عبد العزيز وقال: «إني لست أبكي عليه، ولكني أبكي على نور كان في الأرض فطفئ».

وفي مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية يتحدث عن غربة الإسلام وشرح حديث: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**» فيقول: «وكذلك بدأ الإسلام غريبًا ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا تغرب في كثير من الأمكنة والأزقة، ثم ظهر حتى يقيمه الله عز وجل، كما كان عمر بن عبد العزيز لما ولي قد تغرّب كثير من الإسلام على كثير من الناس، حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريبًا».

لقد كان عمر بن عبد العزيز من الرجال العمالقة، والأبطال العظماء، فهو عظيم في ذاته وسيرته، يردد التاريخ عظمته، ويتغنى بهذه العظمة أعلام هذه الأمة، ويتكاثر المعجبون بشخصيته وسيرته، وهم خير في علمهم وفهمهم وخبرتهم بالرجال، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل هذه الكلمة الآسرة: «إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها، فاعلم أن من وراء ذلك خيرًا إن شاء الله».

ويقول ابن الجوزي: «ورأيت أخبار عمر بن عبد العزيز أحق بالذكر؛ لأنها تنبه أولي الأمر على أولي الأمر، وتعين الزاهد في الدنيا على حمل أعباء الصبر».

وسيرة الحاكم العادل تذكر بأنه من مواليد مصر، ومن نابتة حلوان، وقد درج على ضفاف النيل، وروى بدنه بمائه ردحًا من الزمان، وكان عمر يتذكر هذه الفترة الحلوة الجميلة التي قضاها بمصر ويحن إليها وهو في الخلافة فيقول: «أين عيشنا اليوم من عيشنا بمصر؟!».

وكان عمر بن عبد العزيز يخاف من تبعات الرعاية للأمة فيقول: «لقد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، فذكرت الغريب الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المقهور، وأشباههم في أطراف الأرض، فعلمت أن الله تعالى سائلني عنهم، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم، فخفت ألا يثبت لي عند الله عذر، وألا تقوم لي مع محمد حجة فخفت على نفسي».

ولا عجب فعمر بن عبد العزيز هو حفيد عمر بن الخطاب الذي كان مثالًا للعدالة وكان يقول: «لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة لِمَ لَمْ تمهد لها الطريق؟!».

فعمر بن عبد العزيز هو الذي حارب الفساد والمفسدين، وجاهد الظلم والظالمين، وأنصف المهضومين والمظلومين، وقضى على الرشوة وسوء الاستغلال، ولزمه الزهد حتى في أقل الأشياء وأخف الأمور، وسوَّى في الحقوق الأساسية بين جموع المواطنين.

هذه هي السيرة العمرية الناضرة الباهرة الصالحة التي ستبقى ينبوعًا ثرارًا يفيض على الطالب المريد، والمشتهي المستزيد، داعيًا الله تعالى أن يصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أولها، وأن يزيل من طريقها العقبات، ويجنبها الأخطاء والهفوات.

وأن يديم عليها نعمة التوفيق، وأن يقيها عثرات الطريق، وأن يكون لها خير رفيق إنه أكرم مسئول، وأفضل مأمول.

أ. د. السيد عبد الحليم محمد حسين

القاهرة في ٢٠١٣/٤/١٨م

حياة عمر

يقول رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

وهذا تعبير من تعبيرات النبوة البليغة العميقة، وهو يدل على أن الأعراق في الأصول لها تأثيرها وآثارها في الفروع. وقد تحدث العلماء كثيرًا عن المواريث التي تتخلف عن الأسلاف، وتتمثل في الأخلاف.

والعارض لحياة عمر بن عبد العزيز، لا يستطيع أن يغفل الإشارة إلى هذه المواريث... لأن مصادر التاريخ تردد لنا قصة فتاة فيها دلالة على أن عمر قد انتفع بمواريث أعراق طاهرة تجري فيها دماء الإيمان والتقوى، قبل أن تجري فيها دماء الغذاء وعافية البدن.

فقد رووا أن الفاروق عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، كان من عادته أن يطوف بالليل يتفقد شئون رعيته. وذات ليلة كان الفاروق يسير على عادته في طرقات المدينة، ومعه مولاه «أسلم» فلما طال المطاف بعمر استند إلى جدار بيت، في جوف الليل، وإذا به يسمع امرأة داخل البيت تقول لابنتها: «يا ابنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه (أي اخلطيه) بالماء، فإنك قد أصبحت!».

وإذا الفتاة تجيب أمها، وأحب الناس إليها، وأعزهم عليها: «أوَما علمت يا أماه بما كان من عزمة (أمر) أمير المؤمنين اليوم!».

قالت الأم: «وماذا كان من عزمته يا بنيتي؟».

قالت الفتاة: «لقد أمر مناديه فنادى في الناس ألا يشاب (أي يخلط) اللبن بالماء».

فعادت الأم تقول في تحريض: «قومي يا ابنتي إلى اللبن، فامذقيه بالماء... فإنك بموضع لا يراك فيه عمر، ولا منادي عمر!».

فغضبت الفتاة وردت قائلة: «يا أماه، والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا. وإن كان عمر لا يرى، فرب عمر يرى! والله ما كنت لأفعله وقد نهى عنه!».

وسمع عمر الحديث أجمعه، وأعجب به في نفسه غاية الإعجاب... أعجب بفتاة يبلغ بها يقينها هذا الحد، فلا تحرص على الربح، ولا تفضل طاعة أمها على طاعة الخليفة الذي يدعو إلى كلمة الله، وتؤثر مراقبتها لربها على كل شيء!

وهمس عمر إلى «أسلم» بأن يعرف المكان ويميز البيت. ثم سارا في طريقهما.

وأصبح الصباح، وكان أول ما بدأ به عمر هو أن قال لأسلم: «اقض إلى ذلك الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما بعل؟».

يقول أسلم: «فأتيت الموضع، فنظرت فإذا الجارية أيمٌ لا بعل لها، وإذا تيك أمها، وإذا ليس لهما رجل... فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته».

وتعجل عمر الخير، فجمع أولاده فقال لهم: «هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه، ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية».

فقال عبد الله: «لي زوجة»، وقال عبد الرحمن مثل هذا. وقال عاصم: «يا أبت، إنه لا زوجة لي، فزوجني!».

فقال عمر: «اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب!».

وبعث عمر إلى الفتاة، فإذا هي من بني هلال، فعقد لها على عاصم ابنه، فولدت له

بنتًا سموها «أم عاصم». وتزوجت أم عاصم هذه عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز... رضوان الله عليه.

فأم عاصم هذه هي أم عمر بن عبد العزيز، وقد روى النووي أن اسمها «ليلى»، وروى ابن عربي أن اسمها «قريبة»، وروى ابن عساكر أن اسمها «عتبة»، ولكن كنيتها المشهورة هي «أم عاصم».

ومن هنا تحققت رؤيا عمر بن الخطاب. فقد استيقظ من نومه، فمسح النوم عن وجهه، وعرك عينيه وهو يقول: «من هذا الذي من ولد عمر، يسمى عمر، يسير بسيرة عمر!!».

وجعل يردد هذه مرات... وكان يقول أيضًا: «ليت شعري، من ذو الشج من ولدي الذي يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا!».

وفي رواية: إن من ولدي رجلًا بوجهه أثر يملأ الأرض عدلًا.

ولقد أخبر الليث بن سعد أنه كان يقال:

«الفراسة فراسة العزيز في يوسف النبي عليه السلام حين قال: «ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين».

وفراسة عمر بن الخطاب في الهلالية، حين قال لولده: تزوجها، والله ليوشكن أن تأتي بفارس يسود العرب، فأتت بعمر بن عبد العزيز. وفراسة سليمان بن عبد الملك في عمر بن عبد العزيز حيث قال: والله لأعقدن عقدًا ليس للشيطان فيه نصيب... فعقد لعمر بن عبد العزيز».

وكانت «أم عاصم»، والدة عمر، امرأة صالحة طيبة الأرومة طاهرة المنبت: روت الحديث، وعرفت طريق الزهد والتقشف والعبادة، وانبسطت يداها بالبر والخير. وحسبها بعد ذلك كله أنها جاءت بعمر بن عبد العزيز، وأن التاريخ سيظل يقول أن أم عمر هي «أم عاصم». ويا له من ذكر عاطر وتاريخ خالد ماجد!!

وأما والد عمر فهو عبد العزيز بن مروان، أحد الأقطاب من بني أمية، وقد نشأ في المدينة، وروى الحديث، وتولى إمارة مصر، وكان رجلًا مترفًا، مكثرًا من البناء، وهو الذي اختط مدينة «حلوان» بمصر، ووضع قريبًا منها مقياس حلوان. وكان مضيافًا، واسع الكرم، فسيح الجود... ومع هذا كان ورعًا متحرزًا، يتطلب الحلال، ويباعد نفسه عن الحرام. ومن شواهد ذلك أنه حين هم بالزواج، طلب ذات الدين والصلاح، وابتغى لها المهر الطيب من خالص الحلال.

قال لقيمه: «اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح!!».

وقد كان، وأخرج الزواج الصالح فيما أخرج ثمرة طيبة، هي أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس، وهو الذي قيل فيه:

إن أولى بالحق في كل حق ... ثم أولى بأن يكون حقيقًا
بالتقى والنهى وأخلاقه اللا ... تي تأبى بغيره أن تليقا
من أبوه عبد العزيز بن مروا ... ن، ومن كان جده الفاروقا!

وقد ولد عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وستين للهجرة. وفي رواية أنه ولد سنة ثلاث وستين. وفي رواية أنه ولد سنة تسع وخمسين. ويميزون سنة ميلاده بأنها السنة

التي توفيت فيها «ميمونة» زوجة النبي ﷺ. وابن كثير يقول: «إنه ولد في السنة التي قتل فيها الحصين» وهي إحدى وستون.

وكان ميلاد عمر في «حلوان حيثما كان أبوه واليًا على مصر، وروى النووي أنه ولد في مصر، كما نقل رواية تفيد أن أصل عمر مدني، أي أنه ولد بالمدينة، ولعل هذا الاشتباه جاء من تردد عمر بين المدينة ومصر في أثناء يفاعته. ولعله ولد في مصر، ثم انتقل إلى المدينة صغيرًا، أو العكس، ومهما يكن من أمر فقد قضى عمر في مصر أيامًا ظل يذكرها بالخير والثناء في كثير من المناسبات» ويتمنى لو أنها عادت.

ونشأ عمر ممتلئ الجسم، ريان العود، أبيض اللون، جميل الهيئة، دقيق الوجه، مترفًا منعمًا، وكانت تربيته الإسلامية في المدينة: فتفقه على علمائها، وتلقى عن محدثيها، ونال ما استطاع من العلم والشعر والعربية.

وكان وهو غلام بالمدينة، يأتي خاله عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه ويقول لها: «يا أمي، إني أحب أن أكون مثل خالي»، فتؤفف به، ثم تقول له مستبعدة ذلك: «اغرب... أنت تكون مثل خالك؟»، وتكرر له ذلك.

وبعد حين أرسل عبد العزيز بن مروان إلى زوجته أم عاصم -وكانت مع ابنها عمر في زورة للمدينة- يطلب منها أن تقدم عليه ومعها ولدها عمر، فأخبرت عبد الله بن عمر بذلك الخطاب، فقال لها: «يا ابنة أخي، هو زوجك فالحقي به».

ولما تهيأت للمسير قال لها عن عمر: «خلفي هذا الغلام عندنا، فإنه أشبهكم بنا أهل البيت».

فلم تستطع مخالفته.

ولما قدمت على زوجها سألها: «وأين عمر؟» فأخبرته الخبر، فسر بذلك... لأن الأمويين كانوا يطلبون ود بني الخطاب، ولأن عبد العزيز رجا من وراء ذلك أن يكسب عمر من علم عبد الله وفضله، وكتب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه عبد الملك بن مروان بخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر.

وكتب عبد العزيز بن مروان إلى صالح بن كيسان بالمدينة يسأله أن يتعاهد عمر في تأديبه وتهذيبه، وكان صالح يُلزمه الصلاة في مواقيتها بلا تأخير، فأبطأ عمر يومًا عن الصلاة، فقال له صالح: «ما حبسك؟».

قال عمر: «كانت مرجلتي تسكن شَعري».

قال صالح: «بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟!».

وكتب صالح إلى عبد العزيز بذلك، فبعث إليه عبد العزيز رسولًا فلم يكلمه حتى حلق شعره!

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد ورث منذ نشأته كثيرًا من المواريث الطيبة التي تجلت في بني الخطاب، فقد ورث منهم أيضًا حدة ظلت تعتريه من حين إلى حين، فيندفع بها أحيانًا، وينهنه من ثورتها أحيانًا أخرى...

اجترأ عليه يومًا عبد له أسود، وكان عمر في باكورة شبابه، فأمسك بخناق العبد، وطرحه أرضًا، وأخذ يضربه غير مصيغ إلى صرخات العبد، حتى شفى منه غيظه.

ومضت أيام... وانتهز العبد فرصة هدوء من عمر، فقال له: «هل جنيت جناية قط غضب بها عليك مولاك؟».

قال عمر: «نعم».

قال العبد: «فهل عجل عليك ربك بالعقوبة؟»

أجاب عمر: «اللهم لا».

فقال العبد: «فلم تعجل عليّ، ولم يعجل عليك؟».

فاستحيا عمر، ورق للعبد، فقال له: «قم فأنت حر لوجه الله تعالى!».

❋ ❋ ❋

ودارت الأيام، وأخذ ساعد عمر يشتدّ، ومواهبه تظهر، وهمته تعلو، وفضائله تتبدى... مما جعل الناس يتذكرون رؤيا جده الفاروق، ويستعيدون كلمته: «من هذا الذي يكون أشج من ولدي، ويسير بسيرتي؟». وكان ابنه عبد الله يكرر مفهومها حين يقول: «ليت شعري، من هذا الذي من ولد عمر، في وجهه علامة، يملأ الأرض عدلًا؟».

ولكن عمر بن عبد العزيز ليس بأشج، وليس بوجهه علامة!

وشاءت الأقدار أن يكون عمر أشج بني أمية حتى تتحقق رؤيا الفاروق العظيم... فقد زار عمر بن عبد العزيز أباه في إمارته مسلِّمًا عليه، فأقام عنده ما شاء الله، ثم إنه ركب ذات يوم حمارًا، فسقط عنه فشج.

وقيل إنه دخل مع أخ له غير شقيق اسمه «الأصبغ» اصطبل الخيل، فزحمت عمر بغلة فأصابته في جبينه فشجته، وسال الدم من جبينه، فهتف أخوه: «الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي سيملك!».

وجعل الدم يسيل، والأصبغ يضحك، ويردد مقالته، وسمعت أم عمر بما حدث له، فأسرعت إليه وحملته، ولما علمت أن أخاه غير الشقيق كان يضحك، غاظها ذلك، وأقبلت على زوجها تقول في لوم وغضب: «أما الكبير فيخدم، وأما الصغير فيكرم، وأما الوسط (تعني عمر) فيضيع! لم لا تتخذ لابني حاضنة حتى أصابه ما ترى؟!».

واستفهم عبد العزيز عما حدث، فرووا له، فاغتاظ من الأصبغ، واستدعاه وقال له: «يسقط أخوك فيشج، فتضحك سرورًا منك بما أصابه؟»

فأجاب الأصبغ: «ليس ذلك كذلك أيها الأمير... لم يضحكني شماتة به، ولا سرور بسقوطه، ولكني كنت أرى العلامات من أشج بني أمية مجتمعة فيه إلا الشجة، فلما سقط وشج سرني ذلك، لتكامل العلامات فيه، فأضحكني معه وهو والله أشج بني أمية!».

فرضي عنه عبد العزيز، وقال وكأنه يناجي نفسه: «ما ينبغي لمن كان يرجى لما يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة!». وعزم على إرساله إليها.

وأقبل عبد العزيز على زوجته يحيل ألمها سرورًا بالبشرى فيقول لها: «ويحك! إنه أشج بني مروان، وإنه لسعيد!!». وجعل يقول لابنه عمر: «سعدت إن كنت أشج بني أمية!».

وجعل الناس يقولون عن عمر بعد ذلك: أشج بني أمية، أو أشج بني مروان، أو أشج قريش. وإذا كان بعض الناس قد حسده على ذلك، فإن بعضهم قد أجلّه وقدمه بسبب ذلك. وهذا عبد الملك بن مروان كان يقرب عمر وهو غلام، ويكرم لقاءه، ويقدمه على أولاده... إلا الوليد. فعجب بعض أولاده من ذلك، فقال له عبد الملك: «أو ما تعلم لم فعلت ذلك؟».

قال: «لا».

قال عبد الملك: «إنه سيلي الخلافة يومًا، وهو أشج بني مروان الذي يملأ الأرض عدلًا بعد أن تملأ جورًا... فما لي لا أحبه ولا أدنيه؟».

وكان الناس في عهد بني أمية يقولون: الأشج والناقص أعدلا بني مروان.

والأشج هو عمر بن عبد العزيز، والناقص هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وهو الذي قتل الوليد بن يزيد الفاسق. وإنما سمي يزيد بن الوليد بالناقص لأنه نقص الناس من أعطياتهم ما كان قد زاده الوليد بن يزيد في أعطياتهم إسرافًا وتبذيرًا، وردهم على ما كانوا عليه في زمن هشام. وكان يزيد ورعًا متدينًا صالحًا، وبويع له بالخلافة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، ولكن لم تطل أيامه، فإنه توفي آخر هذه السنة.

❊ ❊ ❊

وتفرغ عمر في المدينة لطلب العلم... فحفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث النبوي، وتاقت نفسه إلى العربية والشعر فنال منهما حاجة عقله وقلبه، وحدَّث عن بعض الصحابة وأعلام التابعين وروى عنهم، وبلغ مبلغًا كبيرًا من العلم بالسنن... حتى صار حافظًا حجة، وبلغ مرتبة الاجتهاد، وكان الناس يرجعون إليه في الاستفتاء، وجلس إليه بعض الذين جلس هو إليهم من قبل، ويقول ميمون بن مهران: «أتينا عمر بن عبد العزيز فظننا أنه يحتاج إلينا، فإذا نحن عنده تلاميذه!».

❊ ❊ ❊

ولما بلغ عمر العشرين من عمره تطلعت نفسه إلى الزواج من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك. وكان عبد الملك يحب أن يزوجها له، فلما كان عمر في زورة بالشام قال له عبد الملك: «قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك»، فسر بذلك عمر وقال له: «وصلك الله يا أمير المؤمنين... فقد أجزلت العطية، وكفيت المسألة!».

ووهبه عبد الملك وغيره من بني أمية كثيرًا من القطائع والضياع، حتى صار له أرض في الشام والحجاز ومصر واليمن والبحرين، وكانت هذه القطائع تدر على عمر ما يقدر بأربعين ألف دينار في كل عام.

وبعد زواج عمر بقليل ولاه عبد الملك بن مروان إمرة «خناصرة»، وهي بلدة من أعمال حلب، وكان ذلك سنة خمس وثمانين، فظل عمر واليًا عليها حتى مات عبد الملك. وتولى الخلافة الوليد ابن عبد الملك، فولي عمر إمارة المدينة بعد أن عزل عنها هشام بن إسماعيل، وكان عمر حينئذٍ في الخامسة والعشرين من عمره... وذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين.

واشترط عمر ألا يتحمل تبعة شيء من المظالم، وألا يتقيد بتصرفات من سبقه، إذ قال للوليد: «إنك استعملت من كان قبلي، فأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم والجور»، فقال له الوليد: «اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا إلا درهمًا واحدًا».

فولى عمر على قضاء المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم، ودعا عشرة من الفقهاء في المدينة وقال لهم: «إني دعوتكم لأمر تؤجرون فيه، وتكونون فيه أعوانًا على الحق.. إن رأيتم أحدًا يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني»... فأثنوا عليه ووعدوه بذلك.

وفي إمارته للمدينة وسَّع مسجد الرسول، وأدخل حجرات زوجاته فيه، واشترى ما بنواحيه وأدخله فيه، ورفع المنارة، وجوف المحراب... فكان أول من أوجد تجويف المحاريب. وسهل عمر الثنايا، وهي الطرق في الجبال أو إليها، وحفر الآبار، وأنشأ الخانات والفنادق على طرق الحجاج والمسافرين، وأنشأ فوارة رائعة بالمدينة. وكافأه الوليد على تلك الأعمال فجعله عاملًا على مكة والطائف فوق إمارة المدينة. وفي سنة تسعين أعطاه الوليد إمارة الحجاز كله.

وفي أثناء إمارة عمر للمدينة عرف الشعر والسماع، وأعطى الشعراء الكثير من العطايا، وأعطى نفسه حظها من الطعام والثياب والعطور، وأخذ قسطًا من الفكاهة والمزاح، ولكن هذا كله لم يخرج به عن دينه وقيامه بواجبه نحو ربه ونحو الناس.

جاء في سيرة ابن عبد الحكم: «ثم ولي عمر المدينة، فسار بأحسن سيرة، وكان مع ذلك يعصف ريحه، ويرخي شعره، ويسبل إزاره، ويتبختر في مشيته... وهو مع ذلك لا يغمص (أي لا يطعن) عليه في بطن، ولا فرج، ولا حكم!».

وجاءه من الوليد أمر بضرب «خبيب بن عبد الله بن الزبير» مائة سوط، لأنه كان يطعن على الخليفة، ويسب الأمويين... ففعل عمر، فأفضى ذلك إلى موت خبيب، فحزن عمر لذلك حزنًا بليغًا.

وكان عمر يراجع الوليد وينصحه، ويعترض على تصرفات الحجاج، مما أوجد عداوة بين عمر وبين الحجاج. وسعى الحجاج حتى أقنع الوليد بعزل عمر عن المدينة، فعزله عنها. وخرج عمر منها في شعبان سنة ثلاث وتسعين، ولما كان في ظاهر المدينة قال لمولاه مزاحم:

«يا مزاحم أخشى أن أكون من نفتهم المدينة» وهو يشير بذلك إلى قول الرسول صلوات الله عليه: «إن المدينة تنفي خبثها». فأبعد مزاحم عن ذهنه هذا الخاطر.

وكان القمر ليلة خروجهما في منزلة «الدبران»، وهي منزلة يتشاءم الناس منها إذا كان القمر فيها، وكأنما خشي مزاحم أن يلاحظ عمر هذا فيتشاءم منه، فأراد أن يصرف ذهن عمر عنه، وأن يسبقه فيقطع عليه التفكير فيه، فقال مزاحم لعمر: «ألا تنظر إلى القمر!... ما أحسن استواءه في هذه الليلة!».

وتطلع عمر إلى القمر، وعرف أنه في دارة «الدبران»، وأدرك ما جال بذهن مزاحم، فقال له: «كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران، يا مزاحم، إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار!!».

ومضى عمر مع مزاحم حتى نزل مقاطعة له بالشام تدعى «السويداء»، وهناك قضى فترة عزلة وتفقه وتصوف: يظهر فيها نفسه، ويطبع روحه على الفقه الأكبر، وهو القناعة وكف الأذى، وتطوف بخاطره وصية أبيه عبد العزيز له:

«اتق الله وأحسن نيتك في عملك، فإنه لا دين لمن لا نية له. وأحسن تدبير مالك، فإنه لا مال لمن لا تدبير له، وارفق بمن تعامله، لأنه لا عيش لمن لا رفق له، وتجوز في شهواتك، فإنه لا عقل لمن لا يغلب هواه!».

وأخذ عمر في هذه العزلة يعد نفسه لحياة الزهد والتقشف، وللجهاد من أجل الحق والناس... ثم رحل إلى دمشق، وهناك أخذ ينصح الوليد، وينتقد أعماله، ويقف في وجه مظالمه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ثم ذهب الوليد إلى «الرملة» في فلسطين، وهناك مرض وأدركه الموت، وولي بعده

أخوه سليمان بن عبد الملك -وكان أحسن حالًا من الوليد- ففرح به عمر... حتى تولى أخذ البيعة لسليمان بنفسه في اليوم الذي مات فيه الوليد.

ومضت مدة سليمان، ولم يكن له ولد كبير يصلح للأمر من بعده، بل كل أولاده صغار، فأراد أن يعهد إلى رجل صالح، فأشار عليه رجاء بن حيوة بعمر بن عبد العزيز، فارتضاه سليمان، وكتب بذلك عهدًا ذكر فيه أن الخلافة من بعده لعمر، ثم من بعد عمر ليزيد بن عبد الملك، وكتم سليمان ورجاء الأمر عن عمر.

فلما مات سليمان بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين، أظهر رجاء كتاب سليمان بعد أن جمع الناس، وأخذ عليهم العهد بالرضا بما فيه، ثم أعلن الأمر وتولى عمر الخلافة في ذلك اليوم.

ولم يأت عمر إلى الخلافة ليجمع أو يفخر أو يتحكم، بل جاء ليعدل ويصلح ويغني الناس.

ووصل عمر فيما أراد إلى الكثير والكثير... جاءه رجل من المدينة، فجعل عمر يسأله عن أهلها فقال: «ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟».

قال: «قد قاموا منه يا أمير المؤمنين، وأغناهم الله!».

وكان من هؤلاء المساكين من يبيع الخبط(١) للمسافرين، فالتمسوا ذلك منهم بعد، فقالوا: «قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر!».

وكتب عمر إلى عامله على الكوفة زيد بن عبد الرحمن يقول: «كتبت تذكر أنه قد

---

(١) الخبط: ما سقط من ورق الشجر.

اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط كل من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد!».

ورفع عمر مستوى المعيشة بين الناس، ولقد كتب إليه بعض ولاته يسألونه عن الرجل يكون له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته: هل يقضون عنه دينًا عليه؟

فكتب إليهم يقول: «لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته... فهو غارم فاقضوا عنه!».

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا، فذلك ثلاثون شهرًا، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجد، فيرجع بماله... قد أغنى الله على يدي عمر بن عبد العزيز الناس!».

وقال يحيى بن سعيد: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد بها فقيرًا، ولم نجد من يأخذها... قد أغنى عمر الناس، فاشتريت رقابًا فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين!».

❋ ❋ ❋

وأظهر عمر في خلافته الاعتصام بالكتاب والسنة، وجاهد في حمل الناس عليهما وأخذهم بهما.

وهو الذي يصور دستور سياسته في كلماته التي تقول:

«يا أيها الناس، إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب. فما أحل الله على لسان نبيه، فهو حلال إلى يوم القيامة. وما حرم الله على لسان نبيه، فهو حرام إلى يوم القيامة.. ألا إني لست بقاض، وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع، ولكني متبع...».

وفي كلماته التي تقول:

«إن للإسلام حدودًا وشرائع وسننًا: فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان... فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص».

وفي كلماته التي تقول:

«سن رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده سننًا: الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله... ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها: من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا».

قال الإمام مالك بن أنس: «وأعجبني عزم عمر في ذلك!».

وكانت نفسه قبل الخلافة تتوق إلى أشياء وأشياء، وكلما نالت شيئًا تاقت إلى شيء... تاقت إلى الطعام والثياب والطيب والنساء والسماع والإمارة والمديح والعلم والفقه، ثم تاقت إلى الخلافة فلما تولاها تاقت نفسه إلى ما فوق الدنيا... تاقت إلى ما عند الله، تاقت إلى الدار الآخرة.

يقول عمر وهو خليفة: «إن لي نفسًا تواقة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة. وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة!».

وكان قبل الخلافة ربما قال: «سوف أبتلى بأمر هذه الأمة، فوالله لئن ابتليت بذلك -وإنها شرف الدنيا- لأطلبن بها شرف الآخرة!».

❋ ❋ ❋

وتغير عمر بعد الخلافة تغيرًا كليًّا.. كان دنيويًّا فصار أخرويًّا، وكان تواقًا فأصبح زاهدًا، وكان مقبلًا على الحياة فأصبح راغبًا في الموت، وكان صاحب مطامع ومطامح فصار لا هم له إلا العدل والإصلاح والتعبد والتهجد.

ولقد مر عمر بن عبد العزيز ذات يوم بالمدينة في أثناء ولايته عليها، وهو يسحب ثوبه من طوله، ويمشي مشيته العمرية ذات الخيلاء... فقال له محمد بن كعب القرظي: «يا عمر، إن رسول الله ﷺ قال: «ما جاوز الكعبين فهو في النار». فالتفت إليه عمر مغضبًا وقال:

«اتق الله يا ابن كعب، لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها!».

ومرت الأيام، وتولى عمر الخلافة، وسأل عن ابن كعب، فأخبروه أنه في الغزو. فكتب عمر إلى عامله على الدروب يأمره أن يجهزه ويسرحه إن خرج من غزوه، إلا أن يكره ذلك فيعفيه.

فلما التقى ابن كعب بالعامل سأله أن يسير إلى عمر، وأقرأه الكتاب، فقال ابن كعب: «أما الجهاز فلا حاجة لي به، أنا أقوى. وقد كنت أردت المسير إليه لو لم يأت كتابه في أمري».

وجاء ابن كعب إلى عمر، فرآه على هيئة غير الهيئة التي كان قد عهده عليها، فقال له عمر: «يا محمد، استغفر لي من سوء مردودي عليك حين وعظتني بالمدينة!».

وبكى عمر حتى اخضلت لحيته، فقال ابن كعب: «غفر الله لك يا أمير المؤمنين، وأقال عثرتك».

ثم جعل ابن كعب يطيل النظر إلى عمر، ويقلب فيه بصره، فقال له عمر: «يا محمد، فيم تنظر إليّ؟».

قال ابن كعب: «يا أمير المؤمنين، انظر وأتعجب فأقول: أين ذاك اللون النضير، والشعر الحسن، والبدن الريان».

فقال عمر: «فكيف لو رأيتني بعد ثلاث من دفني، وقد سقطت حدقتاي على خدي، وسال منخراي وفمي صديدًا ودودًا؟ كنت أشد نكرة لي منك اليوم!».

وحدث عقب تولي عمر الخلافة أن جاءه أحد الوفود القادمة لتهنئته والتبريك له، فتقدم غلام من بين الوفد، وأثنى على عمر ثناء مستطابًا هو له أهل وبه جدير. وكأنما سر عمر بهذا الثناء، وطرب له واهتز منه... وكان ابن كعب حاضرًا، فأراد أن ينهنه من اهتزازه، ويقوم من طربه، فقال له:

«يا أمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك... فإن قومًا خدعهم الثناء، وغرهم الشكر، فزلت أقدامهم، فهووا في النار. أعاذك الله أن تكون منهم، وألحقك بسالف هذه الأمة!».

فتأثر عمر بهذا الزجر تأثرًا بليغًا، ودمعت عيناه، وتطلع إلى ابن كعب وقال: «اللهم لا تخلنا من واعظ!!».

وكان لعمر من النساء -غير فاطمة بنت عبد الملك- لميس بنت علي بن الحارث، وأم عثمان بنت شعيب بن زيان. وقد ولد له من فاطمة إسحاق ويعقوب وموسى، ومن لميس عبد الله وبكر وأم عمار، ومن أم عثمان إبراهيم. وولد له من امرأة أخرى أم ولد: عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله.

وقد توفي عبد الملك في حياة أبيه. وكان عابدًا صالحًا، معينًا لأبيه على الخير، ناصحًا له بكل معروف. وقد ولي عبد العزيز المدينة ومكة ليزيد بن عبد الملك، ثم أثبته مروان بن محمد عليهما، ثم عزله عنهما، وقد أسند الحديث، وقد ولى عبد الله الكوفة.

* * *

ومرض عمر لهلال رجب سنة إحدى ومائة، وامتد مرضه عشرين يومًا. وقيل أن مرضه قد بدأه الخوف والهم بأمر الناس والخشية من الله. وقيل إن بني أمية دسوا إليه غلامًا سقاه السم، ليتخلصوا منه، ولأنه قد بلغهم أنه يريد عزل يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد لعدم صلاحيته لذلك.

وأدرك عمر أنه قد تناول السم، وأحضر الغلام الذي وضعه له. فشدد عليه فاعترف له، وأخبره أنهم خدعوه وغرروا به، فأطلق سراحه، ولم يمسه بسوء. ولما جاءه الطبيب ونصحه بتناول الدواء، رفض ذلك وقال: «لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها، ولو كان شفائي أن أمس شحمة أذني ما فعلت، أو أوتي بطيب أرفعه إلى أنفي ما فعلت!».

وكتب عمر وهو مريض إلى يزيد بن عبد الملك طائفة من الكتب يعظه فيها

ويذكره، منها قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك. السلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد... فإني كتبت إليك وأنا دنف من وجعي، وقد علمت أني مسئول عما وليت، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئًا... يقول تعالى فيما يقول: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧]. فإن يرض عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير!...

«أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن علي برضوانه والجنة، وعليك بتقوى الله. والرعية الرعية! فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلًا، حتى تلحق باللطيف الخبير... والسلام».

وكتب إليه يقول:

«إياك أن تدركك الصرعة عند الغرة، فلا تقال العثرة، ولا تمكن من الرجعة... يحمدك من خلفت بما تركت، ولا يعذرك من تقدم عليه بما اشتغلت به، والسلام».

وكتب إليه يقول:

«سلام الله وبركاته عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن سليمان ابن عبد الملك كان عبدًا من عباد الله، قبضه الله، واستخلفني، وبايع لي من قبله وليزيد بن عبد الملك أن يكون من بعدي. ولو كان الذي أنا فيه لاتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال... كأن الله قد بلغ بي أحسن ما بلغ بأحد من خلقه. ولكني أخاف حسابًا شديدًا ومسألة لطيفة... إلا ما أعان الله عليه. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

❊ ❊ ❊

واشترى عمر موضع قبره في أرض «دير سمعان» بالقرب من المعرة أو حمص، في جانب قرية تسمى «البقرة»... اشتراه من راهب الدير بثلاثين دينارًا، وقيل بعشرة، وقيل بستة. وعرض الراهب الأرض بلا ثمن، فأبى عمر إلا بثمنها.

وقال عمر لرجاء بن حيوة: «كن فيمن يغسلني ويكفنني ويدخل قبري. فإذا وضعوني في لحدي فحل العقدة، ثم انظر في وجهي، فإني قد دفنت ثلاثة من الخلفاء... كلهم إذا أنا وضعته في لحده، وحللت العقدة، ثم نظرت في وجهه، فإذا وجهه مسود في غير القبلة!».

قال رجاء: «فكنت فيمن غسله وكفنه ودخل في قبره. فلما حللت العقدة، نظرت إلى وجهه، فإذا وجهه كالقراطيس في القبلة!».

وأوصى عمر بألا يبني على قبره بآجر، وقال: «احفروا لي ولا تعمقوا، فإن خيرها أعلاها، وشرها أسفلها».

وأوصى بأن يحرث قبره بعد عام من دفنه، ويسوي بالأرض لينتفع به الناس.

ولكنهم لم يحرثوا القبر، وظل فترة طويلة من الزمان معروفًا يزار ويتبرك الناس بزيارته، ثم اندثر وزال.

قال عمر لأمة له، وهو في مرض موته: «أراك ستلين حنوطي، فلا تجعلي فيه مسكًا».

وكان يكره أن يهون أحد عليه الموت، أو يدعو له بذلك، لأنه كان يؤمن بأن سكرات الموت هي آخر ما يكفر ذنوب المسلم، وآخر ما يؤجر عليه المسلم، وآخر ما يرفع للمسلم... ولذلك كان وهو مريض يردد: «اللهم لا تهون علي سكرات الموت!».

وكان يقول: «اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار».

وجلست إليه امرأته فاطمة تواسيه وتلاحظه، وكان نائمًا فقال: «أجلسوني»، فأجلسوه... فقال يناجي ربه: «أنت الذي أمرتني فقصرت، ولهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله». ثم رفع رأسه، وأحد نظره، فقالوا له: «إنك لتنظر نظرًا شديدًا».

فقال: «إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن!!».

وكأنما جاءته صحوة الموت، فخيل لفاطمة زوجته أنه قد تحسن واستراح، فقالت له: «يا أمير المؤمنين، ألا أخرج عنك عسى أن تغفي فإنك لم تنم». فوافق على ذلك.

فتركته إلى حجرة أخرى، فسمعته يقول مرارًا:

«مرحبًا مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جن»... ثم يتلو: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]!

ثم هدأ الصوت. فقالت فاطمة للوصيف: «ويحك، ادخل فانظر».

ودخل الغلام... فإذا أمير المؤمنين قد لحق بربه. وإنا لله وإنا إليه راجعون!!

وصاح الغلام، فدخلت فاطمة... وإذا عمر قد قبض، وقد أقبل بوجهه على القبلة، وقد وضع إحدى يديه على فيه، والأخرى على عينيه! رضوان الله عليه.

ومات عمر وهو على أبواب الأربعين من العمر.

ولقد قال علي بن زيد: سمعت عمر يقول: «لقد تمت حجة الله على ابن الأربعين، فمات لها عمر بن عبد العزيز!!».

وقيل إن عمره كان تسعة وثلاثين عامًا وبضعة أشهر.

وكانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى ومائة، لعشرة أيام بقيت من الشهر، أو خمسة، أو أربعة وكانت وفاته يوم الجمعة، وقيل يوم الأربعاء.

وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وقيل: وثلاثة وعشرين يومًا.

وروي أن وفاته كانت بخناصرة، ودفن بدير سمعان من أرض حمص.

ولم يترك عمر من ورائه إلا واحدًا وعشرين دينارًا، وقيل أربعة عشر دينارًا!!

يوم الخلافة

كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي السابق لعمر بن عبد العزيز وسيمًا قويًّا شابًّا، وكان ربما أعجب بشبابه ونضارة إهابه، فقال يحدث نفسه أو غيره: «أنا الملك الشاب».

وتروي بعض المصادر أنه اعتم صباح يوم بعمامة خضراء أعجبته، وجلس على فراش أخضر استهواه، وكان كل ما حوله مبسوطًا بالخضرة... فتطلع إلى مرآة أمامه، فأعجب بوسامته وشبابه، وشمر عن ساعده وقال: «أنا الملك الشاب. لقد كن محمد نبيًّا، وكان أبو بكر صديقًا، وكان عمر فاروقًا، وكان عثمان حييًّا، وكان يزيد صبورًا، وكان عبد الملك سائسًا، وكان الوليد جبارًا، وأنا الملك الشاب!!».

ودخلت عليه إحدى جواريه فرأته في موقفه هذا، وسمعت ما قاله، فتحركت شفتاها بكلام. وأحس بها سليمان، أحس بشفتيها تتحركان، فاستدعاها وسألها عما قالت، فترددت وأنكرت، فأقسم عليها أن تقول ولا ضير عليها، فقالت له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان
أنت من لا يريبنا منك شيء ... علم الله، غير أنك فاني
أنت خلو من العيوب ومما ... يكره الناس، غير أنك فاني
ليس فيما علمته فيك عيب ... كان في الخلق، غير أنك فاني!

فاهتز سليمان من كلامها، واعتبر به فصاح يقول: «لقد غرتني نفسي! لقد غرتني نفسي!».

ويروى أن المفضل بن المهلب دخل على سليمان في يوم جمعة، وجعل سليمان يلبس

ملابس فلا تعجبه، فيغيرها. حتى ارتضى ثيابًا خضرًا سوسية من الخز، كان قد أرسل بها إليه يزيد بن المهلب... فلبسها، واعتم، وتطلع إلى المرآة، فأعجبه إهابه وشبابه وثيابه، فالتفت إلى المفضل وقال له: «يا ابن المهلب، أعجبتك؟»، فأجاب المفضل: «نعم». فكشف سليمان عن ذراعه وقال: «أنا الملك الفتي!!».

وكان سليمان حينئذٍ مقيمًا في «مرج دابق»، وهو مكان بينه وبين حلب نحو أربعة فراسخ، وكان مرابطًا هناك في غزوة الصائفة يقاتل الروم... فطال به المقام، فصيف وشتى، وقيل إنه ركب عشية اليوم الذي تحدث فيه إلى المفضل، فمر في «دابق» على تل مهجور، فتطلع إليه، وهو في زهوه وخيلائه، فرأى عليه قبرًا، فقال لمن معه: «قبر من هذا؟». قالوا: «هذا قبر عبد الله بن مسافع القرشي». فقال سليمان كالمشفق عليه: «ويحه! لقد أمسى قبره بدار غربة!!».

ولم يكن سليمان يدري، حين قال ذلك، أنه قاب قوسين أو أدنى من الموت الذي ينقل الإنسان إلى الغربة التي ليس بعدها غربة. ولم يكن يدري أن قبره سيكون بجانب قبر عبد الله بن شافع، بعد قليل من الزمان!!

وأصيب سليمان بالحمى حين فشت في أهله وأصحابه، وأراد أن يتوضأ ليخرج إلى صلاة الجمعة، فنادى على إحدى جواريه لتصب عليه ماء وضوئه، فبينما هي تفعل إذ سقط الكوز من يدها، فنظر إليها سليمان شزرًا وقال: «ما قصتك؟».

أجابت: «معذرة فإني محمومة!».

فسألها عن غلام له فقالت: «هو أيضًا محموم!».

فسألها عن جارية أخرى، فقالت: «هي أيضًا محمومة!».

فقال معتبرًا: «الحمد لله الذي جعل خليفته في أرضه وليس عنده من يوضئه!».

وكان خاله الوليد بن القعقاع العبسي حاضرًا عنده فقال له:

قرب وضوءك يا وليد، فإنما هذي الحياة تعلة ومتاع

فأجابه الوليد على الفور:

فاعمل لنفسك في حياتك صالحًا فالدهر فيه فرقة وجماع!

فكأنما هزه الوليد هزة الموت!

وخرج سليمان إلى المسجد ليصلي بالناس صلاة الجمعة، وخطبهم... فسمعه من كان في أقصى المسجد أول الأمر، ثم لم يزل صوته يضعف حتى انصرف من المسجد محمومًا حمى موصولة بموته.

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد بالخلافة قبل ذلك بزمن، إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ يومئذٍ، فراجعه في ذلك رجاء بن حيوة، وقال له معترضًا على تصرفه:

«ماذا تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح من بعده».

فقال سليمان متخلصًا أو معتذرًا: «إنه كتاب أستخير الله فيه، وأنظر، ولم أعزم عليه».

ومكث سليمان يومًا أو يومين، ثم مزق كتاب عهده لابنه أيوب: ثم جاء القدر ففصل في الموت بما هو أوضح... إذ مات أيوب في حياة سليمان كما يروي ابن عبد الحكم.

واشتد المرض بسليمان، وأراد أن يستخلص فدعا برجاء بن حيوة ليشاوره، فلما جاءه قال له عن عهد الاستخلاف: «ما ترى في داود بن سليمان؟». قال رجاء: «هو غائب بالقسطنطينية وأنت لا تدري أحي هو أم ميت».

وكأن عمر بن عبد العزيز دخل عقب ذلك، وكان لم يبق لسليمان ولد إلا وهو صغير... فقال سليمان لرجاء: «اعرض علي أولادي في القمصان والأردية». فعرضهم عليه... فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمصان والأردية، بل هم يسحبونها سحبًا لثقلها عليهم. فتطلع سليمان إليهم متحسرًا ملتاعًا، وقال:

إن بنــــي صـــــبية صـــــغار أفلـــح مـــن كـــان لـــه كبـــار

فقال عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وبلغ القول مسمع سليمان، ولكنه لم يجب بشيء.

ثم قال سليمان لرجاء: «يا رجاء، اعرض على أولادي في السيوف!».

فقلدهم رجاء السيوف، ثم عرضهم عليه... فإذا هم صغار لا يحملونها، يجرونها جرًّا، فنظر إليهم وقال:

إن بنــــي صـــــبية صـــــيفيون أفلـــح مـــن كـــان لـــه ربعيـــون(١)

فعاد عمر يقول لسليمان: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

---

(١) الصيفيون هم أولاد الرجل بعد كبره، فهم صغار كأنهم ولدوا في الصيف بعد فوات الربيع الممرع. وأما الربعون، فهم أولاد الرجل قبل كبره، كأنهم جاءوا في الربيع مبكرين فكبروا.

فلما لم ير سليمان في أولاده من يصلح للخلافة، اتجهت نيته وحدثته نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من صلاحه واستقامته، ولكنه لم يبد ذلك، وانتظر حتى خرج عمر، ثم قال لرجاء: «فمن ترى؟». قال رجاء: «رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر من تذكر». فقال له سليمان: «كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟».

أجاب رجاء: «وأعلمه والله فاضلًا خيارًا مسلمًا». فقال سليمان: «هو والله على ذلك، ولئن وليته ولم أول أحدًا من ولد عبد الملك... لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبدًا يلي عليهم، إلا أن أجعل أحدهم بعده، فأنا أجعل يزيد بن عبد الملك بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويجعلهم يرضون به!».

وفي رواية عن رجاء بن حيوة قال: «لما ثقل سليمان رآني عمر في الدار أخرج وأدخل، فقال: يا رجاء، أذكرك الله والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين أو تشير به علي إن استشارك... فوالله ما أقوى على هذا الأمر. فانتهرته وقلت: إنك لحريص على الخلافة، أتطمع أن أشير عليه بك؟ فاستحيا. ودخلت، فقال سليمان: من ترى لهذا الأمر؟ فقلت: اتق الله، فإنك قادم عليه، وسائلك عن هذا الأمر وما صنعت فيه! قال: فمن ترى؟ قلت: عمر بن عبد العزيز».

ولما تمت نية سليمان على استخلاف عمر، تناول ورقة فكتب فيها بيده:

«بسم الله الرحمن الرحيم... هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز. إني وليته الخلافة بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع فيكم».

ولم يطلع على هذا الكتاب سوى رجاء بن حيوة الكندي الذي كان صاحب مشورته.

ولما انتهى سليمان من الكتاب... ختمه، وأرسل إلى كعب بن جابر صاحب شرطته، أمره بأن يجمع أهل بيت سليمان وقرابته. ثم قال سليمان لرجاء: «اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم بكتابي، ومرهم فليبايعوا من وليت فيه». ففعل رجاء، فقال القوم دون أن يعلموا اسم من في الكتاب: «سمعنا وأطعنا لمن فيه». ثم قالوا: «ندخل ونسلم على أمير المؤمنين».

قال رجاء لهم: «نعم».

فدخلوا، فأشار سليمان إلى الكتاب، وهم ينظرون إليه في يد رجاء، وقال سليمان: «هذا الكتاب... هذا عهدي، فاسمعوا له وأطيعوا، وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب».

فبايعوا رجلًا رجلًا، وظل الكتاب مختومًا في يد رجاء، وتفرق القوم.

وجاء عمر منفردًا إلى رجاء فقال له:

«يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة، وكان بي برًّا وملطفًا، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلي من هذا الأمر شيئًا... فأنشدك الله وحرمتي ألا أعلمتني إن كان ذلك، حتى أستعفيه الآن، قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ذلك».

فقال له رجاء: «والله ما أنا مخبرك حرفًا واحدًا» فذهب عنه عمر غاضبًا.

ثم جاء هشام بن عبد الملك إلى رجاء منفردًا فقال له: «يا رجاء، إن لي حرمة

ومودة قديمة، وعندي شك. فأعلمني: أهذا الأمر إلي؟ فإن كان إلي علمت، وإن كان إلى غيري تكلمت... فليس مثلي قصر به، ولا نحى عنه هذا الأمر، فلك الله ألا أذكر اسمك أبدًا... فأعلمني!».

فأبى رجاء أن يخبره، وقال له: «والله لا أخبرك حرفًا واحدًا».

فانصرف هشام، وهو يائس، يضرب إحدى يديه بالأخرى، ويقول: «فإلى من أذن نحيت عني. أتخرج من بني عبد الملك؟!».

ويروي ابن عبد الحكم، أن سعيد بن خالد دخل مع عمر بن عبد العزيز وبعض أهل بيته يعودون سليمان، فرأوا به الموت. ولما انصرفوا تخلف عمر متظاهرًا بأنه يصلح حذاءه، حتى أدركه رجاء، فقال له عمر: «يا رجاء، إني أرى أمير المؤمنين في الموت، ولا أحسبه إلا سيعهد. وأنا أناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلا مددته عني، وإن لم يذكرني أن لا تذكرني له في شيء من ذلك».

فقال له رجاء متسترًا: «لقد ذهب ظنك مذهبًا ما كنت أحسبك تذهبه، أتظن أن بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم؟!».

* * *

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وكان رجاء بجوار سليمان وهو يحتضر، فجعل كلما أخذته سكرة من سكرات الموت عدله إلى جهة القبلة، فيقول له سليمان بصوت خافت: «لم يأن ذلك بعد يا رجاء».

وحدث ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة، قال له سليمان: «من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئًا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

وعدله رجاء إلى القبلة، ومات بعد ذلك بقليل... فغمضه رجاء، وسجاه بقطيفة خضراء. وحينئذٍ جاء رسول من قبل زوجة سليمان تسأل: «كيف أصبح أمير المؤمنين؟»، فأجاب رجاء: «نام وقد تغطى». فنظر الرسول إلى سليمان مغطى، فصدق كلام رجاء، وعاد إلى داخل البيت يخبرها بذلك... فقبلت واطمأنت!

وأغلق رجاء الباب على سليمان، وجعل عليه من يثق به، وأوصاه ألا يترك الباب أبدًا حتى يعود إليه، وألا يجعل أحدًا يدخل على سليمان.

وأرسل رجاء إلى كعب بن جابر يطلب إليه أن يجمع بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق، فقال لهم رجاء: «بايعوا». فتعجبوا وقالوا: «قد بايعنا مرة، ونبايع أخرى؟!».

قال رجاء: «هذا كتاب أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم». فبايعوا رجلًا رجلًا. ولما رأى رجاء أنه قد أحكم الأمر، قال لهم: «قوموا إلى صاحبكم فقد مات!!».

وكانت وفاة سليمان يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين، وهو ابن أربعين سنة...

ويذكر ابن عبد الحكم أن رجاء عقب موت سليمان كتم الخبر، وخرج إلى الناس، وقال: «إن أمير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة لمن كان عهد إليه، وقد أصبح بحمد الله صالحًا».

فقالوا: «أوصلنا إلى أمير المؤمنين لننظر إليه، وننفذ لأمره».

فأجابهم رجاء إلى ما أرادوا، وأسرع بالدخول إلى سليمان، فأجلسه وهو ميت، وأسنده بالوسائد، وأقام عنده خادمًا، ودعا الناس إلى دخول البيت. ووقفوا عند الباب، وبينهم وبين سليمان مسافة لا تسمح لهم بتبين حقيقته، فجعلوا يسلمون من بعيد وهم يرون شخصه، والخادم يرد عنه رد المريض وهم ينظرون إليه.

ثم قال رجاء: «يأمركم أمير المؤمنين أن تبايعوا لمن عهد إليه، وتسمعوا له وتطيعوا».

* * *

واجتمع الناس في المسجد، وهم بين أمرين: موت سليمان، ومعرفة الخليفة الجديد.

وصعد رجاء المنبر فقال: «إن أمير المؤمنين كتب كتابًا وعهد عهدًا... فسامعون أنتم ومطيعون؟».

قال الناس: «نعم».

وقال هشام: «نسمع ونطيع إن كان رجلًا من بني هاشم».

فجذبه الناس في عنف حتى سقط على الأرض، وارتفعت الأصوات هاتفه: «سمعنا وأطعنا».

وفض رجاء كتاب سليمان، وتعلقت به الأبصار بعد أن خشعت الأصوات، وكادت تحتبس الأنفاس... وكل يرقب ماذا في الكتاب، وينتظر معرفة الخليفة الجديد. وبدأ رجاء يتلو الكتاب، حتى بلغ ذكر عمر بن عبد العزيز، فشملت من في المسجد

فرحة غامرة. ولكن هشام بن عبد الملك -الذي كان يطمع في الخلافة ويترقبها- لم يكفه ما فعل الناس به منذ قليل، فجثا على ركبتيه، وقال كالمعترض: «هاه». فسل رجل من أهل الشام سيفه، وقال له: «تقول لأمر قد قضاه أمير المؤمنين هاه؟!».

قال هشام: «لا نبايعه أبدًا». فقال له رجاء في تصميم: «والله أضرب عنقك».

ولما أكمل رجاء الكتاب، وجاء فيه ذكر يزيد بن عبد الملك... خف الوقع على هشام، فعاد يقول: «سمعنا وأطعنا»، فقال له رجاء: «قم فبايع!».

ولكن أين عمر؟... أو ليس في المسجد؟... إنه لا يرى في الصفوف الأمامية، ولا فيما بعدها، ولا في رحبته... فأين عمر؟

وعلا صوت الناس يقول: أين عمر بن عبد العزيز؟... وطلبوه، فإذا هو في أقصى مؤخرة المسجد، وإذا هو في دهشة وذهول. وتخطى رجاء الصفوف إلى مؤخرة المسجد باحثًا عنه، فلما رآه سلم عليه بالخلافة قائلًا: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قم إلى المنبر!».

ولكن عمر حينئذٍ كان كالمعقور أو المشلول... فهو لا يستطيع الحراك من هول المفاجأة، وهو يردد: «والله إن هذا الأمر ما سألته قط في سر ولا علانية».

ولما سلم عليه رجاء بالخلافة قال له عمر: «أنشدك الله يا رجاء». فقال له رجاء: «أناشدك الله أن يضطرب بالناس حبل، فقد لقي سليمان ربه».

وطلب منه رجاء أن ينهض فلم يستطع، فأخذ رجاء بضبعيه وأنهضه، وسار به إلى المنبر، وهو يسترجع ويقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»... يبدي ألمه لأن الخلافة صارت إليه، بينما هشام بن عبد الملك يسترجع أيضًا، ولكن لأن الخلافة أخطأته وذهبت عنه

إلى سواء!

ولما التقى هشام بعمر قال له هشام: «إنا لله وإنا إليه راجعون حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك!».

فقال عمر: «نعم، وإن الله وإنا إليه راجعون حين صار إلي، لكراهتي له!!».

ولم يستطع عمر صعود المنبر وحده، فعاونه رجاء حتى صعد. ويظهر أنه أعاد تلاوة كتاب الاستخلاف، ثم سكت طويلًا... والناس ينتظرون ويتلهفون شوقًا إلى ما يقول.

ثم بدأ عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم!».

ثم قال: «أيها الناس إني والله ما سألتها الله في سر ولا علانية قط... فمن كره منكم، فأمره إليه!!».

فنهض إليه رجل من الأنصار وقال له: «يا أمير المؤمنين، ذاك والله أسرع فيما يكره، ابسط يدك أبايعك». ودنا الرجل من عمر مادًّا يده، في حين صاح الناس من جوانب المسجد: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك... فتول أمرنا باليمن والبركة!».

ولم يبق مجال للتردد أو المراجعة، وتطلع عمر إلى الناس.. وقد هدأت أصواتهم، وأصاخت أسماعهم، وتعلقت به عيونهم، يرقبون منه الكلمة الأولى التي يفتتح بها عهده الميمون. فبدأ عمر الكلام، فحمد الله ﷻ، وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ، ثم قال:

«أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله ﷻ خلف. واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه. وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات. وإن من لا يذكر من آبائه -فيما بينه وبين آدم عليه السلام- أبا حيا لمعرق في الموت، وإن هذه الأمة لمن تختلف في ربها ﷻ، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها... وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي أحدًا باطلًا، ولا أمنع أحدًا حقًّا».

ثم رفع عمر صوته حتى جلجل في آذان الناس في أرجاء المسجد فقال: «يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له... أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم!».

ونزل عمر من فوق المنبر... والناس في موجة من الفرح لرجائهم القوي في أن يجدوا من عمر الخير كله.

* * *

ولكن ما هذا؟... إن عمر قد نزل من فوق المنبر مهمومًا مغمومًا، حزينًا متألمًا، وجلس بجوار المنبر قليلًا، وأدخل رأسه بين ركبتيه... ثم بكى!

ولم يبكي عمر؟... إنه يبكي من خشية التبعة العظمى التي حملها، والتي يخاف ألا ينهض بها كما ينبغي فيتعرض لغضب الله عليه. ولكن بعض الغافلين عن ذلك همس في آذان الناس يقول: عمر يبكي فرحًا بالخلافة!!

ثم قام عمر، وقام الناس... وشرعوا في تجهيز سليمان لدفنه، فحانت المغرب قبل

أن يصلي عليه، فصلى عمر المغرب، ثم صلى على سليمان، ثم حملوا سليمان من قصره إلى قبره. وهناك، فوق التل المهجور الذي مر عليه منذ قليل، وبجوار عبد الله بن مسافع القرشي الذي توجع له منذ قليل فقال: يا ويحه! لقد أمسى قبره بدار غربة!... هناك أسكنوا سليمان جدته، في مساء كالذي مر فيه على قبر ابن مسافع، وفي يوم جمعة كالذي حدث فيه ذلك المرور!

ونزل عمر قبر سليمان حين دفنه ومعه ثلاثة من أولاد سليمان. فلما هموا بوضع سليمان في حفرته، اهتز بدنه في أيديهم حين تناوله، فخيل إليهم أنه قد تحرك وعادت إليه الروح، فقال أحد الأولاد الثلاثة: «عاش والله أبي!».

فقال عمر بصوته الحزين: «لا والله، ولكن عوجل أبوك!».

ولم يترك المرجفون بالباطل هذه الحادثة، بل علقوا عليها بما يرضي شيطانهم، فقالوا عن عمر: لقد دفن سليمان حيًّا!... وقالوا إنه كان يجب عليه أن ينتظر مدة على سليمان لعلها تكون إغماءة، ولعل الروح تعود إليه!

ولعلنا رأينا من سياق الحوادث أنه قد مضت مدة طويلة ذهبت فيها فعله رجاء، وفي جمع الناس، وفي قراءة الكتاب، وفي مبايعة القوم، وفي خطبة عمر... ولكن قاتل الله الافتراء!

وما كاد ينتهي من دفن سليمان حتى أقبلوا عليه بمراكب الخلافة التي كان يركبها سليمان -ولها هزة في الأرض ورجة- وفيها الخيول المسرجة المطهمة، ومعها الفرسان الشاهرة، وأمامهم صاحب الشرطة يريد أن يسير بين يديه. ولما عرضوا ذلك عليه، أعرض عنه وأباه، وقال لهم: «قدموا لي بغلتي!».

وقال لصاحب الشرطة: «تنح عني، ما لي وما لك؟ إنما أنا رجل من المسلمين!».

وأمر بتسريح الفرسان، وأعفى الكثير من الشرطة والحرس... وركب بغلته ورجع وهو يقول: «ليس أحد من أمة محمد ﷺ إلا له عندي... شرقها وغربها!!».

ويقول ابن عبد الحكم:

«فلما دفن سليمان دعا عمر بدواة وقرطاس، فكتب ثلاثة كتب لم يسعه فيما بينه وبين الله ﷻ أن يؤخرها، فأمضاها من فوره، فأخذ الناس -في كتابته إياها هنالك- في همزه (أي نقده). يقولون: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله؟ هذا حب السلطان!... هذا الذي يكره ما دخل فيه!

ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه، ولكنه حاسب نفسه، ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه...

كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برًّا وبحرًا، وأشفى على فتحها، ثم خدع عنها، حتى أحرزوا طعامهم وحوائجهم، ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها. فبلغ ذلك سليمان، فغضب مما فعل به، فحلف ألا نقفله منها ما دام حيًّا... فاشتد عليهم المقام، وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسيوف، فبلغ رأس الدابة كذا وكذا درهمًا...

ولج سليمان في أمرهم، فكان ذلك يغم عمر. فلما ولي رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله ﷻ أن يلي شيئًا من أمور المسلمين ثم يؤخر قفلهم ساعة... فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب...

وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي -وكان على خراج مصر- وأمر به أن يحبس في كل جند سنة، ويقيد ويحل من القيد عند كل صلاة، ثم يرد في القيد. وكان غاشمًا ظلومًا، معتديًا في العقوبات بغير ما أنزل الله ﷻ... يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به، ويشق أجواف الدواب، فيدخل فيه القطاع ويطرحهم للتماسيح، فحبس بمصر سنة، ثم نقل إلى أرض فلسطين فحبس بها سنة... ثم مات عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وولي يزيد بن عبد الملك، فرد أسامة على مصر...

وكتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية، وكان عامل سوء: يظهر التأله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان، مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق. وكان في هذا يكثر الذكر والتسبيح! ويأمر بالقوم يكونون بين يديه يعذبون، وهو يقول: سبحان الله والحمد لله، شد يا غلام موضع كذا وكذا -لبعض مواضع العذاب- وهو يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام موضع كذا وكذا... فكانت حالته تلك شر الحالات! فكتب بعزله...

فهذا سبب الثلاثة التي عجل بها».

وعاد عمر من دفن سليمان، فرأى السرادقات والحجر والستور والثياب والفرش التي كانت تخصص للخليفة... فأعرض عن ذلك كله، وأبطل العمل به، وقال لمولاه مزاحم: «ضم هذا إلى بيت مال المسلمين».

وقدموا إليه الجواري رجاء أن ينجذب إليهن، فأمر بردهن إلى أهليهن!

ودخل عمر القصر، وقد مهدت له فرش سليمان، فلم يجلس عليها... بل خرج إلى المسجد، واجتمع له الناس، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم ﷺ نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب. ألا ما أحل الله ﷻ فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله ﷻ فهو حرام إلى يوم القيامة. ألا لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع. ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله ﷻ. ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم... غير أن الله جعلني أثقلكم حملًا»!... واستمر يتحدث عن منهاجه!

ودخل عمر على امرأته، وأخبرها أنه قد شغل عنها بتبعات الخلافة، فإن شاءت أقامت في منزلها. وإن شاءت لحقت بمنزل أبيها، فبكت... ولكنها بقيت، واستجابت لعمر وأعانته!

وأصبح صباح اليوم الأول وهو خليفة، فلم يترك وقتًا يمر، بل شرع يعمل ويعمل... فبدأ بمواساة أولاد سليمان، وتنفيذ العاجل من الأمور، حتى تعالت الشمس، وجاء وقت القيلولة، وقد بلغ به التعب مبلغه، فأراد أن يستريح قليلًا، فجاءه ابنه عبد الملك -وكان تقيًّا صالحًا ورعًا- فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين، ماذا تريد أن تصنع؟

قال عمر: يا بني، أريد أن أقيل!

قال عبد الملك: تقيل ولا ترد المظالم!

قال عمر: أي بني! إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم؟

قال عمر: ادن مني أي بني!..

فدنا منه ولده، فاحتضنه وقبله بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني.

ثم خرج عمر ولم يسترح، وأمر مناديه أن ينادي في الناس: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها.

وجاء الناس بمظالمهم، وجعل الخليفة الثائر على الظلم والبغي والجور لا يدع شيئًا مما كان في يد سليمان، أو في يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة.

يقول ابن الجوزي: «فلما بلغت الخوارج سيرة عمر: وما رد من المظالم... أجمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل!».

ويقول ابن عبد الحكم:

«واحتجب عن الناس ثلاثًا لا يدخل عليه أحد -ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينتظرون ما يخرج عليهم منه- فجلس للناس بعد ثلاث، وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها: فرد المظالم، وأحيا الكتاب والسنة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها، وتجرد لإحياء أمر الله ﷻ... فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله ﷻ، فرحمه الله!».

خامس الراشدين

استفاضت الأخبار التاريخية بإطلاق لقب «الخليفة» على عمر بن عبد العزيز. ويستطيع المطالع أن يجد هذه الأخبار في المراجع التي بسطت الحديث عن هذا الخليفة الورع الزاهد، مثل كتاب «سيرة عمر بن عبد العزيز» الذي صنفه الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي، ومثل كتاب «سيرة عمر بن عبد العزيز» المروي عن الإمام مالك بن أنس، ومثل كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، وغيرها.

ولنذكر هنا بعض هذه الأخبار:

حدث علي بن الحسين قال: «أخبرني خارجة بن مصعب عن ابن عون عن مجاهد قال: المهادي سبعة: مضى خمسة، وبقي اثنان. قال خارجة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم... أي هؤلاء هم الخمسة الذين مضوا».

وحدث أبو عبيدة السري بن يحيى بن أبي هنادين قال: «سمعت قبيصة بن عقبة يقول: سمعت سفيان الثوري يقول: الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم».

وقد رواه قبيصة عن عباد بن سفيان قال: «حدثنا قبيصة قال: حدثنا عباد السماك قال: سمعت سفيان يقول: أئمة العدل خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز».

وفي رواية قال عباد السماك: «سمعت سفيان الثوري يقول: أئمة العدل خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز. من قال غير هذا فقد اعتدى».

وقال قبيصة في رواية أخرى: «سمعت عبادًا السماك يقول: سمعت الأئمة خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز».

وحدث مزاحم الخاقاني قال: «حدثني عمي أبو علي عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان، أنه ذكر لأحمد بن حنبل أنه يروى عن سفيان الثوري أنه قال: أئمة الهدى أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز، فقال له أحمد بن حنبل: هذا كذا هو».

وكثير من الناظرين في تاريخ الأمة الإسلامية يعتبرون عمر بن عبد العزيز المجدد الأول للإسلام على رأس المائة الأولى من الهجرة... ويا لها من منزلة سامية!

حدث محمد بن الحسن بن الجنيد قال: «سمعت عثمان بن علي يقول: سمعت حميد بن رنجويه النسائي يقول: قال أحمد بن حنبل: يروى في الحديث: «**إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها**»... فنظرنا في المائة الأولى، فإذا هو عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المائة الثانية فنراه الشافعي».

والواقع أن الفترة القصيرة التي قضاها الإمام العادل عمر بن عبد العزيز في خلافته، كانت عودة مباركة إلى هذا العهد النبوي المشرق الذي استفاضت أنواره على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعلى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين. وإذا كنا نرى الخيرات والبركات تفيض على أيدي هؤلاء الأربعة الراشدين، فيجب أن نتذكر ذلك التمهيد الطويل الذي قام به الرسول صلوات الله عليه، ليجعل الطريق لمن بعده معتدلًا مستقيمًا... ومن هنا أقبل كل خليفة من هؤلاء الأربعة، فاستقام وتابع، وزاد في الخير.

ولكن عمر بن عبد العزيز جاء في فترة عصيبة: ظهرت فيها طوائف وأحزاب، ونبتت خلالها فتن ومحن، واتسعت الفجوة بين الحاكمين والمحكومين، وتحدث الناس عن المظالم والمآثم... فإذا عمر يقبل إقبال الفجر الصادق: فيرد المظالم، وينصف المظلومين، ويؤدب الخارجين، وينشر السلام والأمان والإحسان بين جميع الناس... فلا عجب أن يجعله المؤرخون خامس الخلفاء، عليه رضوان الله.

كيف بخبيب على الطريق؟

الطاعة والمعصية!...

هاتان هما الكلمتان اللتان يضطرب بين مجاليهما الإنسان... يناله التوفيق، فيعتدل ويستقيم، ويألف الطاعة، ويستظل بظلالها ويحيا في رحابها. وتزل قدمه فيهوي في دركات المعصية حينًا أو أحيانًا من الزمان.

وليس الإنسان بمعصوم من الخطأ، ولا بمنزه عن المعصية... بل إن نفسه أمارة بالسوء، وعوارض الزلل والخطأ تعرض له في قلة أو كثرة، وهو يجاهد ويناضل، لينأى عن هذه العوارض، حتى لا يصيبه منها شيء، أو لا يصيبه من رشاشها إلا أقل مقدار. فإذا أصابه شيء، سارع بالتطهر والاستغفار والرجوع إلى الله، فيقبله فرحًا به، راضيًا عنه، مؤيدًا له في محاولته الاعتصام بحبل التقوى وسبب الهداية.

وفي ضوء هذا نفهم معنى الحديث الذي يقول: «**لو لم تذنبوا وتستغفروا، لذهب الله بكم، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم**».

وقد يفعل الإنسان طاعة أو طاعات، فيغتر بها وينخدع، ويخيل إليه أنه قد صار بمأمن من الحساب والعقاب، وأنه قد قدم بين يديه رصيدًا من القربات يسوغ له أن يفتخر به ونفاخر به... وهذا الاغترار بالطاعة هو من أسوأ ما يدخل على المرء مني آفات تعرضه للانحراف والضلال.

وقد نرى شخصًا آخر فيه طبيعة الإنسان المتواضع المسالم الذي يعرف قدر نفسه، ويدرك نقصه وضعفه أمام خالقه. وربما زل هذا المرء زلة، أو أخطأ خطيئة، أو هفا هفوة... فإذا هو نادم خائف، وإذا هو تائب مستغفر، وإذا هو يحس خطر هذه الزلة،

وكأنها شبح مخيف يراوحه ويغاديه، أو كابوس ثقيل يكظم على أنفاسه، ويضغط على صدره، ولا يدعه يهدأ أو يستريح... وإذا هذه الحالة تدعو صاحبها إلى أن يضاعف من عمله الحسن، وطاعته المستمرة، وتقربه الموصول... وإذا المحنة تصبح منحة، وإذا البلية تصير عطية، وإذا المعصية التي أتاها في أول الأمر تكون سببًا لطاعات بعدها طاعات، وتكون مفتاحًا لأبواب من القربات بعدها أبواب.

ومن هنا قال ابن عطاء الله السكندري في حكمه: «رب معصية أورثت ذلًّا واستغفارًا، خير من طاعة أورثت غرورًا واستكبارًا».

وقال مؤرق العجلي كما يروي الماوردي في «أدب الدنيا والدين»: «خير من العجب بالطاعة، ألا تأتي بطاعة».

وقال بعض السلف: «ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه، وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه».

وقد سمعنا بمن أحسن الاستقامة على طريق الفضيلة والتقوى والعمل الصالح، وكان في شبابه قد اقترفت يداه بعض الجرائم، ثم استبشعها واستكبرها، فأقبل على التوبة والاستغفار، حتى استقام على الطريق.

* * *

وفي حياة عمر بن عبد العزيز حادث من هذا القبيل!

إنه حادث وقع لعمر وهو في عز شبابه، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، فظل هذا الحادث يعكر عليه صفو حياته، ويقبل بسحابة ثقيلة على كل مسرة من

مسراته، ويشير في نفسه الأسى والأسف، ويقلب فرحه ترحًا، وابتسامه اكتئابًا، وراحته قلقًا واضطرابًا.

لقد كان قبل هذا الحادث لباسًا معطارًا مختارًا مختالًا، فأصبح بعده زاهدًا متقشفًا، حزينًا باكيًا، أسيفًا متواضعًا... لا يجد شهوة ولا رغبة في الثياب أو العطر أو الاختيال. وكان يتلو القرآن ويحب سماعه. وكان ضاحكًا بسامًا، فأصبح عابسًا مكتئبًا. وكان يتبختر في مشيته، فأصبح كأنما يجر رجليه في مشيه جرًّا. وكان ذا شغف بألوان الطيب والعطور، فأصبح يتحدث عن رائحة القبور!

ومهما يكن هذا الحادث قد أدخل على عمر الحزن والأسف والاكتئاب، فإنه كان خيرًا عليه وبركة له... لأنه وثق صلته بالله، وأكد رابطته بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. كما كان هذا الحادث خيرًا وبركة على المسلمين، فقد صنع الله لهم من وراء هذا الحادث إمامًا جليلًا، وحاكمًا عادلًا، وخليفة راشدًا، ووليًّا قاصدًا... فاضت من يديه الخيرات والبركات، وكان نعم الرجل النجيب الصالح المصلح، الذي نال من متع الدنيا ما نال، ثم اتجهت نفسه بكليتها إلى الله، وإلى الدار الآخرة!!

لقد كان عمر بعد هذا الحادث، يصنع من الخيرات ما يصنع، ويفعل من الصالحات ما يفعل، ويقدم من القربات ما يقدم، وكلما فعل صالحة أو أتى مكرمة، وأعجب بها أحد الناس فقال له: أبشر فقد فعلت كذا وكذا... أجاب عمر في أسى عميق وحزن وجيع: «فكيف بخبيب على الطريق؟!... فكيف بخبيب على الطريق؟... فكيف بخبيب على الطريق؟!».

خبيب؟... ومن خبيب؟

إنه بطل الحادث الذي أشرنا إليه، أو إن شئت فقل إنه ضحية هذا الحادث الذي قلب حياة عمر رأسًا على عقب فيما نظن، وأحدث فيها هذا التطور الخطير الذي يلحظه كل من يقارن بين عهد عمر في المدينة وعهده بعد أن ترك إمارة المدينة، وبعد أن أقبلت عليه الخلافة!

فمن يكون خبيب هذا؟

إنه خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي المدني. وخبيب هو أسن أولاد عبد الله بن الزبير، وأمه هي خيثمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وله من الأولاد الزبير والمغيرة.

وكان خبيب تابعيًّا عابدًا ثقة، من النساك، وكان قد لقي العلماء، وقرأ الكتب. وقيل إنه أدرك كعب الأحبار، وهو أبو إسحاق كعب بن مانع الحميري الثقة، الذي كان يُعرف بكعب الأحبار، وكان من أهل اليمن فسكن الشام، ومات في خلافة عثمان، وقد زاد على المائة.

وروى خبيب عن أبيه وعائشة وكعب الأحبار ﵃. وروى عنه ابنه الزبير، ويحيى بن عبد الله بن مالك، والزهري، وسليمان بن عطاء، وغيرهم. وذكره الإمام مسلم في الطبقة الثالثة من تابعي المدنيين. وفي «تقريب التهذيب» أنه «ثقة عابد من الثالثة». وذكره ابن حبان فقي الثقات. وروى له النسائي حديثًا واحدًا في صبغ الثياب بالزعفران، ولم يسمه في روايته، بل قال: «عن ابن عبد الله». وسماه أبو صالح كاتب الليث في روايته لذلك الحديث. رواه سمويه في فوائده، ولكنه لم يقل: ابن الزبير.

وكان خبيب عالمًا بقريش. وقال الزبير بن بكار عن خبيب: «أدركت أصحابنا

وغيرهم يذكرون أنه كان تعلم علمًا كثيرًا، لا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه، يشبه ما يدعيه الناس من علم النجوم»... قالوا: وربما تكهن خبيب بالشيء فوقع كما تكهن به!

وقال مصعب بن عبد الله: «كنت أمشي مع خبيب وهو يحدث نفسه، إذ وقف ثم قال: سأل قليلًا فأعطى كثيرًا، وسأل كثيرًا فأعطى قليلًا، فطعنه فأرداه فقتله. ثم أقبل علي فقال: قتل عمرو بن سعيد الساعة!... ثم مضى -فوجدوا أن ذلك اليوم هو اليوم الذي قتل فيه عمرو بن سعيد».

وعمرو هذا هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق، يقال إن له صحبة، وإنه روى عن النبي ﷺ مرسلًا وليس بصحيح. وقد ولي المدينة لمعاوية وليزيد، ثم طلب الخلافة، وغلب على دمشق سنة تسع وستين، وأمنه عبد الملك بن مروان، ثم قتله في العام السابق، أو في عام سبعين. ويقال إنه قتله بيده ذبحًا. ومات عمرو في نحو الثمانين، وكان يقال له: «لطيم الشيطان».

ومن كلام عمرو أنه لما غلب على دمشق صعد المنبر وقال: «إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة ونارًا: يدخل الجنة من أطاعه والنار من عصاه. وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إلي من ذلك شيء، وإن لكم على حسن المواساة».

والرواة يذكرون لخبيب بن عبد الله أشياء تشبه كلامه عن مصرع عمرو بن سعيد، والله أعلم بحقيقتها. وكان خبيب مع هذا طويل الصلاة قليل الكلام.

وقد ترجم له السخاوي في كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة»، وابن الجوزي في «سيرة عمر بن عبد العزيز»، وابن حجر العسقلاني في «تهذيب التهذيب»، وغيرهم.

وتوفي خبيب سنة ثلاث وتسعين للهجرة.

هذا هو خبيب... فما علاقته بخليفتنا عمر بن عبد العزيز؟ وما مدخله في الحادث الجليل الذي نتحدث عنه؟

لقد كان خبيب في المدينة وعمر أمير عليها. وكان خبيب من «حزب المعارضة» إذا صلح هذا التعبير، فهو يظهر الاعتراض على بني أمية، وعلى الولاة، كما يعترض على عمر في تصرفاته، ويظهر أنه كان عنيفًا في نقده، صريحًا في معارضته، قاسيًا في تعريضه.

ومن أدلة ذلك أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى واليه على المدينة -عمر بن عبد العزيز- أمرًا يكلفه فيه أن يهدم المسجد النبوي لتوسيعه وإدخال الحجرات التي كانت لنساء النبي فيه.

ولم يسع عمر إلا أن يطيع أمر الخليفة، ولأنه اعتقد أن ذلك خير للمسجد وللمسلمين. وأراد عمر أن يحتاط للأمر، فأشرك فيه جمهرة الفقهاء في المدينة. ومع ذلك حزن أهل المدينة وتألموا، لأنه قد عز عليهم أن يروا ذكريات هذه الحجرات تزول وتذهب بذهاب الحجرات وضياع معالمها في ساحة المسجد.

وكان خبيب أقوى الناس تعبيرًا عن الألم والسخط لذلك، فذهب إلى عمر بن عبد العزيز، ولكنه لم ينصحه بالحسنى، ولم يعظه بالحكمة، بل قال له يعرض به وبعمله، «ناشدتك الله يا عمر، أن تذهب بآية من كتاب الله تقول: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»!

وقابل عمر هذا التعريض بالصمت والسكوت، وإن يكن قد تألم منه، وخصوصًا أن خبيبًا لم يكتف بهذا -فيما يبدو- بل ذهب ينتقد عمر ويعرض به، ويطعن في بني

أمية. وبلغ به الأمر أن يردد بين الناس أن النبي ﷺ قال في بني أمية: «**إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلًا، اتخذوا عباد الله خولًا، ومال الله دولًا**»!

وبلغ هذا الكلام مسامع الوليد بن عبد الملك، وهو الخليفة في دمشق، وهو أمير المؤمنين بلغة عصرهم، أو وهو الحاكم للدولة، وهو رأس الأمويين بحكم منصبه... والأمويون هم الذين أشار إليهم خبيب في تعريضه بقوله: «بنو أبي العاص». فكيف لا يغضب الوليد لنفسه ولكرامته ولأسرته وقبيلته؟!

لكأن الوليد قد جن جنونه حينما بلغه هذا الطعن، فأرسل إلى عمر أمرًا مشددًا بأن يقبض على خبيب ويضربه مائة سوط -وقيل خمسون سوطًا، والأول أشهر- وأن يحبسه!

هذا هو أمر الخليفة المتمكن من سلطانه. وعمر هو واليه على المدينة، أو بتعبير آخر هو مرءوس له. ولكن عمر مع هذا يستطيع أن يعصي أمر الوليد ولا ينفذه.

نعم يستطيع ذلك إن أراده وأصر عليه، وماضيه مع الوليد يؤيد ذلك، فطالما راجع عمر الوليد في كلامه، واعترض على أفعاله. والتاريخ يجود علينا بكثير من الشواهد في ذلك.

فقد راود الوليدُ بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز على أن يخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد، فعارضه عمر في ذلك قائلًا له: «يا أمير المؤمنين، إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة، فكيف نخلعه ونتركك؟!»، بهذا أجاب عمر... ويا له من جواب!!

وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد في شيء، فتسرع الوليد في الكلام وقال لعمر: «كذبت». فأغلظ له عمر القول، وأجابه معرضًا به: «ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه!».

ولما سب بعض الناس خلفاء بني أمية، أراد الوليد أن يأخذ من عمر شبه فتوى باستحلال دماء الذين يسبون الخلفاء، فأرسل الوليد إلى عمر وقال له: «ما تقول فيمن سب الخلفاء؟ ألا ترى أن يقتل؟».

فسكت عمر، فأعاد الوليد القول مستثيرًا... فقال عمر له مستفهمًا ومستنكرًا: «أقتل يا أمير المؤمنين؟». قال الوليد: «لا، ولكنه سب الخلفاء!!».

فلم يطاوعه عمر فيما يريد، بل قال له في صراحة وقوة: «أرى أن ينكل به (أي يعاقب) بما انتهك من حرمة الخلفاء!».

ولم يعجب الوليد هذا الجواب، ولكنه لم يفعل مع عمر شيئًا يسيئه!

وعمر قد أجاب بما يعتقده، وبها التزمه حين صار خليفة... فقد كتب إليه عبد الحميد بن عبد الرحمن يقول: «إن رجلًا شتمك فأردت أن أقتله». فكتب إليه عمر: «لو قتلته لأقدتك به (أي قتلتك به)، فإنه لا يُقتل أحد يشتم أحدًا إلا رجل شتم نبيًّا».

بل أكثر من هذا...

لقد جاء قوم من الأعراب إلى عمر بن عبد العزيز -والخليفة هو الوليد بن عبد الملك- وذكر القوم إلى عمر أنهم أحيوا أرضًا، فجاء الوليد وأخذها وأعطاها لبعض أهله.

فذهب عمر إلى الوليد، واعترض على ما فعل، وقال له:

قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، من أحيا أرضًا ميتة فهي له».

فرد الوليد هذه الأرض على أصحابها الأعراب!

بل حدث أن الوليد بن عبد الملك أغلظ القول، وهو خليفة، لعمر بن عبد العزيز، فرد عليه عمر بمثل قوله، فغضب الوليد من ذلك غضبًا شديدًا، وأخذته العزة، فأمر بحبسه في بيت... ثم بدا له فأمر بإخراج عمر من البيت بعد ثلاثة أيام لا يدخل عليه فيها أحد.

وكان عمر قد ناله بسبب ذلك ألم عالجوه منه حتى صار إلى العافية، فقالت له زوجته فاطمة:

«إنك قد عرفت الوليد وعجلته، فلو داريته بعض المداراة؟!».

فأجابها عمر:

«أحدثك يا فاطمة حديثًا، فاكتميه ما دمت حيًّا».

قالت: «نعم».

قال: «إنه لما حبسني أتاني تلك الليلة آت في منامي فقال لي:

ليس للعلم في الجهالة حظ   إنما العلم ظرفه الإغضاء

فرفعت إلى القائل بصري، فإذا هو عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة، فسلمت عليه في منامي، فقال لي: إن الوليد جاهل بأمر الله ﷻ، على كثير من جهله... فأمر الله أحرى وأجدر ألا يترك!».

* * *

إذن لم يكن عمر بن عبد العزيز بالجبان ولا الرعديد، ولم يكن بالذي يرضي الناس ليغضب الله... بل هو يفضل أن يغضب الناس لينال رضا الله، وإذن كان عمر ينكر على الوليد ويراجعه، ويعترض على بعض أقواله وأعماله.

فما باله إذن لم يعترض على الوليد فيما أمر به مع خبيب؟!

لننظر أولًا ما فعله عمر بخبيب، ثم نعود بعد ذلك إلى الإجابة عن هذا السؤال...

أحضر عمر خبيبًا أمام المسجد، وضربه حسب أمر الوليد مائة سوط تأديبًا له، وارتفعت درجة الحرارة في جسم خبيب بسبب الضرب والجلد، فأصيب بالحمى، وأمر عمر بقربة ماء بارد فصبوها عليه -وكان الجو باردًا- فتقلص جسم خبيب المحموم المجلود، وكز (أي يبس وانقبض من البرد)، وخر مغشيًّا عليه، وأشرف على الموت. وروي أنه أوقفه على باب المسجد يومًا.

ويروى أنه بعد أن ضربه سجنه حسب أمر الوليد أيضًا. وبعد مدة اشتد وجعه، فأخرجه عمر من الحبس، وجاء أهله فنقلوه إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير -ببقيع أهله، وهو بقيع الزبير- فاجتمع أقاربه حوله، وهو بين الحياة والموت. ولم يلبث إلا قليلًا، ثم فاضت روحه إلى بارئها ويبدو أن خبيبًا كان ضعيف البنية رقيق الجسد.

وبلغ خبر الموت مسامع عمر بن عبد العزيز عقب حدوثه، وكأنه كان يلتقط أخباره ويترقب أنباءه في وجل، فما كاد يسمع بموته حتى اضطرب واهتز... ولكنه فر من يقين الخبر إلى احتمال كذبه، وأراد أن يستوثق ويتأكد، فأرسل رجلًا من خاصته يسمى «الماجشون» -ومعناها السفينة بالفارسية، وأصلها ماه كون- ليتبين الأمر بنفسه.

فلما بلغ «الماجشون» الدار التي يرقد فيها خبيب استأذن على من بداخلها، فقال لهم عبد الله بن عروة بن الزبير: «ايذنوا له»، فأذنوا، ودخل فوجد خبيبًا مسجى بثوبه، ولكنه لم يتيقن من موته بعد. وهنا قال له عبد الله بن عروة: «كأن صاحبك (يعني عمر) في مرية وشك من موت خبيب!»، ثم التفت عبد الله إلى من حوله وقال: «اكشفوا له عنه».

وكشفوا الثوب.. وإذا خبيب في الأموات، ورجع «الماجشون» يحمل إلى عمر النبأ.

قال: «فانتهيت إلى دار مروان (وهي الدار التي كان ينزل فيها عمر في أثناء إمارته على المدينة) فقرعت الباب ودخلت، فوجدت عمر كالمرأة الماخض (وهي المرأة الحامل إذا جاءها المخاض وضربها الطلق، كأن الذي في جوفها شيء مائع يتمخض، أي يضطرب ويتقلب)، قائمًا وقاعدًا (وذلك من شدة خوفه وفزعه مما عمل). فقال لي: ما وراءك؟ فقلت: مات الرجل... فسقط إلى الأرض فزعًا، ثم رفع رأسه يسترجع... لم يزل يعرف فيه حتى مات!!».

هذا ما فعله عمر بن عبد العزيز بخبيب بن عبد الله بن الزبير!

ونعود إلى الإجابة عن السؤال المؤلم: لماذا لم يعترض عمر على هذا؟ ولماذا لم يعص الوليد فيما أمر به؟

حينما تستمع إلى نبضات القلب وهمسات العاطفة، تحس أمام هذا الحادث بضيق في صدرك، وثورة في دمك، وقشعريرة في بدنك، وغشاوة في عينك، وتعتب على عمر، أو تلومه، أو تقسو في الحكم عليه أمام ذلك العمل... وبخاصة إذا تذكرت إلقاء الماء

البارد في يوم بارد على جسم مجلود محموم.

لقد كتبت عن عمر، وحاضرت عنه، وألفت فيه ولا زلت أتحدث عنه، وأتمثل بأقواله وأعماله، وأعده مثلًا صالحًا غاليًا يجب أن يوضع أمام بصائر الكبار والصغار... ومع ذلك أشعر بحرارتي ترتفع، ودمي يفور، وقلبي يتوالى خفقه، وشعري يقف حين أتصور ما حدث لخبيب على يد عمر بن عبد العزيز... ثم تعود نفسي في نهاية المطاف فتقول لي: لا عليك ولا عليه، فالإنسان خطاء، ولكل فرد حظه من الزلل. وقديمًا قالوا وما زالوا يقولون: لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة!!...

ذاك حديث القلب وهمس العاطفة... فما حديث الدفاع والتماس الأسباب والمعاذير؟

حقًا لقد كان الذي حدث لخبيب مؤلمًا ومثيرًا للمشاعر، ولكن ما الأسباب والظروف التي دعت إلى ذلك؟

لقد كان بنو أمية في ملكهم بحاجة إلى توطيد الأساس الذي ينهض عليه هذا الملك، وكان الذين يعارضونهم يسرفون أحيانًا في هذه المعارضة... ومن بينهم خبيب.

وعمر بن عبد العزيز كان -يوم حدث لخبيب ما حدث- شابًّا فيه اندفاع الشباب مهما يكن الأمر.

وقد اعترض خبيب على عمر مرة ومرة، وعرَّض به، وتندر عليه، وأشاع ذلك أحيانًا بين الناس... فغضب من ذلك عمر، وأسرها لخبيب في نفسه، ولم يبدها له، ولم يحاسبه على ذلك خشية أن يساء التفسير، فيقال: إن عمر غاضب لنفسه، لا إنه مصلح يؤدب الخارجين على الأمير!

وكان عمر أميرًا على المدينة، والوليد هو الخليفة وأمير المؤمنين... وإن شئت قلت إنه أمير الأمراء، فهو رئيس لعمر، وعلى عمر أن يسمع منه ويطيع، ما لم يكن الأمر معصية واضحة؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فالذي يتولى كبر الحادث هنا هو الوليد الآمر... وليس عمر بن عبد العزيز الأمير، بل هو المأمور.

والأمر بضرب خبيب لم يكن معصية خالصة في أول الأمر -ولو في نظر الحاكمين ومن تبعهم حينئذٍ- فخبيب قد أظهر الاعتراض على الوالي الذي عينه الخليفة، وأظهر الاعتراض، وأبدى التعريض بأمر الخليفة في توسيع المسجد، وزاد فأشاع الحديث عن رسول الله ﷺ بأنه يسب بني أمية ويذمهم. وبقي أن يعرف الناس مبلغ هذا الحديث من صحة النسبة ودرجة الثبوت.

ثم كان هناك أمر آخر له خطورته وجلالته... كان هناك الفتور الذي بدا وتجلى في العلاقة التي تربط عمر بن عبد العزيز بالوليد بن عبد الملك. فقد ولي الوليدُ عمرَ إمارة المدينة، وهو مؤمن بأن هذه التولية ستجعل عمر تابعًا مخلصًا أمينًا للوليد، يثني عليه ويؤيد تصرفاته. ولكن عمر لم يحقق للوليد ما تمنى... فإن دينه وعقيدته وإيمانه وكرامته وشخصيته أعز عليه من الوليد وممن هو أكبر من الوليد.

وكان أكبر ما يغيظ عمر من الوليد هو استعانته بالحجاج الثقفي، الذي سفك الدماء، وأهلك العباد، وارتكب العظائم... والذي كان رأي عمر فيه أسوأ الآراء، إذ كان يقول عن الحجاج: «لو جاءت كل أمة بخبثها، وجئنا نحن بالحجاج، لغلبناهم!».

ولكن الحجاج بمكان السمع والبصر من الوليد: يشير عليه ويدبر له، ويوجهه ويؤثر فيه... والحجاج رجل ألمعي، فيه ذكاء واقتدار عقلي وسياسي، وهو خبير بالتدبير

وتصريف الأمور، وها هو ذا يفتل للوليد في الذروة والغارب حتى يسوء رأي الوليد في عمر: فتارة يتحدث الحجاج إلى الوليد عن سب عمر فيه وطعنه عليه، وتارات يتحدث إليه بأن عمر لا يطيع رأيه ولا يتقيد بأوامره، ويضرب له الأمثال على ذلك من الحوادث التي خالف فيها عمر أمر الوليد.

والوليد بشر، وله أذن، وفيه نواحي استجابته لهذا الطنين المستمر مهما تكن خصائصه ومميزاته... والحجاج أذكى من أن يتعجل قطف الثمرة، أو لا يجيد الفكرة، أو لا يتقن الخطة... وعمر بعيد عن الخليفة نوعًا ما، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو يدافع، أو يبدي وجهة نظره في هذه المواقف -فتجمعت عدة أمور جعلت الوليد يفتر فتورًا واضحًا من جهة عمر.

وفي عمر حدة ورثها من أجداده لأمه آل الخطاب، وفيه عزة ورثها من الإسلام، وفيه إباءة وترفع عن سلوك المعوج من الطرق والسبل... ولذلك لم يستطع أن يجاري الحجاج في خطته ومنهاجه، فتغلب الحجاج، ورجحت كفته.

وأحس عمر بخطر الحجاج عليه، وأحس بصدوف الوليد عنه، وأحس بحلقات المؤامرات والمكائد تحيط به وتقترب منه، وتلفت ليجد المنافذ الواسعة التي ينفذ منها إلى ما يريد، فصعب عليه ذلك وبعد عنه... فالحجاج هناك، والوليد مؤمن بأن عمر يستخف به ولا ينفذ أوامره.

وكأنما أدركت عمر موجة من موجات استجابته لمنهج الرفق واللين. والمياسرة والملاينة... أو كأنما أراد أن يضرب الحجاج الضربة الوجيعة من طريق اكتسابه لمودة الوليد، واسترداده لسابق العهد والود والصفاء بينهما، وإزالة ما بنفسه من شبهة أو

اعتقاد بأن عمر لا يأبه به... فأخذ يظهر عنايته بأوامر الوليد.

وفي هذه الفترة جاءه كتاب الوليد بأن يضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير، فأطاع عمر، وحسب أنه سيؤدبه بهذا الضرب من جهتين: من جهة تمرده عليه، ومن جهة تطاوله على الخليفة وعلى أسرته. ولم يكن عمر -فيما يلوح لنا ويقوى عندنا- يقدر أن ضرب خبيب سيقضي إلى هذه العاقبة الوخيمة والنهاية الأليمة!

ولكن الله إذا أراد شيئًا قضاه، وقد تذل الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير، كما يقول الإمام علي.

وضرب عمر خبيبًا، وصب عليه ما صب من الماء البارد، ومات خبيب!

ومضت أيام بعد الحادث، وعزل الوليد عمر عن إمارة المدينة. وقيل إن عمر هو الذي اعتزلها، وامتنع عن الولاية، ولجأ إلى العزلة..

يا لهول ما أصاب عمر بسبب هذا الحادث!!

لقد انتقل من حال إلى حال... إذ يروي التاريخ أن عمر أسف بعد موت خبيب أسفًا شديدًا منعه من العيش الذي كان يحب ويألف، وندم ندمًا بليغًا، وسقط في يده. وكان من قبل ناعمًا في ثيابه وفراشه، فترك الحرير والخز، ولبس المسوح الخشنة الغليظة سبعين ليلة بعد موت خبيب!

وجاءه القاسم بن محمد -وقد اشتد على عمر الأمر، وبلغ به الحزن والتقشف مبلغهما- فقال له: «أعلمت أن من مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل، ومواجهة النعم بالتذلل؟»، فاستجاب عمر لتوجيهه قليلًا، وترك المسوح، ولبس ثيابًا من حبر اليمن.

ولكن يظهر أن تلك الاستجابة لم تستمر طويلًا، فإن شبح خبيب يطالع عمر في صحوه ومنامه، وإقباله وإدباره، واجتماعه واختلاله، وليله ونهاره... يعمل العمل الصالح وما تكاد نفسه ترتاح إليه أو ترضي به، حتى يلوح له شبح خبيب، فتضطرب أوصاله وترتجف أطرافه. ويبشره مبشر بما قدم أو صنع، فلا يحاول كتمان لواعجه... بل يجمعها في هذه العبارة الموجعة المؤثرة:

«وكيف بخبيب على الطريق؟!».

* * *

على أي وضع كان عمر قبل مصرع خبيب، وإلى أي وضع انتقل بعد مصرعه؟!

لقد كان عمر أعظم بني أمية ترفها... غذي بالملك ونشأ فيه. وكانت ريحه الطيبة تعصف من مسافة بعيدة، فتوجد رائحته أمامه، وتبقى خلفه، فيعرف الناس مروره برائحته وإن لم يروا شخصه. وكان يمشي مشية فيها خيلاء، تسمى «العمرية»، وكان الجواري يقلدنها لجمالها. وكان يسبل إزاره ولا يبالي ما تمزق من ثيابه، أو تقطع من نعاله، وكان يكثر من العنبر وغيره من العطور، وكان، وكان، وكان...

فإلى أي شيء صار بعد ذلك؟... صار إلى الهم والحزن والندم والأسف.

يقول علي بن بزيمة عن عمر بن عبد العزيز: «رأيته في المدينة وهو أحسن الناس لباسًا، ومن أطيب الناس ريحًا، ومن أخيل الناس في مشيه... ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان».

يذكر ابن كعب القرظي في كلام مبسوط أنه رأى عمر بن عبد العزيز، وهو أمير على المدينة، فإذا هو شاب غليظ الجسم ممتلئ البدن، ثم رآه بعد ذلك في «خناصرة»،

فإذا هو قد قاسى ما قاسى، وإذا هو قد تغيرت حاله عما كانت، فتبدل لونه، وسقط شعره، ونحل جسمه.

ويصل به الأمر أن يقول فيه مكحول:

«لو حلفت ما استثنيت ما كان في زمانه أخوف لله ﷻ من عمر، ولو حلفت ما استثنيت ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر!».

وصار الرجل، الذي كان يعرف ألوان الطعام، يأكل -كما يحدثنا نعيم بن سلامة- ثومًا بدقة وزيت، أو ثومًا مسلوقًا بزيت وملح.. حتى ظهر أثر ذلك بوضوح في جسمه.

وقال يونس بن أبي شبيب: «شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت، وإن حجزة إزاره لغائبة في عكنه (جمع عكنة، وهي الطي الذي يكون في البطن من السمنة)، ثم رأيته بعدما استخلف، ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت!!».

* * *

أغلب الظن أن حادثة خبيب كانت سببًا هامًّا من الأسباب التي دفعت بعمر إلى حياة الزهد والتقشف والتعبد والتحرز من المعصية ومن الاعتداء على الناس.

وأظن أن من آثار هذه الحادثة أن عمر أصبح لا يحب أن يعتدي حاكم على إنسان بالضرب أو الجلد. ومن أمثلة ذلك أن الوليد بن عبد الملك كان قد أرسل إلى زيد بن حسن بن علي كتابًا يسأله فيه أن يبايع لابنه عبد العزيز بن الوليد، ويخلع سليمان بن عبد الملك، وخاف حسن بن زيد على نفسه فأجاب الوليد إلى طلبه.

ولما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة، أرسل إلى أبي بكر بن حزم ليدعو زيدًا ويسأله: هل كتب ذلك؟ فأقر زيد بأنه كتب، فغضب سليمان، وبعث إلى ابن حزم يأمره بأن يضرب زيدًا مائة سوط، وأن يلبسه عباءة، ويمشيه حافيًا.

وكادت تحدث الكارثة مرة أخرى، وربما فقد فيها المسلمون خبيبًا آخر... ولكن عمر بن عبد العزيز علم بالأمر، فسارع وقال لرسول الخليفة: «لا تخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب في زيد، لعلي أستطيب نفسه، فيترك هذا الكتاب».

فانتظر الرسول، ومرض سليمان، فقال عمر للرسول: «لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض».

وبعد قليل مات سليمان، وتولى الخلافة عمر، فسارع بإحضار الكتاب ومزقه!!

ولقد ولى عمر على خراسان الجراح بن عبد الله، فكتب إليه يستأذنه في جلد الناس... فكتب إليه عمر يقول: «يا ابن أم الجراح، أنت أحرص على الفتنة منهم.. لا تضربن مؤمنًا ولا معاهدًا سوطًا إلا في حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها».

* * *

واللافت هنا للنظر أن أهل خبيب لم يطالبوا عمر بدية خبيب أو دمه، لأنهم اعتقدوا أنه قد قتله خطأ، ولكن عمر لم يعتقد ذلك، بل ظل يحاسب نفسه، ويستمع إلى تأنيب ضميره. وحاول بعد أن تولى الخلافة أن يصلح ما صنعت يداه، بأن يوزع دية لخبيب لا يظهر بها، يسترها حتى تكون فيما بينه وبين الله، لأنه يحاول التكفير، وليس

هناك من يطالب بالدية... فذهب عمر إلى قوم خبيب، فوزع عليهم ما لا اختصهم به، فكان الناس يقولون عن هذا المال: هذه دية خبيب!!

رحم الله خبيبًا، ورحم الله عمر!!

لقد ذهب خبيب شهيدًا، وخلف لنا من ورائه خليفة مجيدًا... وكذلك جل الفداء فحسن العزاء. وكم من نكبة في طياتها خير وبركة، ومن شدة أفضت إلى بر ورحمة.

لم يخسر خبيب، بل كسب، فأفضى إلى ربه مرضيًّا في عقيدته وإيمانه، ولم يخسر عمر، بل كسب من هذا الدرس البليغ، إذ أقامه على طريق المتاب، وأرشده إلى مهيع الإنابة... وما زلت أتصور عمر كلما أثنى عليه مثن، أو حمده حماد، أو بشره بالجنة مبشر، يقول: «وكيف بخبيب على الطريق؟!».

فأحس بهزة تشمل كياني، وتنال عطفي، ويضطرب لها حسي ونفسي.

ليت هذه الكلمة الزاجرة الواعظة تعرف طريقها إلينا أيها الناس.

ليت كلًّا منا يتخذ من هفوة له أو هفوات سبقت مثلما اتخذ عمر من هفوته مع خبيب محذرًا يحذره، ومنذرًا ينذره، وصوت ضمير يهتف به: احترس وحاذر، كلما أراد أن يعب من المعصية مرة أخرى، أو ينحرف عن سواء السبيل.

فلنذكر أخطاءنا، ولنعتبر بها، ولنستفد منها، ولنجعلها سبب وقاية وتقوى، ومفتاح متاب وهدى، وحاجزًا بيننا وبين الغرور والزهو، وكلما دعانا داعي المباهاة والافتخار بعمل من الأعمال، تذكرنا عمر بن عبد العزيز وهتفنا معه:

«وكيف بخبيب على الطريق؟!».

نفس تواقة

يشب الإنسان وتشب معه رغباته وأهواؤه. ولا يعيب الإنسان أن تتطلع عينه إلى هذا الشيء أو ذاك من أشياء الحياة، وإنما الذي يعيبه أن ينحرف في رغبة، أو يشذ في هوى، أو يسرف في شهوة، وكلما سمت رغبات الإنسان، أو اتجهت إلى مكارم الأمور، كان ذلك أدل على نبل المحتد وعلو الهمة وشرف القصد.

وعمر بن عبد العزيز رجل كالناس: له نفسه التي تتوق، وله رغباته التي تشوق. ومن حسن حظه، بل من فضل الله عليه، وتوفيقه له، أن هذه الرغبات قد اتجهت اتجاهًا يشرف صاحبها ولا يشينه ومن سابغ نعمة الله على عمر أن تتدرج هذه الرغبات في مدارج العلو والسمو درجة بعد درجة، حتى تنتهي إلى القمة وهي الرغبة في الآخرة، وإلى الذروة وهي التعلق بما يحبه الله ويرضاه.

يوجز عمر ذلك التدرج في مدارج الرغبة والتوقان، فيقول:

«كانت لي نفس تواقة، فكنت لا أنال شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أعظم منه، فلما بلغت نفسي الغاية تاقت إلى الآخرة!».

لقد كان عمر ربيب قصور ونعمة... نشأ فوجد القيادة والسيادة في أسرته وأهله، ولكن ذلك لم يجعله متكلًا على نسبه وحسبه، بل أقبل على نفسه يؤدبها ويهذبها، وعلى عقله يثيره ويزوده بالعلم، والمعرفة. ولقد تطلعت نفسه منذ صغره أن يكون كخاله عبد الله بن عمر في الفقه والعلم. وتاق أول ما تاق إلى طلب العلم والفقه والحديث والشعر والأدب. ولذلك يحدثنا عن نفسه فيقول: «لقد رأيتني -وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان- ثم تاقت نفسي إلى العلم: إلى العربية فالشعر، فأصبت منه حاجتي».

ولقد أرسله أبوه عبد العزيز بن مروان وهو صبي إلى المدينة يتأدب بها ويتعلم، فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه العلم. وعهد به أبوه إلى صالح بن كيسان، فكان صالح يلزمه الصلاة، فأبطأ عمر يومًا عن الصلاة، فقال له صالح: «ما حبسك عن الصلاة؟». قال: «كانت مرجلتي تسكن شعري». فقال صالح لائمًا له: «بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟!».

وكتب صالح إلى والد عمر بذلك، فبعث إليه عبد العزيز رسولًا، فلم يكلمه حتى حلق شعره!

وحفظ عمر القرآن الكريم وهو صغير، ففتح عليه أبوابًا من العلم والفقه، والتدبر والتأثر، وكان في أول أمره يطلب أنواعًا خاصة من العلم، فلما ولي أمر الناس تطلب المعرفة من كل لون، ونشد العلم من كل صنف. يقول: «كنت أصحب من الناس سراتهم، وأطلب من العلم شريفه، فلما وليت أمر الناس، احتجت إلى أن أعلم سفساف العلم... فتعلموا من العلم جيده ورديه وسفسافه».

وطلب عمر بن عبد العزيز الحديث، فأسنده عن جماعة من الصحابة، وعن جماعة من كبار التابعين... إلا أنه كان مشغولًا عن الرواية، ولذلك قل حديثه.

أسند الحديث عن أنس بن مالك، وابن عمر، وعبد الله بن جعفر، وعمرو بن أبي سلمة المخزومي، والسائب، ويوسف بن عبد الله بن سلام.

وأرسل الحديث عن جماعة من القدماء منهم: عبادة بن الصامت، وتميم الداري، والمغيرة بن شعبة، وعائشة، وأم هانئ، وخولة بنت الحكم.

وروى عن جماعة من كبار التابعين منه: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعامر بن سعد بن أبي وقاص، وأبو بردة، والربيع بن سبرة الجهني، وعراك بن مالك، ووالده عبد العزيز بن مروان، والزهري، ومحمد بن كعب القرظي.

وسمع من أبي سلام ممطور الحبشي. وروى عن أبي حازم، وخلق يطول ذكرهم.

وغزر علم عمر، واتسعت معرفته... حتى أثنى عليه الأقطاب والأعلام في عصره، وحتى نوه به أنس بن مالك، وحتى قال ميمون بن مهران: «أتينا عمر بن عبد العزيز، فظننا أنه يحتاج إلينا، فإذا نحن عنده تلاميذ!».

ولقد قدم ابن شهاب الزهري بعد ذلك على عمر فجعل يعرض عليه علمه، فقال له عمر: «ما أعلمك تعرض علي شيئًا إلا شيئًا قد مر على مسامعي، إلا أنك أوعى له مني!».

وفي رواية عن ابن شهاب قال: «سمرت مع عمر بن عبد العزيز ليلة فحدثته، فقال: كل ما حدثتَ به فقد سمعته، ولكنك حفظتَ ونسيتُ!!».

وهذا يدل على أن عمر قد علم الكثير، واطلع على الكثير، ولكن الشواغل التي عرضت له جعلته ينسى جوانب مما حفظ ومما حصل، في حين تفرغ للحفظ والتحصيل غيره.

* * *

وبجوار العلم والمعرفة، تاقت نفس عمر إلى الثياب والعطور... فكان يكثر من الثياب ذات الثمن واللون والقيمة. وكان التاجر يأتيه بالثوب من الحرير أو الخز أو الديباج، فيعيبه بخشونة في ملمسه، ويود أن يكون أرق من ذلك وأنعم!... وكان يكثر من استعمال الطيب والعطور، حتى تعرف رائحته وهو قادم أو مار قبل أن يراه الناس. وكان الناس يذهبون إلى الغسال الذي يغسل ثياب عمر، ويرجونه أن يغسل ثيابهم عقب ثيابه، لتنال ثيابهم من عطر ثيابه الذي يسرف فيه. وكان مغرمًا باستعمال العنبر والقرنفل وغيرهما من ألوان العطور.

ثم تاقت نفس عمر إلى الغناء والألحان والسماع... فهو يصوغ الشعر أحيانًا ليكون أنشودة من أناشيد الغناء، أو يختار قطعًا أخرى يلحنها ويدفعها إلى المغنين ليغنوها... وقد يغني هو بنفسه: فقد كان عذب الصوت حلو الغناء، وكان يحب إنشاد الشعر بين يديه، ويحب سماع الغزل، ويطرب للأصوات حين تتردد على سمعه، وربما صفق لها بيديه، وحرك من أجلها رجليه. وقد تحدثنا عن الغناء في حياة عمر حينما تحدثنا عن الشعر في حياته.

ثم تاقت نفس عمر إلى زواج ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان... فاطمة الجميلة النسيبة بنت الخلائف وربيبة القصور، التي يقول فيها الشاعر:

بنت الخليفة، والخليفة جدها   أخت الخلائف، والخليفة بعلها

ويحدثنا التاريخ بأن عبد الملك بن مروان قال لعمر يومًا: «قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك». فسر عمر بذلك وقال: «وصلك الله يا أمير المؤمنين، فقد أجزلت العطية، وكفيت المسألة!».

وعن عمارة بن غزية قال: «لما أولم عمر بن عبد العزيز فاطمة بنت عبد الملك، أسرج في مسارجه تلك الليلة الغالية!».

ويظهر أن عمر قد قضى مع فاطمة أيامًا سعيدة جميلة في «دابق» قبل أن يلي أمور الناس.

وكان عمر يتذكر هذه الأيام فيما بعد، ويذكر بها فاطمة من حين لحين!

* * *

ثم تاقت نفس عمر إلى الولاية والإمارة... إلى الحكم وسياسة الناس.

وكان عمر حينئذٍ في العشرين من عمره، وقد لاحظ عبد الملك فيه علمًا وذكاءً وعلو مكانة، فأراد أن ينتفع الناس بهذا، فولاه ولاية «خناصرة» سنة خمس وثمانين للهجرة.

و«خناصرة» هذه بليدة من أعمال حلب، تحاذي قنسرين نحو البادية. وهي بلدة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز، وهي صغيرة. وقد خربت الآن إلا اليسير منها، وهي قصبة كورة الأحص، وهي كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة والشمال من مدينة حلب.

و«خناصرة»، على الرغم من صغرها، قد ذكرها الجعدي وابن الرقاع وجران العود والمتنبي في أشعارهم، وفيها يقول المتنبي:

أحب حمصًا إلى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبـ ... ـنان وتغري على محياها
وصفت فيها مصيف بادية ... شتوت بالحصحصان مشتاها

إن أعـــشبت روضــة رعيناهــا   أو ذكـــرت حلـــة غزوناهـــا

وقد بقي عمر واليًا على «خناصرة» حتى مات عبد الملك.

* * *

ثم تاقت نفس عمر إلى إمارة «المدينة»... المدينة حيث مسجد الرسول ومثواه عليه الصلاة والسلام، وحيث أخواله من بني الخطاب، وحيث المجتمع الإسلامي الذي يموج بالتيارات، وحيث السلطة التي تتسع كثيرًا عن ولاية «خناصرة» الصغيرة!

وقد ولاه الوليد إمارة المدينة سنة سبع وثمانين، وكان عمر حينئذٍ في الخامسة والعشرين من عمره، وقدم المدينة في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة... قدمها في موكب مشهود يضم ثلاثين جملاً، وقضى فيها ردحًا من الزمن، حتى تغير الوليد عليه، فعزله عنها سنة ثلاث وتسعين!!

* * *

ولم يكتف عمر بزوجة واحدة، بل تاقت نفسه إلى النساء... فتزوج لميس بنت علي بن الحارث، وكان له منها عبد الله وبكر وأم عمار. وتزوج أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وكان له منها إبراهيم، وتزوج أم هشام بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكانت أجمل نساء قريش، كانت زوجة لعبد الرحمن بن سهيل بن عمرو، فلما مات عبد الرحمن تزوجت عمر، كما يروي أبو الفرج في الأغاني، وكانت له أم ولد: رزق منها بعبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله. وسبق أن عرفنا أنه تزوج فاطمة بنت عبد الملك، وكان له منها إسحاق ويعقوب وموسى.

بل تاقت نفسه إلى الحب فأحب... لقد كان لزوجته فاطمة جارية ذات جمال فائق، فأعجب بها عمر قبل الخلافة، وغارت من ذلك فاطمة، وحالت بينه وبينها. ومن العجيب أنها عادت بعد الخلافة فقدمت إليه بنفسها هذه الجارية، فلم تجد لديه إقبالًا... فقد انصرف عن هذا إلى سواه!

* * *

ثم تاقت نفس عمر إلى ما هو أوسع وأرفع... تاقت نفسه إلى الخلافة. فلم يبق أحد في الأمة أعلى منه، ولم يبق مسيطرًا عليه غير الله ﷻ، وأصبحت يده طليقة في أموال الناس وأحوالهم... وصار الرجل الأول فيهم، المقدم عليهم، الآمر لهم، المطاع فيهم: المستجاب منهم...

ولكن، يا للعجب، إن الرجل الذي تاقت نفسه إلى الخلافة لم يفرح بها حين جاءته منقادة تجرر أذيالها، ولم يبطره ما يحف بها من سلطان وعلو شأن، فإذا به يتوق إلى ما هو أعلى وأعظم... إذا بنفسه تتوق إلى ما عند الله والدار الآخرة.

حدث عمر بن عبد العزيز عن نفسه فقال: «إن لي نفسًا تواقة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة... وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة!».

وتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى فقال:

«إن لي نفسًا ذواقة تواقة، كلما ذاقت شيئًا تاقت إلى ما فوقه. ولقد رأيتني -وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان- ثم تاقت نفسي إلى العلم بالعربية فالشعر فأصبت منه حاجتي، ثم تاقت نفسي إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، وتاقت نفسي إلى الإمارة

فوليتها، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها فلما ذاقت الخلافة، ولم يكن شيء في الدنيا فوقها، تاقت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة!».

وتحدث مرة ثالثة فقال:

«إن لي نفسًا تواقة: لقد رأيتني -وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان- ثم تاقت نفسي إلى العلم، إلى العربية، فالشعر، فأصبت منه حاجتي وما كنت أريد. ثم تاقت نفسي إلى السلطان، فاستعملت على المدينة، ثم تاقت نفسي، وأنا في السلطان، إلى اللبس والعيش والطيب، فما علمت أن أحدًا من أهل بيتي ولا غيرهم كان في مثل ما كنت فيه، ثم تاقت نفسي إلى الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو ما تاقت نفسي إليه من أمر آخرتي!».

* * *

ومن أجل هذه الآخرة انتقل عمر من حال إلى حال، وتغير من وضع إلى وضع. وإن شئت فقل إن هذه الآخرة كأنها خلقت عمر خلقًا جديدًا.

ومن أجل هذه الآخرة وما عند الله، ترك عمر شهوة اللباس والثياب، وأصبح يلبس القديم والمرقع والزهيد الثمن من الثياب.

يقول أحد من معه:

«رأيت عمر بن عبد العزيز حين ولي وبه من حسن اللون وجودة الثياب والبزة، ثم دخلت عليه بعد، وقد ولي، فإذا هو قد احترق وأسود ولصق جلده بعظمه، حتى ليس بين الجلد والعظم لحم، وإذا عليه قلنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها، بعلم أنها قد غسلت...». ومضى الرجل يصف ثيابه المتواضعة جدًا. وعن رياح بن عبيدة:

«كنت أتجر، فقال لي عمر بن عبد العزيز: يا رياح، اتخذ لي كساءين خزًّا... اتخذ أحدهما مجلسًا، والآخر شعارًا... ففعلت، فصبغتهما بالبصرة فلم آل، ثم قدمت بهما عليه فأمر بقبضهما، فلما أصبح غدوت عليه فقال لي: يا رياح، ما أجود ثوبيك لولا خشونة فيهما!...

فلما ولي قال لي: يا رياح، اتخذ لي من هذه الجباب الهروية (كانت من الصوف). فاشتريت له ثلاث شقاق، فقطعت من الثلاث جبتين، ثم أتيت بهما إليه فقبضهما، فقال لي: يا رياح، ما أحسن ثوبيك لولا لين فيهما!!... فذكرت قوله الأول وقوله الآخر!».

وجاء في رواية أخرى أن ثوب الخز المذكور كان بعشرة دنانير، وأن جبة الصوف كانت بدينار، وأن رياح بن عبيدة قال له: «عجبًا تستخشن الخز بالأمس، وتستلين الصوف اليوم!!».

فقال عمر: «تلك حال، وهذه حال!!».

* * *

ومن أجل هذه الآخرة، ترك عمر العطور والخيلاء، واقتصد في كل شيء، وانصرف عن كل زينة ومتاع... فقد كان بالأمس من أعطرا لناس، وألبس الناس، وأخيلهم في مشيته. فلما استخلف، قوموا ثيابه فوجدوا ثمنها اثني عشر درهمًا، وقومها عاصم بستين درهمًا. ولم يبن لنفسه بناءً قط، وكان يأكل ثومًا بدقة وزيت، أو ثومًا مسلوقًا بزيت وملح.

وكان يكثر من أكل العدس، حتى يدخل غلامه أبو أمية فتقدم له مولاته طعام العدس، فيقول متأففًا: «كل يوم عدس؟!». فتجيبه: «يا بني، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين».

ويقول عمر لميمون بن مهران: «يا ميمون، إنا نأكل هذه الشجرة (العدس)، وهي ما علمت مرقة للقلب، مغزرة للدمعة، مذلة للجسد».

ولقد ضعف جسم عمر وضمر ونحل، حتى يقول يونس بن أبي شبيب: «شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت، وإن حجزة إزاره لغائبة في عكنه (طيات بطنه من السمن)، ثم رأيته بعدما استخلف، ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت!!».

وصار يخطب الناس وعليه قميص مرقوع، وصار يكتفي بالثوب الواحد... حتى إذا غسلوا له قميصًا انتظر حتى يجف، إذ ليس عنده سواه.

* * *

ومن أجل هذه الآخرة التي تاقت إليها نفسه، بعدما تاقت إلى أشياء وأشياء، ترك شهوة الجنس والنساء. ولعلك تذكر معي أنه أحب جارية لامرأته فاطمة وحرص عليها وطلبها، فحالت زوجته دونها. فلما انصرفت همته إلى الآخرة، وأهمل فراش زوجته فما يتذكره، ولا يجد من نفسه دافعًا إليه.. تذكرت فاطمة ما كان من أمره مع الجارية، وكأنها أرادت أن تستثيره بها، فجملتها وبعثت بها إليه لتنال من نفسه منالًا... ولكن هيهات.

يقول يحيى بن يحيى: «كانت لفاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز جارية، فبعثت بها إليه، وقالت: إني كنت أعلم أنها تعجبك، وقد وهبتها لك، فتناول منها حاجتك. فقال لها عمر: اجلسي يا جارية، فوالله ما من شيء من الدنيا كان أعجب إلي أن أناله منك، فأخبريني ما كان من سببك.

قالت: كنت جارية من البربر، حتى أتى حسان فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على إفريقية، فأخذني موسى بن نصير، فبعثني إلى عبد الملك، فوهبني عبد الملك لفاطمة، فأرسلت بي إليك!...

فقال: كدنا والله أن نفتضح!!... فجهزها وأرسل بها إلى أهلها».

وهؤلاء هم بنو أمية يرسلون إلى عمر، العباس بن الوليد بن عبد الملك يحاول إغراءه بمتاع الحياة، حتى يشركهم في النيل منها، ولا يضيق عليهم كما فعل. فاحتال العباس بالجواري، وجعل يعرضهن أمام عمر، وكلما مرت جارية حسناء تعجب العباس قال لعمر: «اتخذ هذه يا أمير المؤمنين!». فلما أكثر العباس، وبلغ الضيق بعمر مبلغه، قال للعباس غاضبًا: «أتأمرني بالزنا!؟».

ويا لها من كلمة!... ويا له من جواب يستحق النظر والبحث من أهل الفقه والعبرة!

وخرج العباس يقول لقومه المنتظرين: «ما يجلسكم بباب رجل يزعم أن آباءكم كانوا زناة؟!».

ومن أجل هذه الآخرة التي تاقت إليها نفسه، انصرف عن الغناء والألحان والسماع والشعر واللهو الطرب، إلى العبادة والتلاوة والترديد لكتاب الله ﷻ...

فهو إذا كان في آخر الليل لبس دراعة من شعر يحتفظ بها، ووضع في عنقه غلا، فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر، ثم ينزع الدراعة والغل، ويضعهما في سفط عنده!

وصار يرتقب مجيء وقت الصلاة ليسارع إليها إذا نودي عليها، أو ليذكر المؤذن بالأذان إذا تباطأ عنه. ولقد كان له في بيته خوخة من جهة الغرب يرى منها غروب الشمس، فكان إذا أبطأ المؤذن للمغرب بعث إليه أن أذن فقد حضر الوقت!

وكان يصلي الوتر فلا يكلم أحدًا بعد ذلك، ولقد صلى العشاء، ثم تنفل، ثم احتبى فافتتح سورة «الأنفال»، فما زال يرددها ويقرأ، وكلما مر بآية عذاب، تضرع. وكلما مر بآية رحمة، دعا... حتى أذنوا للفجر!

وصار يصوم الاثنين والخميس والعشر وعاشوراء وعرفة!...

وصار لا يدع النظر في المصحف كل يوم، وإن كان لا يكثر ذلك، وقلما يدع يومًا يقرأ في المصحف بالغداة فلا يطيل!!...

وصار يجمع الفقهاء عنده كل ليلة يتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة!...

وصار يسمع العظة فيبكي حتى يسقط مغشيًا عليه، أو يبكي حتى تختلف أضلاعه.

وكان إذا ذكر الموت، انتفض انتفاض الطير، وبكى حتى تجري دموعه على لحيته. وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله.

ويقول حسن بن الحسين: «رأيت عمر بن عبد العزيز بكى، حتى رأيته بكى الدم!!».

ولقد بكى ذات يوم وبكى، حتى أبكى من حوله. ثم قالت له زوجته: «بأبي أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟». قال: «ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله،

فريق في الجنة، وفريق في السعير» ثم صرخ وغشي عليه!

ولقد جلس صامتًا بين أصحاب له يتحدثون، ثم قيل له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: «كنت مفكرًا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها». ثم بكى.

ودخل عليه النضر بن عدي، ووصف هيئته فقال: «دخلت على عمر بن عبد العزيز فرأيته هكذا: قد نصب ركبتيه ووضع يديه عليهما وذقنه على ركبتيه كأنه عليه بث هذه الأمة!!».

وكان عمر يبكي أشد البكاء إذا قرأ آية من الآيات الكريمة التالية:

﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣].

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [الكوثر: ١٢، ١٣].

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

ونلاحظ أن هذه الآيات وأشباهها، مما كان يبكي عمر عند قارءتها أو سماعها، آيات تتحدث عن الموت والبعث والدار الآخرة. ونفسه قد تاقت أخيرًا إلى هذه الدار الآخرة، فهو على خشية شديدة وخوف أشد من أمر هذه الدار الآخرة، يود بكل ما استطاع أن يضمن سعادته في هذه الدار الآخرة.

قالت عنه زوجته فاطمة: «قد تكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، ولكني ما رأيت أحدًا قط كان أشد خوفًا من ربه من عمر.. كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده، ثم رفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه فيسقط، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع!!».

رضوان الله على عمر صاحب الدرجات العلا فيما تلق إليه. لقد كان خوافًا عابدًا، خاشيًا زاهدًا... فرضوان الله عليه.

بدائع عمرية

لعمر بن عبد العزيز طائفة من البدائع التي سبق إليها وامتاز بها. ونحن اليوم في شتى بقاع الأرض نفاخر بمبادئ ونظم وتشريعات، ونظن أن هذه من مبتدعات الحضارة المعاصرة، مع أننا نجد أصولها وأشباهها، أو خيرًا منها، في تاريخنا العربي والإسلامي الجليل.

نحن في عصرنا الحاضر نفاخر بإعطاء الموظفين سلطات اختصاصهم، وعدم تركيز السلطة في يد واحدة. ونفاخر بأن الموظف الكفء الآن يحسن النهوض بتبعات اختصاصه، ولا يكون إمعة يرجع إلى الرؤساء في القليل والجليل، والصغير والكبير. وتفاخر الدولة التي تأخذ بهذا النظام غيرها من الدول التي لا تأخذ به.

وعمر بن عبد العزيز، الذي تولى الخلافة الإسلامية قبل أن ينتهي القرن الأول من الهجرة، أي منذ ما يقرب من ألف وثلاثمائة سنة... قد أخذ بهذا النظام. فقد كتب إلى عروة واليه على اليمن يقول:

«أما بعد، فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم... وتراجعني. وأنت تعرف بعد ما بيني وبينك، ولا تعرف أخذات الموت... حتى لو كتبت إليك: اردد على مسلم مظلمة، لكتبت إلي: أردها عفراء أو سوداء. انظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني».

وكان عمر يكتب إلى عبد الحمد بن عبد الرحمن عامله على المدينة في المظالم، فيراجعه فيها، فكتب إليه عمر.

«إنه يخيل لي أني لو كتبت لك أن تعطي رجلًا شاة لكتبت إلي: أذكر أم أنثى؟ ولو

كتبت إليك بأحدهما، لكتبت إلي: أصغيرة أم كبيرة؟ ولو كتبت إليك بأحدهما، لكتبت: أضائنة أم معزي؟.. فإذا كتبت إليك، فنفذ ولا ترد علي والسلام».

* * *

والدولة الآن ترى من واجبها أن تتحمل بعض التبعات عن الأفراد، لأنها المجموع القوي المقتدر الذي يجب عليه أن يحمي مصالح أفراده الذين يكونون كتلته، وعمر بن عبد العزيز قد أدرك تبعة الدولة نحو الفرد، فهو مثلًا يرى أن الدولة مسئولة عن الإنفاق على الذين خصصوا أنفسهم للدرس والبحث.

عن يحيى بن أبي كثير، قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن أجروا على طلبة العلم الرزق، وفرغوهم للطلب».

وما أبلغ قول عمر: «وفرغوهم للطلب!»... أي اجعلوهم متفرغين لطلب العلم: لا يشغلهم عنه شاغل، ولا يلفتهم عن الاستغراق فيه التفكير في مطالب الحياة وأسباب القوت والطعام. ولا يستطيع الإنسان أن يجيد البحث والدرس إلا إذا كان فارغ البال، هادئ النفس، متفرغًا لما هو بسبيله من بحث وتحصيل....

وكتب إلى والي حمص يقول له: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا. وإن خير الخير أعجله... والسلام عليك».

وكتب إلى واليه في رسالة أخرى: «مر لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم، لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث!».

وعمر كان يرى الدولة مسئولة عن أسراها، ويجب أن تنفق كل ما تستطيع في سبيل فكاكهم وإطلاق سراحهم. ولقد كتب إلى عماله أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم.

وكان يرى أن الدولة مسئولة عن إصلاح الفساد الذي لا يستطيع الفرد أن يدفعه.

جاءه رجل فقال له: «إني زرعت زرعًا» فمر به جيش من أهل الشام فأفسده، فعوضه عمر عن ذلك عشرة آلاف درهم.

وكتب إلى خزنة بيت الأموال بأن يأخذوا من الأفراد النقود الكاسدة التي لا يقبلها الناس، ولا حيلة لهم في أمرها... فقال عمر لهؤلاء الخزنة: «إذا أتاكم الضعيف بالدينار لا ينفق عنده، فأبدلوه من بيت المال!».

والدولة الحديثة اليوم ترى من مفاخرها أنها تتكفل في بعض الأحيان بنفقات المظلوم الضعيف، فتعفيه مثلًا من نفقات القضايا، وقد تعين له محاميًا إذا عجز عن أجره... ولكن عمر منذ مئات ومئات من السنين يفعل أكثر من هذا وأكثر...

وانظر إذا شئت إلى الموقف التالي الذي يردده التاريخ:

خرج عمر ذات يوم من منزله على بغلة له شهباء، وعليه قميص له وملاءة ممشقة... إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها، فسأل عن عمر، فقيل له: قد خرج وهو راجع الآن...

ثم رجع عمر، فقام إليه الرجل فشكا إليه عدي بن أرطاة في أرض له، فقال عمر: «أما والله، ما غرنا منه إلا بعمامته السوداء. أما إني قد كتبت إليه -فضل عن

وصيتي-: إنه من أتاك ببينة على حق هو له، فسلمه إليه، ثم قد عناك إلي (أتعبك بالسفر إلي).

وأمر عمر برد الأرض إلى الرجل، ثم قال له: «كم أنفقت في مجيئك إلي؟».

فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين، تسألني عن نفقتي، وأنت قد رددت علي أرضي، وهي خير من مائة ألف؟».

فقال عمر: «إنما رددت عليك حقك، فأخبرني كم أنفقت؟».

قال الرجل: «ما أدري».

قال عمر: «احرزه» (قدره بالتقريب).

قال الرجل: «ستين درهمًا».

فأمر عمر له بها من بيت المال!

ولما انصرف الرجل راضيًا مسرورًا، صاح به عمر، فرجع إليه، فقال له عمر: «خذ، هذه خمسة دراهم من مالي، فكل بها لحمًا حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله!».

أرأيت!!..

والدولة مسئولة عن حماية أموال الأفراد وصيانة حقوقهم وعقارهم... وعمر كان يرى أن يخلص الوالي في هذه الرعاية، وأن يتوسع فيها مع الضعفاء والعجزة، حتى لا يستبد بهم أهل الخيانة والغدر.

هذه امرأة من أهل مصر تسمى «فرتونة»،وكانت مسكينة فقيرة سوداء، وكان لها بيت صغير متواضع تهدم بعض جوانبه، وكانت لها دجاجات تربيها لتستعين بها على حياتها... ولكن اللصوص كانوا يعتدون عليها، ويسرقون منها دجاجها بسبب تهدم بيتها.

وسمعت المرأة بعدالة الخليفة عمر، وحبه للخير، وحرصه على مصالح العباد... فكتبت خطابًا إلى عمر تشرح فيه قصتها، وترجوه أن يحصن لها بيتها، لأنها لا تستطيع ذلك، وأن يحميها من اللصوص الذين يفجعونها في دجاجها، وبعثت بهذا الخطاب إلى عمر مع بريد مصر الذاهب إلى الخليفة في دمشق الشام.

وكان من الممكن أن يضل هذا الخطاب بين ركام البريد الضخم الوارد من أنحاء الدولة الواسعة، وكان من الممكن أن تغضي عنه عين المراجع للبريد أو المطلع عليه، وكان من الممكن أن تلحظه العين ثم لا تقيم له كبير وزن... لأنه ليس متعلقًا بأمر جليل أو خطير.

ولكن الحاكم العادل، والخليفة الراشد، والإمام الرحيم، رأى أن ذلك موضوع له جلالته وخطورته، ويجب أن يهتم له ويعني به، فكتب عمر إلى أيوب بن شرحبيل واليه على مصر كتابًا عمريًّا خليفيًّا يقول فيه:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أيوب بن شرحبيل. أما بعد، فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت إليّ تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها... فإذا جاءك كتابي هذا، فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها!».

فلما جاء الكتاب إلى أيوب، ركب بنفسه حتى بلغ الجيزة وهو يسأل عن «فرتونة»

حتى وجدها... وإذا هي سوداء مسكينة، فأخبرها بكتاب أمير المؤمنين، وحصن لها بيتها!!

وهذا مثل رفيع من أمثلة الرفق بالضعفاء، والحرص على حقوق الأفراد... فهذه المرأة المسكينة التي تضيع في غمار الملايين من الناس، والتي تقيم في ركن مجهول من أركان الجيزة، والتي تعبرها الأنظار ولا تقف بها اللواحظ... تكتب إلى الخليفة خطابًا تسأله إصلاح شأن من شئونها هي المسئولة عن إصلاحه. ولكن الخليفة يدرك فقرها وضعفها، ويدرك بغي الباغين عليها من السرقة واللصوص، ولو لقيهم للقوا منه جزاءهم -فيأمر واليه بأن يسعى بشخصه إلى «فرتونة»، وأن يصلح خلل بيتها بنفسه، ليكون ذلك مثلًا شرودًا عن أمثلة الرحمة والإشفاق من الحاكمين على المحكومين!!

ولقد كان «العرجي» الشاعر غازيًا، فأصابت الناس مجاعة، فقال للتجار: «أعطوا للناس وعلي ما تعطون». فلم يزل يعطيهم ويطعم الناس حتى أخصبوا.. فبلغ ذلك عشرين ألف دينار، فألزمها العرجي نفسه. وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز فقال: «بيت المال أحق بهذا!». ودفع إلى التجار ذلك من بيت المال.

* * *

والمحسوبية واستغلال النفوذ من أدواء الحكم وعيوب الدول، والحاكم الذي يفتح الأبواب للاستغلال أمام أقاربه ومحاسبيه، يفتح أبوابًا من البلاء على نفسه وعلى الناس... وعمر بن عبد العزيز يحارب هذه المحسوبية بكل ما استطاع. ولقد بدأ، حين تولى الخلافة، باستخلاص حقوق الأمة والأفراد من أيدي الأمويين في صرامة وشدة، ولم يقبل في ذلك شفاعة الشافعين، ولا وساطة المتوسطين. ولقد احتال عليه أهله من

الأمويين بكل حيلة لكي يرفق بهم في انتزاع ما بأيديهم من المظالم وحقوق العباد، فلم يخضع لهم، ولم يلن أمامهم.

وها هو ذا يكتب بعزل أحد الأشخاص، لأنه غير صالح للعمل، ولأنه قريب لأمير المؤمنين.. كتب إلى الجراح واليه على خراسان يقول: «إنه بلغني أنك قد استعملت عبد الله بن الأهتم، وأن الله ﷻ لم يبارك لعبد الله ولا لأهل بيته في العمل... فإذا أتاك كتابي هذا فاعزله، وإنه مع ذلك لذو قرابة لأمير المؤمنين!».

* * *

والحاكم العادل لا يرى نفسه محتاجًا إلى حرس حوله، أو جنود يصونونه... لأنه لا حقد بينه وبين الناس، ولا ثأر عنده لأحد منهم. وعمر حينما تولى الخلافة ضاق ذرعًا بهؤلاء الجنود والحرس الذين يتقدمون الخليفة إذا ذهب أو توجه، وكان هناك ثلاثمائة شرطي وثلاثمائة حرسي فقال عمر لهم: «إن بي عنكم لغني... كفى بالقدر حاجزًا، وبالأجل حارسًا، ولا أطرحكم من مراتبكم: من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله!».

* * *

والسارق الذي يسرق تحت سلطان الحاجة والجوع... ماذا تصنع معه؟

إن لعمر موقفًا جريئًا في هذا الباب يحتاج إلى تأمل وبحث... فقد جيء إليه بسارق، فشكا إليه الحاجة، فعذره، وأمر له بنحو عشرة دراهم!

وعمر بن عبد العزيز يعلم ولاته وعماله، ويعلم الناس جميعًا، أن يدققوا في تحقيق القضايا، وأن يتأنوا في الحكم، وأن يحكموا ببينة ودليل، وألا يحكموا بظنة أو شبهة.

يقول عمر: «إذا جاءك الخصم، وقد فقئت عينه، فلا تحكم له... حتى يأتي الخصم الآخر، فلعله قد فقئت عيناه معًا!!».

وعن ابن يحيى النسائي قال: «حدثني أبي عن جدي قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقًا ونقبًا، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد، وأسأله: آخذ الناس بالشبهة، وأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؟... فكتب إلي: أن خذ الناس بالبينة، وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد، وأقلها سرقًا ونقبًا».

ويقول عمر في النهي عن الأخذ بالشبهات في الحدود: «ادرأوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة.. فإن الوالي إذا أخطأ في العفو، خير من أن يتعدى في العقوبة!».

وعني عمر بإصلاح السجون وإصلاح المسجونين...

لقد أمر بعدم تعذيب أحد من المسجونين، وألا يوثق السجناء بوثاق يمنعهم من الصلاة وهم قيام، وألا يبيت أحد منهم في قيد إلا إذا كان مطلوبًا في دم. وأجرى عمر على المسجونين من الطعام والإدام ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وأخذ بالمبدأ المشهور: الشخص بريء حتى تثبت تهمته، وفضَّلَ الخطأ في العفو على الخطأ في العقوبة. وكان يقول: «لأن يلقوا الله بخياناتهم، أفضل من أن ألقى الله بدمائهم!».

لقد كتب إليه واليه عدي بن أرطاة يقول:

«من عدي بن أرطاة. أما بعد -أصلح الله أمير المؤمنين- فإن قبلي أناسًا من العمال قد اقتطعوا من مال الله ﷻ مالًا عظيمًا لست أقدر على استخراجه من أيديهم إلا أن

أسهم بشيء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين -أصلحه الله- أن يأذن لي في ذلك.. أفعل»!

فأجابه عمر:

«أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر، كأني لك جنّة (أي وقاية) من عذاب الله، وكأن رضاي عنك ينجيك من سخط الله ﷻ.... فانظر: من قامت عليه بينة عدول، فخذه بما قامت عليه به البينة، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به، من أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله. وايم الله لأن تلقوا الله ﷻ بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم... والسلام».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته يقول: «قد جاءني كتابك تذكر أن قبلك قومًا من العمال قد اختانوا مالًا فهو عندهم، وتستأذنني أن أبسط عليهم فالعجب منك في استشارك إياي في عذاب بشر، كأني جنة لك، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله... فإذا جاءك كتابي هذا فانظر: من أقر منهم بشيء، فخذه بالذي أقر به على نفسه، ومن أنكر فاستحلفه وخل سبيله. فلعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم، أحب إلي من أن ألقاه بدمائهم... والسلام».

واتسع رفق عمر حتى شمل الحيوان الأعجم... لقد كان له غلام يشتغل على بغل له، وكان الغلام يأتيه من أجر البغل كل يوم بدرهم ونصف درهم، وذات يوم جاءه الغلام بثلاثة دراهم فقال عمر للغلام: «ما بدا لك؟». قال الغلام: «لقد نفقت السوق (راحت)». قال عمر: «لا ولكنك أتعبت البغل، فأرحه ثلاثة أيام!!».

وحرم عمر على الناس أن يشدوا اللجم على الخيل شدًّا يؤلمها، ونهى عن استعمال

المنخسة في نخس الدواب، ونهى عن سباق الخيل في غير حق لئلا يكون إرهاقًا لها، ونهى عن جر الشاة إلى مذبحها، وعن سن السكين لذبحها فوق رأسها وهي تنظر إليها.

وكتب إلى والي مصر يقول:

«إنه بلغني أن بمصر إبلًا نقالات، يحمل على البعير منها ألف رطل... فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل!».

* * *

وهذا تصرف جريء حازم من عمر بن عبد العزيز..

كتبت الحجبة إليه ليأمر للكعبة بالكسوة المعتادة كما كان يفعل من كان قبله، فكتب إليهم: «إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنه أولى بذلك من البيت!!».

وكان يأمر بترك الأعمال العامة والخاصة عند حضور الصلوات المفروضة، وكتب بذلك كتابًا يقول فيه:

«اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعًا!».

وكان -مع علمه وفقهه- لا يحرص على الفتاوى ولا يندفع إليها.

سئل عن مسألة فقال: «ما أنا على الفتيا بجريء».

وكتب إلى بعض عماله: «إني والله ما أنا بحريص على الفتيا ما وجدت منها بدًّا. وليس هذا الأمر لمن ود أن الناس احتاجوا إليه، إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه!».

وعنه أنه قال: «أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم!!».

وكان غيورًا على الأعراض والحرمات...

قال لعقيل بن علقة: «إنك تخرج إلى أقاصي البلاد وتترك بناتك في الصحراء لا كالئ لهن... والناس ينسبونك إلى الغيرة، وتأبى أن تزوجهن إلا الأكفاء». قال: «إني أستعين عليهن بخلتين تكلآنهن، وأستغني عن سواهما». قال عمر: «وما هما؟». قال: «العري والجوع!!».

عمر بن عبد العزيز وزوجته

تزوج عمر بن عبد العزيز زوجته فاطمة بنت عبد الملك وهو شاب صغير السن، وولدت له من أولاده إسحاق ويعقوب وموسى، وهي من بيت عريق في الملك والخلافة: فوالدها كان خليفة، وأخواها كانا خليفتين، وزوجها كان خليفة... حتى قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة، والخيفة جددها   أخت الخلائف، والخليفة بعلها

ويظهر أن عمر كان يحب فاطمة، ويطمح إلى زواجها بدليل أنه يقرر في بعض أحاديثه أن زواجه من فاطمة كان إحدى أمنياته في الحياة، قبل أن تتجه نفسه بكليتها إلى الآخرة.

ومن الجائز أن يكون عمر قد نقل تلك الرغبة إلى عبد الملك بن مروان بطريق ما. وعلى الرغم من السلطان المطلق الذي كان يعيش فيه عبد الملك، وعلى الرغم من انتقاد عمر له ومراجعته له في بعض مواقفه... كان عبد الملك معجبًا بعمر، وكان يضمر له الاحترام والتقدير في أعماق نفسه، ولذلك عرض عليه فاطمة قائلًا: «قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك».

فقال عمر فرحًا بذلك راضيًا له: «وصلك الله يا أمير المؤمنين، فقد أجزلت العطية، وكفيت المسألة».

فأعجب عبد الملك بذلك الرد، وأظهر ذلك الإعجاب في كلامه، وأولاده حاضرون، فقال بعضهم: «هذا كلام تعلمه فأداه».

فلم يسترح عبد الملك لذلك التعليق الحاسد، وانتظر حتى دخل عمر عليه ذات

يوم، وأولاده كذلك حاضرون، فقال له عبد الملك: «كيف نفقتك؟»، فقال عمر: «الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين!». قال: «وما هما؟»، فأجاب عمر: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ١٧]. فالتفت عبدالملك إلى أولاده قائلًا: «من علمه هذا؟!».

ويظهر أن عمر بن عبد العزيز قد قضى مع زوجته قبل الخلافة أيامًا رغدًا هنيئة، مليئة بالترف والنعيم... وبخاصة تلك الأيام التي قضاها معها في «دابق»، وهي بلدة بحلب. وقد يدل على ذلك الخبر التالي:

فقد مر عمر بن عبد العزيز ذات يوم بفاطمة زوجته -وهو خليفة مشغول بأمور الرعية- فضربها على كتفها، وقال لها: «يا فاطمة، لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم!». فقالت له: «والله ما كنت على ذلك أقدر منك اليوم». فأدبر عنها وله حنين، وهو يقول: «يا فاطمة، إني أخاف النار... يا فاطمة، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم!».

وكان عمر قبل الخلافة يعني بشئون زوجته، ويقبل على أمورها ومطالبها برعاية واهتمام. ويظهر أن عبد الملك بن مروان كان قد كتب وصية بحرمان بناته من الحقوق، وإعطاء ذلك لأبنائه الذكور.

وغضب عمر لهذا الحرمان، وذهب إلى سليمان ابن عبد الملك، أخي فاطمة، يطالبه -وهو خليفة- بها لزوجته قائلًا: «حق هذه المرأة، ألا تدفعه إليها؟». فقال سليمان: «وأي امرأة؟» قال عمر: «فاطمة بنت عبد الملك»، فقال سليمان: «أوما علمت وصية أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قم يا فلان فائتني بكتاب أمير المؤمنين». فقال له عمر: «أئلى المصحف أرسلته؟!»... وهو بذلك يعترض عليه وينتقده، ويذكره بأن

كتاب عبد الملك ليس نصًّا في المصحف. فقال ابن لسليمان كان موجودًا: «ما يزال رجال يعيبون كتب الخلفاء وأوامرهم حتى تضرب أعناقهم». فقال لهم عمر غاضبًا: «إذا كان هذا الأمر إليك وإلى ضربائك، كان ما يدخل على العامة من ضرر ذلك أشد مما يدخل على ذلك الرجل من ضرب وجهه!!».

فغضب عند ذلك سليمان من تطاول ابنه وسبه لعمر وقال له: «أنستقبل أبا حفص بمثل هذا؟». فقال له عمر: «إن كان قد عجل علينا فقد استوفينا!!».

وكان سليمان يقول عن عمر: «ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل، فما أجد أحدًا يفقه عني!».

إلا أن عمر بعد الخلافة شغلته مصالح الناس عن أهله ولذته ومتاعه في حياته، فبدأ منذ تولي أمر الرعية في حياة التقشف والزهد والخشونة. ولقد قال إبراهيم بن هشام: «حدثني أبي عن جدي قال: كنت أنا وابن أبي زكريا بباب عمر، فسمعنا بكاء في داره، فسألنا عنه فقالوا: خيَّر أمير المؤمنين امرأته بين أن تقيم في منزلها -وأعلمها أنه قد شغل عن النساء بما في عنقه- وبين أن تلحق بمنزل أبيها... فبكت، فبكى جواريها لبكائها».

* * *

ولقد طمعت زوجته فاطمة في أول خلافته أن يجعل لها مخصصات من مال الدولة، كما كان الخلفاء من بني أمية يفعلون ذلك مع أقربائهم وأحبائهم، ولكن عمر رفض ذلك قائلًا: «لا، ولك في مالي سعة». فقالت له: «فلم كنت أنت تأخذ منهم؟!» -أي من الخلفاء في ماضيك- فأجاب: «كانت المهنأة لي، والإثم والتبعة عليهم. أما إذ وليت فلا أفعل ذلك فيكون إثمه علي!». بل زاد عمر في تشديده، فطلب من زوجته أن

ترد إلى بيت المال ما كان والدها عبد الملك قد أعطاها من حلي وجواهر...

حدث الفرات بن السائب أن عمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك -وكان عندها جوهر، أمر لها به أبوها، لم ير مثله-: «اختاري: إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك... فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد!».

قالت: «لا، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي».

فأمر به فحمل حتى وضع في بيت المال.

فلما مات عمر، وتولى الخلافة بعده يزيد أخوها، قال لها: «إن شئت رددته عليك». قالت: «فإني لا أشاؤه: طبت عنه نفسًا في حياة عمر، وأرجع فيه بعد موته؟!... لا والله أبدًا». فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده.

وهناك رواية أخرى تتعلق بهذا الحلي، وهي تذكر أن عمر قال لزوجته: «قد علمت حال هذا الجوهر، وما صنع فيه أبوك، ومن أين أصابه... فهل لك أن أجعله في تابوت، ثم أطبع عليه، وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين، وأنفق ما دونه... فإن خلصت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك؟».

قالت: «افعل ما شئت». ففعل ذلك. فمات رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك، فامتنعت من أخذه وقالت: «ما كنت لأتركه ثم آخذه!». فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه.

والرواية الأولى رواها ابن الجوزي، والأخرى رواها ابن عبد الحكم.

* * *

وانصرف عمر -بسبب الخلافة والإقبال على الآخرة- عن شهوة النساء... فلقد روت زوجته قالت: «ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله، غير ثلاث مرات».

وروي عن ابن أبي عبيدة بن عقبة أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال لها: «ألا تخبرينني عن عمر؟ فقالت: ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله إلى أن قبضه!!».

وحدث منه قريب من هذا الانصراف فيما يتعلق بالطعام، فقد حدث أبو أمية غلام عمر بن عبد العزيز قال: «دخلت يومًا على مولاتي -يقصد فاطمة- فغذتني عدسًا، فقلت: كل يوم عدس؟! قالت: يا بني، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين!».

ولقد كانت نفسه أحيانًا تشتهي الشيء ويصدها عنه، أو لا يجد ما يشتري ذلك الشيء به، ولقد دخل على امرأته يومًا فقال له: «عندك درهم أشتري به عنبًا؟». فقالت: «لا». ثم أقبلت عليه فقالت: «أنت أمير المؤمنين، ولا تقدر على درهم تشتري به عنبًا؟!»، فقال: «هذا أهون علينا من معالجة الأغلال في جهنم!».

وكانت امرأته أحيانًا تحاول أن تقدم إليه ما تعرف أنه يشتهيه من أطعمة أو فاكهة، ولكنه لا يطاوعها في الإقبال عليها أو الاغتراف منها، وبخاصة إذا اشتبه فيها.

حدث رياح بن عبيدة قال: «كان عمر بن عبد العزيز يعجبه أن يتأدم بالعسل، فأتته امرأته ذات يوم بعسل، فأكل منه فأعجبه. ثم قال لأهله: «من أين لكم هذا؟»... قالت فاطمة: «بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد، فاشتراه لي». فقال: «أقسمت عليك لما أتيتني به».

فأتته بعكة فيها عسل، فباعها عمر بثمن زائد، ورد عليها رأس المال، وألقى بقيته

في بيت مال المسلمين، وقال: «نصبت دواب المسلمين في شهوة عمر!!».

وقال عمر بن عبد العزيز يومًا: «وددت أن عندي عسلًا من عسل سنير أو لبنان» -وسنير كأمير جبل بين حمص وبعلبك كما يقول القاموس- فسمعت زوجته فاطمة ذلك، فأرست بعض غلمانها -أو بعض مواليها- إلى ابن معدي كرب -وهو عامل ذلك المكان- وذكرت له أن أمير المؤمنين قد تشهى من عسل سنير أو لبنان، فأرسل إليه بعسل كثير!، فلما انتهى الغلام بالعسل إليها أرسلت به إلى عمر، فقالت: «هذا الذي اشتهيت».

فقال عمر: «كأني بك يا فاطمة قد بعثت بعض مواليك إلى ابن معدي كرب»... فأمر بذلك العسل، فأخرجه إلى السوق فبيع، وأدخل ثمنه بيت مال المسلمين.

ثم كتب إلى ابن معدي كرب: «إن فاطمة بعثت إليك تخبرك أني تشهيت عسلًا من عسل سنير أو لبنان، فبعثت إليها... وايم الله لئن عدت إلى مثلها، لا تعمل لي عملًا أبدًا، ولا أنظر إلى وجهك!!».

وهناك رواية ثالثة عن جرير بن حازم عن رجل عن فاطمة بنت عبد الملك قالت: «اشتهى عمر بن عبد العزيز يومًا عسلًا، فلم يكن عندنا، فوجهنا رجلًا على دابة من البريد إلى بعلبك، فأتى بعسل، فقلنا يومًا: إنك ذكرت عسلًا وعندنا عسل، فهل لك فيه؟ قال: نعم. فأتينا به فقرب، ثم قال: من أين لكم هذا العمل؟...

قالت: وجهنا رجلًا على دابة من دواب البريد بدينارين إلى بعلبك، فاشترى بهما لنا عسلًا، فأرسل عمر إلى الرجل فجاءه، فقال له: انطلق بهذا العسل إلى السوق فبعه، فاردد إلينا رأس مالنا، وانظر إلى الفضل (أي الزائد على رأس المال)، واجعله في بيت

مال المسلمين علف دواب البريد... ولو ينفع المسلمين قيئي لتقيأت!!».

ومن هذه الروايات السابقة نلحظ أن زوجة عمر كانت تحبه وتحرص على تحقيق رغباته، وتود أن تدخل السرور على نفسه بكل ما تستطيع... ولذلك كانت تترقب ما يشتهيه، وتبذل جهدها للحصول عليه، حتى تقدمه إليه، لأن في ذلك هناءته وراحته كما كانت تعتقد. ولكنه كان في واد آخر.

* * *

وأعجب من هذا أن فاطمة بنت عبد الملك كانت عندها أمة، وكانت جميلة، وكان عمر يتطلع إليها في شبابه، ويريد أن تهبها فاطمة له، ولكن الغيرة كانت تمنع فاطمة من ذلك. ولما ولي عمر الخلافة، وأقبل عليه ما أقبل من زهد وتقشف وتخفف، وانشغال بأمور الناس، وتعلق بشأن الآخرة - أرادت فاطمة أن تجذبه إلى الدنيا من طريق هذه الجارية، بأن تهديها إليه متجملة، ولكنه أعرض عنها ولم يستجب.

ويروي الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي هذه القصة بروايتين: الأولى عن إسحاق بن إبراهيم من الهيثم بن عدي، قال:

«كانت لفاطمة ابنة عبد الملك بن مروان، زوجة عمر بن عبد العزيز، جارية ذات جمال فائق، وكان عمر رحمه الله معجبًا بها قبل أن تفضي إليه الخلافة، فطلبها منها وحرص، فأبت دفعها إليه، وغارت من ذلك... فلم تزل في نفس عمر، فلما استخلف، أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت ثم حليت، فكانت حديثًا في حسنها وجمالها، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنك كنت معجبًا بفلانة جاريتي، وسألتنيها فأبيت ذلك عليك، فإن نفسي طابت لك بها اليوم، فدونكها!...

فلما قالت ذلك استبان الفرح من وجهه. ثم قال: ابعثي بها إلي... ففعلت فلما دخلت عليه نظر إلى شيء أعجبه فازداد بها عجبًا. فقال لها: ألق ثوبك. فلما همت أن تفعل، قال: على رسلك، اقعدي خبريني: لمن كنت؟ ومن أين أنت لفاطمة؟...

قالت: كان الحجاج بن يوسف أغرم عاملًا كان له من أهل الكوفة مالًا، وكنت في رقيق ذلك العامل، فاستصفاني مع رقيق له وأموال، فبعث بي إلى عبد الملك بن مروان، وأنا يومئذٍ صبية، فوهبني عبد الملك لابنته فاطمة. قال: وما فعل ذلك العامل؟... قالت: هلك. قال: وما ترك ولدًا؟ قالت: بلى. قال: وما حالهم؟ قالت: سيئة. قال شدي عليك ثيابك.

ثم كتب إلى عبد الحميد عامله أن سرح فلانًا ابن فلان على البريد. فلما قدم، قال: ارفع إليّ جميع ما أغرم الحجاج أباك!... فلم يرفع إليه شيئًا إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه، فلما أخذ بيدها قال: إياك وإياها فإنك حديث السن، ولعل أباك أن يكون قد وطئها... فقال الغلام: يا أمير المؤمنين هي لك. فقال: لا حاجة لي فيها. قال: فابتعها مني. قال: لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى!...

فمضى بها الفتى، فقالت الجارية: فأين موجدتك بي (أي محبتك) يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنها لعلى حالها، ولقد ازدادت.. فلم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات!».

والرواية الثانية عن إبراهيم بن هشام أيضًا، قال:

«حدثني أبي عن جدي قال: كانت لفاطمة بنت عبد الملك، امرأة عمر بن عبد العزيز، جارية، فبعثت بها إليه، وقالت: قد كنت أعلم أنها تعجبك، وقد وهبتها لك، فتناول منها حاجتك. فقال لها عمر: اجلسي يا جارية، فوالله ما من شيء من الدنيا كان

أعجب إلى أن أناله منك، فأخبريني ما كان من سبيك. قالت: كنت جارية من البربر، حتى أتى حسان فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على إفريقية، فأخذني موسى بن نصير، فبعثني إلى عبد الملك، فوهبني عبد الملك لفاطمة، فأرسلت بي إليك. فقال: كدنا والله أن نفتضح!... فجهزها وأرسل بها إلى أهلها».

وهناك رواية ثالثة لقصة هذه الجارية يحكيها ابن عبد الحكم بهذه الكلمات:

«ونظر عمر بن عبد العزيز إلى جارية لزوجته فاطمة بنت عبد الملك فكأنها أعجبته. فقالت له فاطمة: أراها قد أعجبتك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: إنها لعرضة لذلك. قال: فأمرت فاطمة بإصلاحها وتهيئتها، حتى إذا رضيت من ذلك بعثت بها إليه، فقال لها: لمن كنت؟ قالت: وهبني عبد الملك لفاطمة. قال: فلمن كنت قبل عبد الملك؟» قالت: كنت أقوم من البصرة، فأخذ عاملها أموالهم، فكنت فيما أخذه، فبعث بي إلى عبد الملك، فوهبني لفاطمة... فدعا (عمر) بالبريد فكتب إلى عامل البصرة فأمر بردها».

* * *

وقد عانت فاطمة مع عمر حياة الخشونة والتقشف، بعد الذي تعودته من حياة الدعة والرفاهية والنعيم قبل خلافته، وفي بيت أبيها قبل ذلك. ولو أن فاطمة نشأت من أول أمرها في عيشة جافة أو حياة خشنة، واستمرت على ذلك... لهان الخطب، ولكن انتقالها من عيشة الملوك إلى عيشة الفقراء يحتاج إلى احتمال شديد. وقد فعلت.

قدمت امرأة من العراق إلى عمر، فلما صارت إلى بابه قالت: «هل على أمير المؤمنين حاجب؟». قالوا: «لا، فلجي إن أحببت». فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تعالجه، فسلمت، فردت عليها السلام، وقالت لها:

«ادخلي». فلما جلست المرأة رفعت بصرها، فلم تر في البيت شيئًا له بال. فقالت: «إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب». فقالت لها فاطمة «إنما خرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك».

فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر في ناحية الدار، فانتزع منها دلاء صبها على طين كان بحضرة البيت -وهو يكثر النظر إلى فاطمة- فقالت لها المرأة: «استتري من هذا الطيان، فإني أراه يطيل النظر إليك».

فقالت: «ليس هو بطيان... هو أمير المؤمنين!».

وبعد ذلك قصت المرأة قصتها على عمر، فكتب لها بمعونة.

ولكن فاطمة على الرغم من صبرها واحتمالها كانت تحن أحيانًا إلى عهودها السابقة الناعمة... قال مالك:

«دخل عمر بن عبد العزيز على فاطمة امرأته، فطرح عليها خلق ساج عليه، ثم ضرب على فخذها، فقال: يا فاطمة، لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم، فذكَّرها ما كانت نسيته من عيشتها...

فضربت يده ضربة فيها عنف فنحتها عنها، وقالت: لعمري لأنت اليوم أقدر منك يومئذٍ... فقام وهو يقول بصوت حزين: يا فاطمة، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم... فبكت فاطمة وقالت: اللهم أعذه من النار!».

وكانت فاطمة ترى أولادها وهم محرومون من نعيم العيش ورفاهية الحياة بعد أن أخذهم أبوهم بهذا الأسلوب الزاهد المتقشف، فكانت تحاول أن تخفف عنهم هذه الشدة، ولو بالشيء القليل اليسير.

حدث الفهري عن أبيه قال: «كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفيء، فتناول ابن صغير له تفاحة، انتزعها من فيه فأوجعه، فسعى إلى أمه مستعبرًا، فأرسلت إلى السوق، فاشترت له تفاحًا. فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال: يا فاطمة، هل أتيت شيئًا من هذا الفيء؟...

قالت: لا... وقصت القصة. فقال: والله لقد انتزعتها من ابني وكأنما انتزعتها من قلبي، لكن كرهت أن أضيع نفسي من الله ﷻ بتفاحة من فيء المسلمين».

وروى ابن السماك الموقف بصورة أخرى قال: «كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاحًا بين المسلمين، فجاء ابن له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح، فوثب إليه ففك يده، فأخذ تلك التفاحة وطرحها في التفاح، فذهب إلى أمه مستعبرًا، فقالت له: مالك أي بني؟! فأخبرها، فأرسلت بدرهمين فاشترت له تفاحًا، وأطعمته، ورفعت لعمر (أي أرسلت إليه). فلما فرغ مما بين يديه دخل إليها، فأخرجت له طبقًا من تفاح، فقال: من أين هذا؟ فأخبرته، فقال: رحمك الله، والله إن كنت لأشتهينه!».

وكانت فاطمة تغضب أحيانًا غضبًا خفيفًا حين لا يغضب عمر للإهانة أو الأذى يلحق ببعض أبنائه ممن يعتدي عليهم. فقد روى عن شيخ من خناصرة قال:

«كان لعمر بن عبد العزيز ابن من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان، فشجه غلام، فاحتملوا ابن عمر والذي شجه، فأدخلوهما على فاطمة. فسمع عمر الجلبة، وهو في بيت آخر، فخرج. وجاءت مريئة (امرأة ضعيفة)، فقالت: هو ابني، وهو يتيم. فقال: له عطاء؟ قالت: لا. قال: اكتبوه في الذرية!.

قالت فاطمة: فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى... قال: إنكم أفزعتموه!!».

ونرى فاطمة تخلص لزوجها، وتتلاقى معه في شعوره: فتحزن لحزنه، وتبكي لبكائه، فقد جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فوعظه، وذكره بحال الميت في قبره، فشهق عمر شهقة، وخر مغشيًّا عليه. فقالت فاطمة لمزاحم: «ويحك يا مزاحم، أخرج هذا الرجل عنا، فلقد نغص علينا أمير المؤمنين الحياة منذ ولي، فليته لم يل».

فخرج الرجل، وجاءت فاطمة فجعلت تصب الماء على وجهه، وتبكي، حتى أفاق من غشيته، فرآها تبكي، فقال: «يا فاطمة، ما يبكيك؟». قالت: «يا أمير المؤمنين رأيت مصرعك بين أيدينا، فذكرت مصرعك بين يدي الله للموت، وتخليك من الدنيا وفراقك لها... فذاك الذي أبكاني!». قال:«حسبك يا فاطمة، فلقد أبلغت؟».

ثم مال ليسقط، فضمته إلى صدرها، فقالت: «بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين، ما نستطيع أن نكلمك بكل ما نجد لك في قلوبنا». فلم يزل على حاله تلك حتى حضرت الصلاة، فصبت على وجهه ماء، ثم نادته: «الصلاة يا أمير المؤمنين». فأفاق فزعًا...

* * *

وظلت فاطمة وفية لزوجها بعد موته، فقد روى التاريخ أنها بكت عليه حتى غشي بصرها. ولقد دخل عليها أخواها مسلمة وهشام ابنا عبد الملك وهي في حزنها، فقالا لها: «ما هذا الأمر الذي قدمت عليه؟ أجزعك على بعلك؟ فأحق من جزع على مثله، أم على شيء فاتك من الدنيا، فها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا؟».

فقالت: «ما من كل جزعت، ولا على واحدة منها أسفت... ولكني والله رأيت منه ليلة منظرًا، فعلمت أن الذي أخرجه إلى ذلك الذي رأيت منه هول عظيم قد أسكن قلبه معرفته». قالا: «وما رأيت منه؟». قالت: «رأيته ذات ليلة قائمًا يصلي، فأتى على

هذه الآية: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة: ٤] فصاح: وأسوء صباحاه!... ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم إنه هدأ، فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق إفاقته، فنادى: ولسوء صباحاه!... ثم وثب فجعل يجول في الدار، ويقول: ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش!!...

قالت: فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه ميت، حتى أتاه الأذان للصلاة... فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتني عيناي، فلم أملك رد عبرتي!».

وهكذا كانت فاطمة بنت عبد الملك مثال الزوجة الوفية لزوجها. رضوان الله عليهما في الخالدين.

دعوات لعمر

الدعاء رجاء من العبد لخالقه، يردده المرء ساعة الحاجة أو الضيق أو الطمع في خير عاجل أو آجل. والغالب أن يدعو الإنسان بما يفيده في دنياه أو أخراه، أو بما يفيد أحبته أو قرابته. وكثير من الناس يغلب على دعائهم طلب المسرات والرغبات التي تتعلق بالمال أو الجاه أو الصحة، أو غير ذلك من المطالب والمطامع.

وكلما ازداد المرء هدى وتقوى، ارتفع دعاؤه عن مستوى هذه المطامع إلى أفق التعلق بما يرضي الله ﷻ، أو بما يرفع مكانة الإنسان عند الخالق العظيم.

وقد وجدنا لعمر بن عبد العزيز خلال حديث التاريخ عنه، المبثوث في مختلف المراجع والمظان... دعوات. وتتبعنا هذه الدعوات، فإذا لها سمة عامة وصبغة شائعة، هي أنه لا يدعو غالبًا إلا بما يرفع شأنه عند ربه، ويقربه من رضاه، ويجعله فائزًا بثوابه، وكثيرًا ما يدعو لغيره من الناس بالصلاح والإصلاح.

كان يدعو مثلًا فيقول: «اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح أمة محمد، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد».

ووقف بعرفة، وأخذ يدعو مشيرًا بأصبعه فقال: «اللهم زد محسن أمة محمد إحسانًا، وأرجع مسيئهم إلى التوبة، وحط من أوزارهم برحمتك».

وكان يكثر من قوله في دعائه: «اللهم سلم سلم».

ودعا فقال: «اللهم إن لم أكن أهلًا لأن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني... فإن رحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء، فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم إنك خلقت قومًا فأطاعوك فيما أمرتهم به، وعملوا في الذي خلقتهم له، فرحمتك إياهم

كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين».

أو ربما قال: «اللهم إن رجالًا أطاعوك فيما أمرتهم، وانتهوا عما نهيتهم. اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك، فوفقني».

وحدث رجل كان على عهد عمر فقال: «حججت عامًا، فلما كان عشية عرفة قلت: لأتفرغن اليوم فأستمع دعاء عمر بن عبد العزيز. قال: فوالله ما كان له من الدعاء من حين وقف حتى دفع الناس، إلا أن يقول: «اللهم سلم لي ديني، ومُنَّ عليَّ بطاعتك، ورضاك عني، وترك ما لا يعنيني»... يردهها حتى غربت الشمس».

وكان يدعو فيقول: «اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر... فاغفر لي ما بينهما».

وحدث ابنه عبد الله فقال: «ما قلب عمر بن عبد العزيز نظره إلى نعمة أنعم الله ﷻ بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمة الله كفرًا، أو أن أكفرها بعد معرفتها، أو أن أنساها فلا أثنى عليك بها».

وعن يحيى بن سعيد: أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: «لقد تركتني هذه الدعوات وما لي في شيء من هذه الأمور كلها أرب، إلا في مواقع قدر الله».

وكان مما يدعو به كثيرًا: «اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته، ولا تأخير شيء عجلته».

* * *

وكان إذا دعا له أحد طلب من الداعي أن يجعل دعوته ذات صلة بالتقوى ورضا الله وقبوله. فقد دخل عبد الأعلى بن هلال على عمر بن عبد العزيز فقال له:

«أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خيرًا لك».

فقال له عمر: «قد فرغ من ذلك يا أبا النضر، ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة، وتوفاك مع الأبرار!».

وقال رجل لعمر: «أبقاك الله». فقال له عمر: «قد فرغ من هذا، فادع بالصلاح».

* * *

وكان عمر يرى أن الدعاء يحتاج إلى الاجتهاد والإخلاص... فقد مر رجل في يده حصاة يلعب بها، وهو يدعو ويقول: «اللهم زوجني من الحور العين». فقال له عمر: «بئس الخاطب أنت. ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله في الدعاء».

ولقد حضر عمر جنازة، فلما فرغ من القبر مسح يده عليه، وأشار بأصبعه ودعا فقال: «اللهم اغفر وارحم، واعف عما تعلم».

وكان إذا دخل الكعبة قال: «اللهم إنك وعدت الأمان دخال بيتك، وأنت خير منزول به في بيته. اللهم اجعل أمان ما تؤمني به أن تكفيني مئونة الدنيا، وكل هول دون الجنة، حتى تبغلنيها يا أرحم الراحمين».

وكان أيضًا يدعو فيقول: «اللهم ألبسني العافية حتى تهنيني المعيشة، واختم لي بالمغفرة حتى لا تضرني الذنوب، واكفني كل هول دون الجنة، حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين».

وكان إذا وقف بعرفات يقول: «اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك، وقد جئتك... اللهم اجعل منفعة ما تنفعني به أن تؤتيني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن تقيني عذاب النار».

وكان يدعو فيقول: «اللهم لا تعطني في الدنيا عطاء يبعدني من رحمتك في الآخرة».

وكان يقول: «يا رب، خلقتني وأمرتني ونهيتني، ورغبتني في ثواب ما أمرتني به، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه، وسلطت علي عدوًّا فأسكنته صدري، وأسكنته مجرى دمي. إن أهم بفاحشة شجعني، وإن أهم بطاعة ثبطني: لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لي في الشهوات، ويتعرض لي في الشبهات، وإلا تصرف عني كيده يستزلني. اللهم فاقهر سلطانه علي بسلطانك عليه، حتى تخسئه بكثرة ذكرى ذلك، فأفوز مع المعصومين بك، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وكان يدعو بقوله:

«يا رب، انفعني بعقلي، واجعل ما أصير إليه أهم إلي مما ينقطع عني، اللهم إني أحسنت بك الظن، فأحسن لي الثواب. اللهم أعطني من الدنيا ما تقيني به فتنتها، وتغنيني به عن أهلها، وتجعله لي بلاغًا إلى ما هو خير لي منها... فإنه لا حول ولا قوة إلا بك».

وهناك دعاء لا شك أن عمر كان يدعو به، لأنه يرويه عن أبيه عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ، وفي أوله أنه يقال عند خشية النسيان للقرآن، وهذا الدعاء هو:

«اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدًا ما أبقيتني، وارحمني بترك ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، ونور به بصري، واشرح به صدري، واجعلني أتلوه كما يرضيك عني، وافتتح به قلبي، وأطلق به لساني».

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز إذا كتب كتابًا وخاف فيه العجب مزقه ودعا فقال: «اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي».

ورووا أن غلة أرضه في «السويداء» جاءته يومًا، وفيها تمر صيحاني، وتمر عجوة، ومائتا دينار من الذهب... فبعثت امرأته بابن لها لينال شيئًا من هذا الذهب، فأعطاه أبوه عمر حفنة من التمر. فلما رجع الغلام بالتمر إلى أمه غضبت، وأمرت الغلام أن يعود فيحضر لها من الذهب لتنفق منه على ما تحتاج فعاد الغلام وأراد ذلك، فمنعه أبوه من ذلك، وقال للوليد: «أمسك يديه يا وليد»... ففعل.

وهنا دعا عمر بدعاء له كثير، وكان من دعائه: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، بغّض إلى هذا الغلام هذا الذهب كما حببته إلى فلان بن فلان... أرسل يديه يا وليد!». فارتعشت يداه فما مس منها دينارًا، وانصرف.

وقال رجل لعمر: «لقد استجيب لك يا أمير المؤمنين»، فقال عمر: «أخرجوا زكاة هذا المال... ففعلوا. وهذا يدل على أن عمر كان مستجاب الدعوة.

وهناك على هذا شاهد آخر... فقد دعا عمر على خالد بن الريان فقال: «اللهم إني أذكر بأوه (عجبه) وتيهه، اللهم إني قد وضعته لك فلا ترفعه».

قالوا: فما رؤي شريف قد خمل ذكره حتى لا يذكر، ما خمل ذكر خالد بن الريان... حتى أن كان الرجل ليقول: ليت شعري ما فعل خالد، أحي أم ميت؟... وإنه لفي فرية صغيرة ما يدري أحي أم ميت؟

ولما مات سهل أخوه، وعبد الملك ابنه، ومزاحم مولاه -وكانوا أعوانه على الخير- وجاءه المرض، قام في جوف الليل فأتقن وضوءه، وأخلص صلاته، ثم دعا فقال: «اللهم إنك قد قبضت سهلًا وعبد الملك ومزاحمًا، وكانوا أعواني على ما قد علمت، فلم أزدد لك إلا حبًّا، ولا فيما عندك إلا رغبة، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط». فما قام من مرضه ذلك حتى قبضه الله!

وكان يدعو في مرضه فيقول: «اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران: لك في أحدهما رضا، ولي في الآخر هوى... إلا آثرت رضاك على هواي، فاغفر لي».

وكان كذلك يدعو فيقول: «اللهم لا تهون علي سكرات الموت!!»... لإيمانه بأنه يؤجر على ذلك من الله!

تواضع عمر

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾.

هذا هو منطق القرآن الكريم. وأشد ما تدخل به النفس على صاحبها من السوء والأذى، أن تبعث فيه الغرور والإعجاب بالنفس. فإذا اغتر المرء بذاته أو أعجب بنفسه، فقد انفتح عليه باب من أبواب الشقاء والبلاء، لا يستطيع النجاة منه أو الخلاص من شره إلا بتعب ونصب.

ولذلك يحتاج الإنسان إلى أن يعلِّم نفسه التواضع كلما جاء موقف ملائم لذلك التواضع، وأن يعودها الخضوع للحق، والنزول على حكم الصدق، وأن يطامن من جموحها أو تبجحها، حتى لا تقوده إلى شر المعاطب، أو تعرِّضه لألوان المصائب.

وليس معنى هذا أن يكون الرجل حقيرًا في نفسه، أ وصغيرًا في همته، أو ضعيفًا في عزيمته، أو تابعًا لغيره، أو ظلًّا لسواه، أو يرضى بالدنية تناله في حسه أو نفسه، أو يقبل أن يتطاول عليه غيره ويسكت له أو يسكت عليه... بل معنى هذا أن يعرف الإنسان قدر نفسه، وألا يغتر بما في يده، وألا يحسب أنه في بيئته وحده ليس معه غيره.

ولذلك كان أفضل التواضع ما صدر عن القوي القادر. أما تواضع المغلوبين أو المقهورين أو الضعفاء، فهو بالذلة أشبه، وفي باب الهوان أدخل.

والواقع أن الرجل العظيم المتواضع يحملنا على احترامه وإعظامه مرتين لا مرة واحدة. فنحن نجله ونكبره لمكانته الشخصية، وخصائصه الذاتية، وعظمته البادية، ثم نجله ونكبره، لأنه لم يغتر بهذه العظمة ولا بهذه المكانة، بل تأدب وتواضع وقديمًا قيل وما زال يقال: من تواضع لله رفعه...

وعمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليه، كان من الأمثلة القليلة في التاريخ التي تجلى فيها التواضع بأوضح صوره وأوسع معانيه. فعلى الرغم من أنه الخليفة ابن الخلائف، وصهر الخلائف، وربيب النعمة والمتعة... تراه متواضعًا متجملًا بسهولة الطباع ودماثة الأخلاق ولين المعاملة، لا يداهن في تواضعه ولا يرائي، بل يندفع إلى هذا التواضع بشعور قوي خفي يشعره بأنه كلما تواضع كان أقرب إلى ربه، وكان أكثر رضا عن نفسه.

ها هو ذا يصيبه من الحر ما يصيبه، وينال من وقدة الظهيرة ما يناله، فيأمر جارية له أن تروحه... حتى غلبته عينه فنام، ثم غلبتها عينها فنامت. واستيقظ عمر، فرأى الجارية نائمة، ورآها قد نالها من الحر ما قاله، فتناول المروحة وأخذ يروحها، فانتبهت الجارية مذعورة، وأكبرت أن يفعل لها سيدها ذلك، فأجابها إجابة الصادق في تواضعه قال:

«إنما أنت بشر مثلي، أصابك من الحر ما أصابني، فأحببت أن أروحك مثل ما روحتني!».

ولقد سمر عنده بعض أصدقائه ليلة، واعتل السراج، وكان يمكنه أن يستدعي وصيفًا لإصلاحه، ولكن الوصيف كان نائمًا، فلم يشأ أن يقلقه. وهم رجاء بن حيوة -وكان ملازمًا لعمر- أن ينهض لإصلاح السراج، فقال له عمر: «ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه».

ثم نهض عمر فأمد السراج بزيت، وأصلحه. ولما استكبر من معه ذلك، قال عمر:

«قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز!!... ولؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه».

ومن علامات تواضعه -وهو قادر- ما صار إليه بعد الخلافة من زهد وتقشف وتخفف من مظاهر الجاه ومتع الحياة... فبعد أن كان يمشي المشية «العمرية» التي يقلدها الفتيات لحسنها واختيالها، صار بعد الخلافة يمشي مشية الرهبان. وبعد أن كان يلبس الشفوف ولطائف الثياب، صار يلبس أخشن ما يحتمله اللابس من ثياب. وبعد أن كان يأكل الألوان والأنواع، صار يألف العدس والثوم والزيت، ويقول عن نفسه: «بطين متلوث في دنياه، يتمنى على الله الأماني ومنازل الأبرار، ويعمل خلاف عملهم».

وكان من صِدْق تواضعه يحاول أن يعرف المرء قدر نفسه، حتى لا تطغى به أو تبغي. سمع أن ابنه اشترى فصًّا بألف درهم فتختم به، فكتب إليه عمر يقول:

«عزيمة مني عليك ألا بعت الفص الذي اشتريته بألف درهم، وتصدقت بثمنه، واشتريت فصًّا بدرهم نقشت عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه... والسلام».

ولقد أثنى رجل على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: «لو عرفت من نفسي ما أعرف منها ما نظرت في وجهي!».

وقيل لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة... فإن قضى الله موتًا، دفنت في موضع القبر الرابع، مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر». فقال عمر: «والله لأن يعذبني الله بكل عذاب -إلا النار، فإنه لا صبر لي عليها!- أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني أرى أني لذلك أهل!!».

ولقد قدم عليه زياد الذي كان مولى لعبد الله بن عياش، وكان عند باب عمر جماعة من الناس، فأذن عمر لزياد المولى دونهم. ودخل زياد، ونسي أن يسلم على عمر بالخلافة حسب عادتهم، بل سلم تسليمًا عاديًّا، ثم تذكر ذلك فقال: السلام عليك يا

أمير المؤمنين. فقال عمر: «والأولى لم تضرني!».

ثم نزل عمر عن موضع مرتفع كان يجلس عليه، وجلس على الأرض مع زياد قائلًا: «إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد!».

ثم قضى عمر لزياد ما أراد، وفتح له بيت المال، فتناول منه حاجته في اعتدال وتعفف!

وذات يوم نادى رجل عمر قائلًا له: «يا خليفة الله في الأرض. فغضب عمر من ذلك وقال له: «مه! إني لما وُلدت اختار لي أهلي اسمًا، فسموني عمر، فلو ناديتني: يا عمر، أجبتك. فلما كبرت اخترت لنفسي الكنية، فكنيت بأبي حفص، فلو ناديتني: يا أبا حفص، أجبتك. فلما وليتموني أموركم سميتموني: أمير المؤمنين. فلو ناديتني: يا أمير المؤمنين، أجبتك... وأما «خليفة الله في الأرض»، فلست كذلك. ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦].

وكان من تواضعه أنه لا يحب أن يتميز على غيره من الناس، فإذا كان هناك جنازة أقبل يشارك في حمل النعش أكثر من مرة، ولا يكاد يعرفه أحد وسط الناس، لأنه لا يتميز عليهم -مع أنه الخليفة- بشارة أو مظهر خاص.

ولقد نزل عمر ديرًا، فرأى أطباقًا فيها فاكهة ونقل. فسأل عن سببها، فقالوا له: إن صاحب الدير يطعم الناس. وبعد قليل قدموا إليه طبقًا فيه فستق ولوز، وكأنما أحس عمر أن الناس لم يقدم إليهم مثل ما في هذا الطبق، فسأل: هل تلك الأطباق مثل هذا؟ فقال له صاحب الدير: لا. فرفض عمر أن يأكل من طبقه المتميز عن غيره، وقال

لصاحب الدير: خذ طعامك!

ولما تولى الخلافة قام الناس بين يديه، فقال عمر: «يا معشر الناس، إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد... فإنما يقوم الناس لرب العالمين!».

وكان يأمر الحرس ألا يقوموا إذا خرج، وألا يبدءوه بالسلام، ويقول: «لا تبتدئوني بالسلام، إنما السلام علينا لكم».

وجاءت إلى بيته امرأة تطلب إنصافه ومعونته، وجلست المرأة مع فاطمة زوجة عمر. ثم دخل عمر البيت، وانتحى ناحية، وأخذ يسكب على نفسه الماء ليتوضأ، فقالت المرأة لفاطمة: ألا تأخذين عليك ثيابك من هذا الرجل، يرى رأسك مكشوفًا؟!. فقالت فاطمة: «هذا أمير المؤمنين يسكب لنفسه وضوءًا!». وبعد أن انتهى عمر من صلاته أقبل على المرأة وقضى لها حاجتها.

ومن سواطع الدلائل على صدقه في تواضعه، تلطفه البليغ في معاملة خدمه... فقد كان له غلام يشتغل له على بغل، وذات يوم سأله عمر عن حال الناس، فقال الغلام: «الناس كلهم بخير، إلا أنا وأنت وهذا البغل!!». فلم يغضب عمر ولم يثر، بل قال: «اذهب فأنت حر!!».

خليفة يتطلب الموعظة

المؤمن مرآة أخيه. والإنسان مهما سما في مراتب الفضل، وعلا في منازل الرفعة، لا يستغني عن مُذَكِّر يذكر، أو ناصح يحذره، أو مشير عليه بكلمة خير، والإنسان قد يعرف من عيوب غيره الكثير، وقد يسهل عليه أن يقدم النصيحة للرفيق أو الصديق، ولكن يصعب على الإنسان أن يدرك عيوب نفسه، أو يرى ثغرات ذاته، وقديمًا قال الشاعر:

والعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة!

وأكثر الناس يكابرون فيتوهمون أو يوهمون الناس أنهم خلو من العيب، وأنهم براء من النقص. وكثير من الناس يعرفون أن فيهم عيوبًا، ولكن يصعب عليهم أن يسمعوا كلمة نقد أو عبارة توجيه. وقليل من الناس هم الذين إذا سمعوا كلمة النصح تحملوها، وعملوا بها، وانتفعوا منها، وأقل من القليل هم الذين يبحثون عن أهل النصح والإرشاد ليسمعوا منهم، ويأخذوا عنهم.

والحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه -مع أنه إمام وعالم ورشيد- كان لا يلقى أحدًا من أهل الموعظة والتوجيه إلا طلب إليه أن يعظه بما استطاع.

وكان عمر يؤمن بأن العظة واجب يحسن أداؤه، وصلة يجمل تقديمها... وهو الذي يقول: «من وعظ أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه... فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه».

ولقد قال عمر لعمرو بن مهاجر: «يا عمرو، إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي، ثم هزني، ثم قل لي: ماذا تصنع؟!».

وعن أبي حازم قال: «لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: انظروا رجلين من أفضل من تجدون. فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة أمر فألقى لهما وسادة قبالته، فقال لهما: إنه مجلس شرة وفتنة، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إليّ، فإذا رأيتما مني شيئًا لا يوافق الحق، فخوفاني وذكراني الله ﷻ».

وقال عمر لمزاحم مولاه: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي... فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو فعلا لا تحبه، فعظني عنده، وانهني عنه!!».

ويروى أنه لما تولى الخلافة دخل عليه أخ له فقال: «إن شئت كلمتك، وأنت عمر، فيما تكره اليوم وتحب غدًا، وإن شئت كلمتك، وأنت أمير المؤمنين، فيما تحبه اليوم وتكرهه غدًا»، فقال له عمر: «بل كلمني، وأنا عمر، فيما أكره اليوم وأحب غدًا».

ونسوق فيما يلي طائفة من المواعظ التي تطلبها عمر بن عبد العزيز، وتأثر بها، وإن فيها لبلاغًا لقوم يعقلون.

مع الحسن البصري

كتب عمر إلى الحسن البصري يقول له: «عظني»، فكتب إليه الحسن يقول:

«أما بعد يا أمير المؤمنين، فكن للمثل من المسلمين أخًا، وللكبير ابنًا، وللصغير أبًا. وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار!».

ويروى أن محمد بن كعب القرظي وعظ عمر بقريب من هذا الكلام أيضًا.

وكتب عمر إلى الحسن أيضًا يقول له: «عظني وأوجز» فأجابه بقوله:

«أما بعد، فإن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يدك.. الزهد في الدنيا. وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار، فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجدها أهلًا أن تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلًا أن تكرمها بهوان الدنيا... فإنما الدنيا دار بلاء، ومنزل غفلة».

مع طاوس

وكتب عمر إلى طاوس يسأله أن يعظه، فأجابه موجزًا يقول:

«سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد، فإن الله ﷻ أنزل كتابًا، وأحل فيه حلالًا، وحرم فيه حرامًا، وضرب فيه أمثالًا، وجعل بعضه محكمًا، وبعضه متشابهًا... فأَحِلّ حلال الله، وحرِّمْ حرام الله، وتفكرْ في أمثال الله، واعمل بمحكمه، وآمِنْ بمتشابهه، والسلام عليك!».

مع سالم وابن كعب

لما استخلف عمر دخل عليه سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، وهو مكتئب حزين، فقال لأحدهما: «عظني». فقال له، وأظنه ابن كعب: «يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعل أحدًا من خلقه فوقك، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك، واجعل الناس أصنافًا ثلاثة، الكبير بمنزلة الأب، والوسط بمنزلة الأخ، والصغير بمنزلة الولد... فبر أباك، وصل أخاك، واعطف على ولدك، واعلم أنك أول خليفة يموت!».

ثم أقبل عمر على الآخر -وأظن أنه سالم- فقال له: «عظني» فأجابه:

«يا أمير المؤمنين: إن الدنيا عطن مهجور، وأكل منزوع، وعرض بلاء، ومستقر

آفات... يحيط بها الذل، ويفنيها الثكل: لكل فرحة منها ترحة، ولكل سرور منها غرور، وقد رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدي الأشقياء. فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه، يصبر على شدة الدواء لما يرجو من الشفاء!».

مع أبي حازم

وقال عمر لأبي حازم: «عظني»، فقال له:

«اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة، فدعه الآن!».

ثم قال له: «اتق أن تلقى محمدًا ﷺ، وأنت بتبليغ الرسالة له مصدق، وهو عليك بسوء الخلافة في أمته شهيد!».

مع ابن الأهتم

دخل ابن الأهتم على عمر بن عبد العزيز وقال له: «أطريك؟»، قال عمر: «لا». قال: «فأعظك؟»، قال عمر: «نعم»، قال: «فافتح الباب، وأدخل الناس»، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال:

«إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق غنيًّا عن طاعتهم، آمنًا لمعصيتهم أن تنقصه، فالناس يومئذٍ في الحالات والمنازل مختلفون: فالعرب منهم بشر تلك الحال -أهل الوبر والشعر والحجر- لا يتلون كتابًا، ولا يصلون جماعة: ميتهم في النار، وحيهم أعمى بشر حال... مع الذي لا يحصى من عيشهم المزهود فيه، والمرغوب عنه.

فلما أراد الله أن ينشر فيهم حكمته، بعث فيهم رسولًا من أنفسهم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فبلَّغَ محمدٌ رسالة ربه،

ونصح لأمته، وجاهد لله حق جهاده... حتى أتاه اليقين. ثم ولي أبو بكر من بعده، فارتدت العرب، أو من ارتد منها، فحرصوا على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فأبى أبو بكر أن يقبل منهم إلا ما كان رسول الله ﷺ قابلًا لو كان حيًّا، فلم يزل يحرق أوصالهم، ويسقي الأرض من دمائهم، وقررهم على الأمر الذي نفروا منه، وأوقد في الحر شعلها، وحمل أهل الحق على رقاب أهل الباطل...

ثم حضرته الوفاة وقد أصاب من فيء المسلمين سنًّا لقوحًا كان يرتضخ من لبنها، وبكرًا كان يروي عليه أهله الماء، وحبشية كانت ترضع ابنًا له... فلم يزل ذلك غصة في حلقه، وثقلًا على كاهله، حتى خرج منه إلى ولي الأمر من بعده عمر بن الخطاب...

ثم ولي عمر: فحسر عن ذراعيه، وشمر عن ساقيه، وأعد للأمور أقرانها، فراضها فأذل صعابها، وترك الأمر فيها إلى يسر. ثم حضرته الوفاة، وكان قد أصاب من فيء المسلمين شيئًا، فلم يرض في ذلك بكفالة من أحد من ولده، حتى باع في ذلك ربعه، وضم ذلك إلى بيت مال المسلمين... وايم الله ما اجتمعنا من بعدها إلا على ظلم».

ثم أقبل على عمر بن عبد العزيز فقال:

«وأنت يا عمر، ابن الدنيا، غذتك بأطايبها، وألقمتك ثديها... تطلبها من مظانها، تعادي فيها وترضى لها، حتى إذا ما أفضت إليك بأركانها من غير طلب منك لها، رفضتها، ورميت بها حيث رمى الله بها، فامض -رحمك الله- ولا تلتفت، فالحمد لله الذي فرج بك كربنا، ونفس بك غمنا... فإنه لا يذل مع الحق حقير، ولا يكبر من الباطل عزيز. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم».

مع خالد بن صفوان

وقال عمر لخالد بن صفوان: «عظني وأوجز» فقال:

«يا أمير المؤمنين، إن أقوامًا غرهم ستر الله، وفتنهم حسن الثناء... فلا يغلبن جهل غيرك يك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مفتونين، وعما افترض الله علينا متخلفين، وإلى اللهو مائلين، أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى...

إن الله لم يرض أحدًا يكون فوقك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك».

فبكى عمر حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: «هيه يا خالد... لم يرض أن يكون أحد فوقي. فوالله لأخافنه خوفًا، ولأحذرنه حذرًا، ولأرجونه رجاءً، ولأحبنه حبًّا، ولأشكرنه شكرًا، ولأحمدنه حمدًا ولأجتهدن في العدل والنصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها، حتى ألقى الله ﷻ.... فعلى أن أنجو مع الناجين، وأفوز مع الفائزين».

ثم عاد يبكي حتى غشي عليه!!...

مع سالم مولى ابن كعب

قال عمر لسالم مولى محمد بن كعب: «يا سالم عظنا».

فقال له: «آدم، ﷺ، على خطيئة واحدة، أخرج من الجنة، وأنتم تعملون الخطايا ترجون تدخلون بها الجنة؟!».

ويروى أن عمر لما استخلف دعا سالمًا إليه، وقال له: «إني أخاف ألا أنجو». قال سالم: «إن كنت خائفًا فنعما، لكني أخاف عليك ألا تخاف... إن الله أسكن عبدًا دارًا

(يعني آدم والجنة) فأذنب فيها ذنبًا واحدًا، فأخرجه من تلك الدار. فنحن أصحاب ذنوب كثيرة نريد أن نسكن هذه الدار؟!».

مع يزيد الرقاشي

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز، فقال له: «عظني يا يزيد». فقال له: «يا أمير المؤمنين، ليس بين آدم وبينك ممن ولدك أب حي».

قال عمر: «زدني». قال يزيد: «يا أمير المؤمنين أنت أول خليفة يموت». قال عمر: «زدني». قال يزيد: «ليس بين الجنة والنار منزلة».

مع رجل

دخل رجل على عمر، وبين يديه كانون فيه نار، فقال له: «عظني»، فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين: ما ينفعك من دخل الجنة إذا دخلت أنت النار، وما يضرك من دخل النار إذا دخلت أنت الجنة؟».

فبكى عمر حتى انطفأت النار من دموعه!

مع ابن كعب

ووعظ محمد بن كعب القرظي عمر بن عبد العزيز مرة، فقال له -وقد طلب منه عمر أن يشير عليه عقب توليه الخلافة-: «إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا... فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك!».

وسأله عمر مرة أن يصف له العدل فقال ابن كعب:

«سألت عن أمر حسن: كن لصغير المسلمين أبًا، ولكبيرهم ابنًا، وللمثل منهم

أخًا. وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتتعدى فتكون عند الله ﷻ من العادين».

وقال ابن كعب لعمر أيضًا يعظه: «لا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده على قدر قضاء حاجته، فإذا انقطعت حاجته انقطعت أسباب مودته... اصحب من الأصحاب ذا العلا في الخير، والأناة في الحق: يعينك على نفسك، ويكفيك مئونته».

ودخل ابن كعب على عمر، وعنده هشام ابن مصاد وكان عمر يبكي، ثم أخذ يمسح عينيه من الدموع فسأل ابن كعب: «ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟». فقال هشام: أبكاه كذا وكذا.

فقال ابن كعب يعظ عمر:

«يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق: فمنها خرج الناس بما ضرهم، ومنها خرجوا بما نفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا منها ملومين: لم يأخذوا منها لما أحيوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جنة، وأقسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم...

فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي تغبطهم بها فتخلفهم فيها، وننظر إلى الأعمال التي تتخوف عليهم منها فتكف عنها.

فاتق الله يا أمير المؤمنين، واجعل في قلبك سبيل اثنتين: انظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك ﷻ، فابتغ به البدل، حيث لا يؤخذ البدل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تجوز عنك، فاتق الله يا أمير المؤمنين، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم...

ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ﷻ: من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

مع القاسم بن مخيمرة

قال القاسم بن مخيمرة: «دخلت على عمر بن عبد العزيز وفي صدري حديث يتجلجل فيه أريد أن أقذفه إليه، فقلت له:

«بلغني أن من ولي على الناس سلطانًا فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم، احتجب الله من فاقته وحاجته يوم يلقاه...

فقال عمر: «ما تقول؟!». ثم أطرف فعرفتها فيه، وبرز للناس».

مع رجاء بن حيوة

لما تولى عمر الخلافة، دعا فريقًا من الفقهاء ليشيروا عليه، وكان من بينهم رجاء بن حيوة، فقال لعمر: «إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله ﷻ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت!».

مع زياد العبد

قدم زياد العبد على عمر، فقال له عمر:

«يا زياد، ألا ترى ما ابتليت به من أمة محمد ﷺ!».

قال زياد: «يا أمير المؤمنين، لا تعمل نفسك في الوصف، وأعمل نفسك في المخرج مما وقعت فيه، فلو أن كل شعرة منك نطقت ما بلغت كنه ما أنت فيه... يا أمير المؤمنين، أخبرني عن رجل له خصم ألد: ما حاله؟».

قال عمر: سيئ الحال.

قال زياد: فإن كانا خصمين ألدين؟

قال: عمر: ذاك أسوأ لحاله.

قال زياد: فإن كانوا ثلاثة؟

قال عمر: ذاك حين لا يهنأه عيش.

قال زياد: والله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك!

فبكى عمر حتى تمنى زياد أنه لم يكن قال له ما قال.

ودخل زياد على عمر في ليلة شاتية، وبين يديه كانون، فقال عمر: زياد!

قال زياد: نعم.

قال عمر: قص علي.

قال زياد: ما أنا بقاص.

قال عمر: فتكلم.

قال زياد: زياد!

قال عمر: وما له؟

قال زياد: لا ينفعه من دخل الجنة إذا أدخل النار، ولا يضره من دخل النار إذا أدخل الجنة.

قال عمر: صدقت والله، ما ينفعك من دخل الجنة إذا دخلت النار، ولا يضرك من دخل النار إذا دخلت الجنة!

وجعل عمر يبكي حتى أطفأ نار الكانون بدموعه!

مع مزاحم

قال عمر بن عبد العزيز:

«إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم حبست رجلًا فجاوزت في حبسه القدر الذي يجب عليه، فكلمني في إطلاقه، فقلت: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مر عليه».

فقال مزاحم: «يا عمر بن عبد العزيز، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة، في صبيحتها تقوم الساعة، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع: قال الأمير، قال الأمير!».

يقول عمر: «فوالله، ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء... فذكروا أنفسكم رحمكم الله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين».

مع سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب يقول:

«أما بعد، فإن الله تبارك اسمه وتعالى جده ابتلاني بما ابتلاني به من أمركم، من غير مشورة مني فيه ولا طلب، إلا قضاء من الرحمن الرحيم، فأسأل الذي ابتلاني بما ابتلاني به من أمر عباده وبلاده، أن يحسن عوني وعاقبتي وعاقبة من ولاني أمره...

وقد رأيت أن أسير في الناس بسرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إن قضى الله ذلك، واستطعت إليه سبيلًا... فابعث إلي بكتب عمر وقضاياه في أهل القبلة وأهل العهد، فإني متبع أثره، وسائر بسيرته، إن شاء الله تعالى، وأسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى».

فأجابه سالم بقوله:

«أما بعد، فإن الله ﷻ خلق الدنيا لما أراد أن يخلقها له، فجعل لها مدة قصيرة، كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. لا يقدر أهلها منها يا عمر على شيء حتى تفارقهم ويفارقوها... بعث بذلك رسوله وأنزل كتابه، ضرب في ذلك الأمثال، وضرب فيه الوعيد، جعل دينه في الأولين والآخرين دينًا واحدًا، فلم يختلف رسله ولم يبدل قوله...

ثم إنك يا عمر لست تعدو أن تكون رجلًا من بني آدم، يكفيك ما يكفي لرجل منهم من الطعام والشراب، فاجعل فضل ذلك فيما بينك وبين الرب الذي توجه إليه شكر النعم. فإنك قد وليت أمرًا عظيمًا ليس يلي عليك أحد دون الله ﷻ. إن استطعت ألا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة... فافعل، فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا، وأحيوا ما أحيوا، وأتوا ما أتوا... حتى ولد في ذلك رجال ونشئوا فيه، وظنوا أنها السنة، فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها بابًا إلا فتح الله عليهم باب بلاء...

فإن استطعت -ولا قوة إلا بالله- أن تفتح على الناس أبواب الرخاء... فافعل، فإنك لن تفتح منها بابًا إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء، ولا يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أحد يكفيني عمله... فإنك إذا كنت تنزع لله، وتستعمل لله، أتاح الله لك أعوانًا فأتاك بهم، وإنما قدر عون الله إياك بقدر نيتك: فإن تمَّت نيتك تم عون الله الكريم إياك، وإن قصرت نيتك قصر من الله العون بحسب ذلك...

واعلم أنه كان قبلك رجال عاينوا هول المطلع، وعالجوا نزع الموت الذي كانوا

منه يفرون، فانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها، وانفقأت عيونهم التي كانوا لا تنقطع لذتها، واندقت رقابهم غير موسدين، بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم... فصاروا جيفًا في بطون الأراضي تحت مهادها. والله لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى برؤيتهم، بعد إنفاق ما لا يحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب... كل ذلك إسرافًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون...

ما أعظم الذي ابتليت به، وأفظع الذي سيق إليك... أهل العراق أهل العراق!... أبرهم منك منزلة من لا فقر بك إليه، ولا غنى به عنك. فمن بعثت من عمالك إلى العراق، فانهه نهيًا شديدًا شبيهًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها...

المال المال يا عمر! والدم الدم يا عمر! فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره، وإنه من بعثت من عمالك أن يعملوا معصية، أو أن يحكموا بشبهة، أو أن يحتكروا على المسلمين بيعًا... فإنك إن اجترأت على ذلك أتى بك يوم القيامة ذليلًا صغيرًا، وإن تجنبت عنه، عرفت راحته في سمعك وبصرك وقلبك...

كتبت إلي تسألني أن أبعث إليك بكتب عمر، وبقضائه في أهل القبلة وأهل العهد... وإن عمر رضي الله عنه عمل في غير زمانك، وعمل بغير رجالك. وإنك إن عملت في زمانك على النحو الذي عمل عمر بن الخطاب في زمانه، بعد الذي رأيت وبلوت، رجوت أن تكون أفضل عند الله منزلة من عمر بن الخطاب، وقل كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]... والسلام عليك».

مع الحسن البصري أيضًا

كان الحسن البصري يكثر وعظ عمر بن عبد العزيز، فمن ذلك قوله لعمر:

«واعلم أن الهول الأعظم ومفظعات الأمور أمامك... لم يقطع منها بعد، وأنه لا بد والله لك من مشاهدة ذلك ومعاينته: إما بالسلامة والنجاة منه، وإما بالعطب!».

وكتب إليه يعظه:

«يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان... ما كان لك بد من أن تقتحم العقبة. ومن وراء العقبة الجنة والنار، من أخطأته هذه، دخل هذه!».

فلما أتى هذا الكتاب عمر، وضعه على عينيه وبكى، وقال:

«من لي بعمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن بد من أن أشرب بكأس الأولين!».

وكتب إليه الحسن يقول:

«أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإن طول البقاء إلى فناء... ما هو؟ فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى. والسلام».

فلما قرأ عمر الكتاب بكى، وقال: «نصح أبو سعيد وأوجز!».

* * *

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز عظة طويلة قال فيها:

«أما بعد.اعلم يا أمير المؤمنين أن الدنيا دار ظعن، وليست بدار إقامة... وإنما

أهبط إليها آدم من الجنة عقوبة. وقد يحسب من لا يدري ثواب الله أنها ثواب، ومن لم يدر ما عقاب الله أنها عقاب. ولها في كل حين صرعة، وليست صرعة كصرعة... هي تهين من أكرمها، وتذل من أعزها، وتصرع من آثرها. ولها في كل حين قتلى، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه: فالزاد فيها تركها، والغنى فيها فقرها...

فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه: يصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، يحتمي قليلًا مخافة ما يكره طويلًا. فإن أهل الفضائل كانوا منطقهم فيها بالصواب، ومشيهم بالتواضع، ومطمعهم الطيب من الرزق، مغمضي أبصارهم عن المحارم... فخوفهم في البَرِّ كخوفهم في البحر، ودعاؤهم في السراء كدعائهم في الضراء، لولا الآجال التي كتبت لهم، ما تفاوت أرواحهم في أجسادهم خوفًا من العقاب، وشوقًا إلى الثواب... عظم الخالق في نفوسهم، فصغر المخلوقين في أعينهم...

واعلم، يا أمير المؤمنين، أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، وأن الندم على الشر يدعو إلى تركه. وليس ما يفنى -وإن كان كثيرًا- بأهل لأن يؤثر على ما يبقى وإن كان طلبه عزيزًا، واحتمال المئونة المنطقعة، التي تعقب الراحة الطويلة، خير من تعجيل راحة منقطعة، تعقب مئونة باقية وندامة طويلة.

فاحذر هذه الدنيا الصارعة الخاذلة القاتلة التي قد تزينت بخدعها، وفتكت بغرورها، وخدعت بآمالها، فأصبحت كالعروس المجلية... فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة: فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر لما رأى من أثرها على الأول مزدجر، ولا العارف بالله، المصدق له حين أخبره عنها مذكر...

قد أبت النفوس لها إلا حبًّا، وأبت النفوس لها إلا عشقًا. ومن عشق شيئًا، ثم يلهم غيره، ولم يعقل سواه... مات في طلبه، وكان آثر الأشياء عنده. فهما عاشقان طالبان مجتهدان: فعاشق قد ظهر منها بحاجته فأغنته وطغى ونسي ولها، فغفل عن مبتدأ خلقه، وضيع ما إليه معاده، فقل في الدنيا لبثه حتى زالت عنه قدمه، وجاءته منيته على أسر ما كان منها حالًا، وأطول ما كان فيها أملًا... فعظم ندمه وكثرت حسرته، مع ما عالج من سكرته، فاجتمعت عليه سكرة الموت بكربته، وحسرة الفوت بغصته... فغير موصوف ما نزل به.

وآخر مات من قبل أن يظفر منها بحاجته، فمات بغمه وكمده، ولم يدرك فيها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب والنصب...

فخرجا جميعًا بغير زاد، وقدما على غير مهاد.

فاحذرها، يا أمير المؤمنين، الحذر كله... فإنما مثلها كمثل الحية: لين مسها، تقتل بسمها، فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما قد أيقنت من فراقها، واجعل شدة ما اشتد منها رجاء ما ترجو بعدها، وكن عند أسر ما تكون فيها، احذر ما تكون لها... فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور، صحبته من سرورها بما يسوءه، وكلما ظفر منها بما يحب، انقلبت عليه بما يكره...

فالسار منها لأهلها غار، والنافع منها غدًا ضار، وقد وصل الرخاء فيها بالبلاء: فسرورها بالحزن مشوب، والناعم فيها مسلوب... فانظر يا أمير المؤمنين إليها نظر الزاهد المفارق، ولا تنظر نظر المبتلى العاشق. واعلم أنها تزيل الثاوي بالساكن، وتفجع المترف فيها بالآمن، ولا يرجع ما تولى وأدبر، ولا بد ما هو آت منها ينتظر، ولا يتبع ما

صفا منها إلا كدر...

فاحذرها فإن أمانيها كاذبة، وآمالها بطالة، وعيشها نكد، وصفوها كدر، وأنت منها على خطر: إما نعمة زائلة، وإما بلية نازلة، وإما مصيبة فادحة، وإما منية قاضية. فلقد كدرت المعيشة لمن عقل، فهو من نعيمها على خطر، ومن بليتها على حذر، ومن المنية على يقين.

فلو كان الخالق تبارك وتعالى لم يخبر عنها بخبر، ولم يضرب لها مثلًا، ولم يأمر فيها بزهد، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء عن الله ﷻ منها زاجر وفيها واعظ: فما لها عنده قدر، ولا وزن من الصغر... فلهي عنده أصغر من حصاة في الحصى، ومن مقدار نواة في النوى... ما خلق الله ﷻ، فيما بلغنا، أبغض إلى الله تعالى منها، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ بمفاتحها وخزائنها، ولا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وما منعه من القبول لها -مع ما لا ينقصه الله شيئًا مما عنده كما وعده- إلا أنه علم أن الله ﷻ أبغض شيئًا فأبغضه وصغر شيئًا فصغره. ولو قبلها كان الدليل على محبته قبوله إياها، ولكنه كره أن يخالف أمره، أو يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه...

ولا تأمن أن يكون هذا الكلام حجة عليك. نفعنا الله وإياك بالموعظة، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

صفة الإمام العادل

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب إلى الحسن البصري يطلب منه أن يكتب إليه بصفة الإمام (الحاكم) العادل، فكتب إليه الحسن يقول:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد (هداية) كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل مظلوم، ونصفة (إنصاف) كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف...

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالراعي الشفيق على إبله الرقيق: يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر (البرد)...

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين: الأب الحاني على ولده: يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته...

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلًا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته...

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم...

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده...

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده: يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم...

فلا تكن، يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله...

واعلم، يا أمير المؤمنين، أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث، فكيف إذا أتاها من يليها؟... إن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت فيه: يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه...

واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور... فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل.

لا تحكم، يا أمير المؤمنين، في عباد الله، بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا (عهدًا) ولا ذمة... فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالًا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك: ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك...

لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا، وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين... وقد عنت (خضعت) الوجوه للحي القيوم..

إني يا أمير المؤمنين -وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولوا النهي من قبلي- فلم آلك (لم أقصر) شفقة ونصحًا. فأنزل كتابي إليك كالمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لما

يرجو له في ذلك من العافية والصحة... والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

مع رجل

وأتى رجل إلى عمر بن عبد العزيز، بعد موت سليمان بن عبد الملك، فقال لعمر: «ارض بقضاء الله، وسلم لأمره، وارج ما عنده، فإن عند الله الخير الدائم، والعوض من المصائب... انظر إلى الذي كنت تخشاه على سليمان فاخشه على نفسك».

ثم قام الرجل، فقال عمر: «علي به» فلما جاءه، قال عمر: «لأي شيء قلت هذا؟».

قال الرجل: «إن أمنتني حدثتك».

قال عمر: «أنت آمن».

قال الرجل: «رأيتك بالمدينة تذيل إزارك (تجعل له ذيلًا)، وترخي شعرك، وتعصف ريحك (تنتشر عطورك)... فكنت أعجب كيف يدعك الله في سكان أرضه، فلما جاءت حالتك هذه، رأيت عليّ من الحق تعزيتك وأداء حقك!».

فقال له عمر: «يا أخي، إن كنت مقيمًا معنا بأرضنا فتعاهدنا (لا تنسنا بمواعظك)، وإن خرجت ففي حفظ الله!».

* * *

وكما كان عمر بن عبد العزيز يتطلب العظة والنصيحة من الفقهاء والحكماء والزهاد، كان يتطلب مثل ذلك من الشعراء، ولقد قال للشاعر الحكيم «سابق البربري»: «عظني يا سابق وأوجز». فقال سابق: «نعم يا أمير المؤمنين، وأبلغ إن شاء

الله تعالى». قال عمر: «هات»، فأنشد سابق:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ووافيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون شريكه ... وأرصدت قبل الموت ما كان أرصدا

ووعظ سابق عمر بن عبد العزيز بقصيدة طويلة قال فيها:

بسم الذي أنزلت من عنده السور ... والحمد لله. أما بعد يا عمر:
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر، قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المجلوب، وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يسر به ... إلا سيتبع يومًا صفوه كدر
واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عميت، فقد يجلو العمى الخبر
قد يرعوي المرء يومًا بعد هفوته ... وتحكم الجاهل الأيام والغير
إن التقى خير زاد أنت حامله ... والبر أفضل شيء ناله بشر
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب الحق قد يهدى له الظفر
وفي الهدى عبر تشفى القلوب بها ... كالغيث ينضر عن وسميه الشجر
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصر
والرشد نافلة تهدى لصاحبها ... والغي يكره منه الورد والصدر
قد يوبق المرء أمر وهو يحقره ... والشيء يا نفس ينمو وهو يحتقر
لا يشبع النفس شيء حين تحرزه ... ولا يزال لها في غيره وطر
ولا تزال، وإن كانت لها سعة، ... لها، إلى الشيء لم تظفر به، نظر
وكل شيء له حال تغيره ... كما تغير لون اللمة الغبر
والذكر فيه حياة للقلوب، كما ... يحيى البلاد -إذا ما ماتت- المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلي سواد الظلمة القمر

لا ينفع الذكر قلبًا قاسيًا أبدًا ... وهل يلين لقول الواعظ الحجر؟
والموت جسر لمن يمشي على قدم ... إلى الأمور التي تُخشى وتُنتظر
فهم يمرون أفواجًا، وتجمعهم ... دار إليها صَيْر البدو والحضر
من كان في معقل للحرز أسلمه ... أو كان في خمر لم ينفع الخمر
حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف ... في الحد مني إلى لذاتها صعر
ولا أرى أثرًا للذكر في خلدي ... والماء في الحجر القاسي له أثر
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي ... كما يؤرقني للعاجل السهر
إذن لداويت قلبًا قد أضر به ... طول السقام، ووهن العظم ينجبر
ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت ... يومًا على نقضه الروحات والبكر
والمرء يصعد ريعان الشباب به ... وكل مصعدة يومًا ستنحدر
وكل بيت خراب بعد جدته ... ومن وراء الشباب الموت والكبر
بينا يرى الغصن لدنا في أرومته ... ريان، أضحى حطامًا جوفه نخر
كم من جميع أشت الدهر شملهم ... وكل شمل جميع سوف ينتشر
ورب أصيد سامي الطرف معتصب ... بالتاج، نيرانه بالحرب تستعر
بظل مفترش الديباج محتجبًا ... عليه تبنى قباب الملك والحجر
قد غادرته المنايا وهو مستلب ... مجندل، ترب الخدين، منعفر
أبعد آدم ترجون البقاء؟ وهل ... تبقى فروع لأصل حين ينقعر؟
لهم بيوت بمستن السيول، وهل ... يبقى على الماء بيت أسه مدر؟
إلى الفناء وإن طالت سلامتهم ... مصير كل بني أنثى وإن كثروا
إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت ... وفي تدبرها التبيان والعبر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفر منها أتى سفر

لها حلاوة عيش غير دائمة　　وفي العواقب منها المر والصبر
إذا انقضت زمر آجالها نزلت　　على منازلها من بعدها زمر
وليس يزجركم ما توعظون به　　والبهم يزجرها الراعي فتنزجر
أصبحتم جزرًا للموت يقبضكم　　كما البهائم في الدنيا لها جزر
لا تبطروا، واهجروا الدنيا فإن لها　　غبًّا وخيمًا، وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالألي كانوا لكم غزرًا　　وليس من أمة إلا لها غرر
حتى تكونوا على منهاج أولكم　　وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
ما لي أرى الناس -والدنيا مولية　　وكل حبل عليها سوف ينبتر-
لا يشعرون بما في دينهم نقصوا　　جهلًا، وإن نقصت دنياهم شعروا!

* * *

وهكذا ترى عمر حريصًا على طلب الموعظة كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وليس معنى هذا أنه كان لا يحسن الموعظة... بل العجيب أن الذي يحرص على تطلب الموعظة من غيره هذا الحرص، كان يعظ غيره فيجيد الموعظة ويحسنها، حتى يكون تأثيرها عميقًا بليغًا.

ولقد كتب إليه أحد عماله يشكو إليه أمرًا، فرد عليه عمر واعظًا فقال:

«يا أخي، أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء».

فلما قرأ العامل الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر. فقال له: «ما أقدمك؟»، قال: «خلعت قلبي بكتابك... لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تعالى».

ووعظ عمر عنبسة بن سعيد قال: «يا عنبسة، أكثر ذكر الموت، فإنك لا تكون في ضيق من أمر معيشتك فتذكر الموت، إلا وسع ذلك عليك».

ووعظ عمر أبا الجودي فقال له: «يا أبا الجودي، اغتنم الدمعة تسيلها على خدك لله».

ولقد حج سليمان بن عبد الملك، ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرف على عقبة عسفان نظر سليمان إلى عسكره، فأعجبه ما رأى من ضخامته وكبره، فالتفت إلى عمر وقال: «كيف ترى ما هاهنا يا عمر؟».

قال: «أرى يا أمير المؤمنين دنيا يأكل بعضها بعضًا... أنت المسئول عنها، والمأخوذ بها!».

فطار غراب من حجرة سليمان ينعب، في منقاره كسرة، فقال سليمان: «ما ترى هذا الغراب يقول؟».

قال عمر: «أظنه يقول: من أين دخلت هذه الكسرة، وكيف خرجت؟!»

قال سليمان: «لتجيء بالعجب يا عمر!».

قال عمر:

«إن أردت أن أخبرك بأعجب من هذا، أخبرتك!».

قال: «فأخبرني».

قال عمر: «من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها».

قال سليمان: «غششت علينا ما نحن فيه يا عمر»... وضرب دابته وسار.

وقال عمر لرجل يعظه: «أوصيك بتقوى الله، فإنها ذخيرة الفائزين وحرز المؤمنين، وإياك والدنيا أن تفتنك، فإنها قد فعلت ذلك بمن كان قبلك... إنها تغر المطمئن إليها، وتفجع الواثق بها، وتسلم الحريص عليها، ولا تبقى لمن استبقاها، ولا تدفع التلف عمن حواها، لها مناظر بهجة: ما قدمت منها أمامك لم يسبقك، وما أخرت منها خلفك لم يلحقك!».

وقال عمر لجعونة بن الحارث: «أتدري ما يحب أهلك منك؟». قال: «نعم، يحبون صلاحي».

قال عمر: «لا. ولكنهم يحبون ما قام لهم من سوادك، وأكلوا من غمارك، وتزودوا على ظهرك... فاتق الله، ولا تطعمهم إلا طيبًا».

وقال لميمون بن مهران: «يا ميمون، احفظ على أربع خصال: لا تجالس أميرًا وإن أمرته بمعروف ونهيته عن منكر، ولا تخلون بامرأة غير ذات محرم وإن حدثتك نفسك أنك تعلمها القرآن، وإياك وما يعتذر منه، ولا تقبل المعروف ممن لا يصطنعه إلى أهل بيته».

وقال رجل لعمر: «عظني»، فأجابه: «أوصيك بتقوى الله وإيثاره، تخف عليك المئونة، وتحسن لك من الله المعونة».

كلمات عُمَرِيّة

البيان ترجمان الإنسان، وكذا صفا البيان وعلا، دل على مكانة صاحبه الرفيعة من الفهم والتفكير، والذوق والحكمة. وأغلب أصحاب الدعوات والرسالات، والأدوار البارزة في التاريخ، يكونون أصحاب بيان وتعبير بليغ. والأمة العربية أمة معروفة منذ أقدم عصورها باللسن والبيان، وروعة الأسلوب وبلاغة التعبير، ولذلك تحداها الإسلام بالقرآن لأنه من جنس البيان، وإن علا على كل بيان، وكان هذا القرآن نفسه سببًا جوهريًّا من أسباب إشراق البيان عند أبنائه.

وعمر بن عبد العزيز رجل صاحب موهبة في عقله وذوقه ورُوحه، وهو أيضًا عربي تجري في عروقه دماء تلك اللغة العربية المبينة، فلا عجب إذا رأيناه يعبر التعبير الخلاب، أو يصوغ البيان المشرق، أو يرسل الكلمة الوجيزة الجامعة، كما لا عجب إذا رأيناه يسمع من بعض الناس كلامًا جميلًا، فيعلق عليه بقوله: هذا هو السحر الحلال.

ثم إنه رجل ارتشف ما استطاع من رحيق القرآن، وعكف عليه حافظًا أو تاليًا أو متدبرًا. وهذا العكوف قد هيأ لعمر مددًا أي مدد من حسن البيان وروعة الأسلوب.

وها نحن أولاء نتتبع أخبار عمر فنجد خلالها طائفة من الكلمات العمرية الجامعة المشرقة، التي لا تخلو من حكمة، أو عظة، أو توجيه. وقد يكون من باب الخير أن نستعرض هذه الطائفة من الكلمات متتابعة، فنتعرف إلى جانب من جوانب الشخصية العمرية عن طريق هذه الشخصية نفسها، ومن لسانها ذاته، فلعل ذلك أجدى من التعليق عليها أو التعرض لها بتبيان.

من كلمات عمر الجامعة هذه الكلمات:

* من أدخله بطنه النار فأبعده الله.

* إنه ليمنعني من كثرة الكلام مخافة المباهاة.

* إن الرجل ليظلم المظلمة، فلا يزال المظلوم يشتم الظالم ويتنقصه، حتى يستوفي حقه، ويكون للظالم عليه الفضل.

* نال رجل من عمر، فقيل لعمر: ما يمنعك منه؟ فقال: إن التقي ملجم.

* أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس.

* من لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه.

* الرضا قليل، والصبر معول المؤمن.

* ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها.

* القلوب أوعية السرائر، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل منكم مفتاح وعاء سره.

* إذا وافق الحق الهوى فهو ألذ من الشهد.

* ما وجدت في إمارتي هذه شيئًا ألذ من حق وافق هواي.

* إن الله لا يطالب بما قضى وقدر، وإنما يطالب بما نهى وأمر.

* خصلتان لا تعدمانك من الجاهل: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب.

* إن خصلتين خيرهما الكذب لخصلتا سوء. ذكر الميداني في «مجمع الأمثال» أن هذا المثل يروى عن عمر بن عبد العزيز، وهو يضرب للرجل يعتذر من شيء فعله بالكذب، وهذا كقولهم: عذره أشد من جرمه.

* إن لكل سفر زاد لا محالة.

* ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم.

* قيدوا نعمة الله بالشكر لله ﷻ.

* ذكر النعم شكر.

* لا ينفع القلب إلا ما خرج من القلب.

* يا معشر المستترين، اعلموا أن عند الله مائة فاضحة، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

* الكلام بذكر الله ﷻ حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة.

* ليس تقوى الله بصيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرًا فهو خير إلى خير.

* معادن التقوى قلوب المؤمنين، وخير معادنها أتقاها لله ﷻ، وأتقاها لله أحسنها عقلًا.

* من أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير. ومن علم أن كلامه من عمله، أقل منه إلا فيما ينفعه.

* إنما خلقتم للأبد، ولكن من دار إلى دار تُنقلون.

* إن من أحب الأمور إلى الله القصد في النجدة، والعفو عند المقدرة، والرفق في الولاية. وما رفق عبد الله بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة.

* إنما يراد الطبيب للوجع الشديد: ألا فلا وجع أشد من الجهل، ولا داء أخبث من الذنوب، ولا خوف أخوف من الموت.

* بؤسًا لمن كان بطنه أكبر همه.

* أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك.

* اتقوا الله، وإياكم والمزاحة، فإنها تورث الضغينة وتجر القبيحة. تحدثوا بالقرآن، وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم فحديثٌ حسن من حديث الرجال.

* إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس، فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة.

* لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه، ويكمل الذي خُلق له من عبادة ربه... إذن لتواكل الناس الخير، وإذن لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض.

* إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة. فإذا المعاصي ظهرت فلم يغيروا، أخذت العامة والخاصة.

* إن في القول فتنة، والفعال أولى بالمرء من القول.

* إذا جاءك الخصم وعينه في كفه، فلا تقض حتى يجيئك خصمه.

* من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

* قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع.

* احذروا المراء فإنه لا تؤمن فتنته، ولا تفهم حكمته.

* الفقه الأكبر: القناعة وكف الأذى.

* ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

* إن تقوى الله خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله ﷻ خلف.

* أصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم.

* من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له.

* إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي، فلا تكوينه أبدًا.

* من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل.

* إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة.

* ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئًا.

* قرة عين الملوك: في استفاضة الأمن في البلاد، وظهور مودة الرعية لهم، وحسن ثنائها عليهم.

* الزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون.

* إذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك في نفاذ ما يأتي إليهم، وبقاء ما يؤتى إليك.

* اعمل للدنيا على قدر مقامك فيها، واعمل للآخرة على قدر مقامك فيها.

* ادرءوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في العقوبة.

* الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني.

* لكل عمل ثواب.

* ما أعطيت أحدًا مالًا إلا وأنا أستقله، وإني لأستحيي من الله ﷻ أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل.

* إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، وهي لنا اليوم رشوة.

* لؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه.

* اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يومًا دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي.

* إن لي عقلًا أخاف أن يعذبني الله عليه.

* ما يسرني أن تخفف عني سكرات الموت، لأنها آخر ما يؤجر عليه المسلم.

* رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

* أعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور يخالف محبة الله ﷻ.

* ما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرني أني على غيرها.

* خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض.

* إن لي نفسًا تواقة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة (يعني الخلافة).. وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة.

* إن للإسلام حدودًا وشرائع وسننًا: فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان. فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

* ما ازددت علمًا بالولاية إلا ازددت لها مخافة، ومنها وجلًا، ولها إعظامًا، حتى قدر الله لي منها وقدر على ما قدر، فأنا أشد ما كنت لها استثقالًا.

* الكذاب لا ينفع خبره وإن صدق في بعضه، وإن الغاش عين عليك وليس بعين لك.

* ما لي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء.

* من لم يصلحه إلا الغشم (الظلم) فلا يصلح... والله لا أصلح الناس بهلاك ديني.

* إن استطعت أن تكون في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان قبلك في الظلم والجور والعدوان فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* اتق الصرعة عند الغفلة، فلا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، وتترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتنقلب إلى من لا يعذرك.

* إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، قال لم تستطع فأحبهم (يعني العلماء)، فإن لم تستطع فلا تبغضهم.

* إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم.

* نعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو يجعلنا مداهنين للظالمين.

* تعلموا العلم فإنه زين للغني، وعون للفقير... لا أقول إنه يطلب به، ولكنه يدعو إلى القناعة.

* لا تجالس ذا هوى فيلقي في نفسك شيئًا يسخط الله به عليك.

* لا تصلن عاقًّا، فإنه لن يصلك وقد قطع أباه.

* إياك وما يعتذر منه، ولا تقبل المعروف ممن لا يصطنعه إلى أهل بيته.

* إني أذكرك ليلة تمخض بالساعة، فصباحها القيامة... يا لها من ليلة! ويا له من صباح كان على الكافرين عسيرًا!

* كفى بالقدر حاجزًا، وبالأجل حارسًا.

* اغتنم كل يوم وليلة مضت عليك وأنت سالم.

* لا إذن على مظلوم دوني، وأنا معول كل مظلوم.

* من رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الكتاب تقطعت من يده أسباب الهدى، ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى.

* ما تركت من الدنيا شيئًا إلا أعقبني ما هو أفضل، وما أنعم الله عليّ في ديني أفضل!

* إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني، وإني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلا قليلًا حتى أسقط ويسقطوا، وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي.

* اتق الله فيمن وليت أمره، ولا تأمن مكره في تأخير عوبته، فإنه إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت.

* استغنوا بما أحل الله عما حرم.

* لولا سنة أحييها، أو بدعة أميتها، لما باليت أن لا أعيش فواقًا.

* أقسم لكم بالله لو كنتم أبكاري من أولادي، فوليتم عما أدعوكم إليه من الحق، لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة.

* أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم!

* لا ينال سلام الله الظالمين.

* اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت.

* إن من لا يذكر من آبائه -فيما بينه وبين آدم عليه السلام- أبا حيًّا، لمعرق في الموت.

* لو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي، ببضعة من لحمي، حتى يأتي آخرها على نفسي، كان في الله يسيرًا.

* إنه والله ما من أحد من خلق الله له طاعة في معصية.

* حسبك من شر صحبة يوم أو بعض يوم.

* لا تطلبن شيئًا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك، ويزري بدينك، ويمقتك عليه ربك.

* إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك.

* إن ابتلاك الله بالغني فاقتصد في غناك، وضع لله نفسك، وأد لله ﷻ فرائض حقه من مالك، وقل عند ذلك كما قال العبد الصالح: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

* يا أخي، أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء.

* كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره.

* اخفض من صوتك. فإنما يكفي الرجل من الكلام قدر ما يسمع.

* وتطاول على عمر -وهو خليفة- رجل، فقال له عمر: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا... ثم أعرض وعفا عنه.

* وَيْلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش.

* ما أعطى الله عبدًا عطاء فأخذه منه فغاضه الصبر إلا كان أعطاه خيرًا مما أخذ منه.

* إنما هلك من كان قبلك بحبهم الحق حتى يشترى منهم، وبسطهم الظلم حتى يفتدى منهم.

* أوصيك بتقوى الله وإيثاره، تخف عليك المئونة، وتحسن لك من الله المعونة!

* أنتم فروعُ أصولٍ قد مضت. فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله!

* إن غدًا آت بما فيه، وأين يهرب من يتقلب في يد طالبه؟ إنه لا أقوى من طالب. ولا أضعف من مطلوب.

* نستغفر الله لسيئ أعمالنا، ونعوذ به من مقته إيانا على ما نعظ به مما نقصر عنه!

* إنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه بالعاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم.

* إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني أريد أن أحيي الأمور من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعًا من طمع الدنيا فينفروا لهذه، ويسكنوا لهذه.

* والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يراق في سببي محجمة دم.

* اعلم أن أحدًا لا يستطيع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يبقى منها شيء، لا بد أن تستأخر قضايا ليوم الحساب!

* اللهم ارزقني عقلًا ينفعني، واجعل ما أصير إليه أهم مما يزول عني.

* ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار.

* والله لوددت ألا تبقى في الأرض مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه، ثم يعود كما كان حيًّا... فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سالت نفسي عندها.

* لولا الإسلام ما أمنا.

* إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلًا، فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

* ما بسط أمل لمن لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه... وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا.

* اتقوا الله، وأجملوا في الطلب.

* ما قرن شيء إلى شيء أحسن من علم إلى علم، ومن عفو إلى مقدرة.

* إن استجهلت فتثبت.

* لا تكونوا لعداوة أحد من الناس، أحذر منكم لذنوبكم.

* لا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل أرض الصلح.

* تذكر ما سلف منك من عملك فيما سلف مما لا تحب، فأصلحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك.

* نرى ألا يتجر إمام، ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه... فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصب أمورًا فيها عنت، وإن حرص على ألا يفعل.

* الدنيا عدوة أولياء الله وأعدائه: أما أولياء الله فغمتهم، وأما أعداء الله فغرتهم.

* إنكم لم تُخلقوا عبثًا، ولم تُتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه ليحكم بين الناس، ويفصل بينهم... فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرم جنة عرضها السموات والأرض.

* لا يأمن غدًا إلا من حذر الله وخافه، وباع ناقدًا بباق، وقليلًا بكثير، وخوفًا بأمان.

* البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله... من أحيا أرضًا ميتة فهي له.

* كتاب الله أحق أن يتبع.

* إذا شككت في الشيء فدعه.

* والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئًا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم، خوفًا من أن ينخرق عليّ منهم ما لا طاقة لي به.

* المغبون في الدنيا والآخرة من اجتمع له مال قليل أو كثير ثم لم يكن له منه شيء.

* الرضا قليل، والصبر معقل المؤمن.

* لأن ينجو رجل بموعظتك من هلكة، خير من أن ينجو بصدقتك من فقر.

* لم يجعل المفتاح على الباب لكي يغلق فلا يفتح، أو ليفتح فلا يغلق... ولكن ليغلق في حينه، ويفتح في حينه.

* ما يرد على نفسي من نفس أن أنا قتلتها؟ فلو كان لي نفسان فأغدر بإحداهما وأمسك الأخرى.

* ما من كتاب أيسر عليّ ردًّا من كتاب قضيت به ثم أبصرت أن الحق في غيره.

* ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم.

* يا بني، إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملًا من الخير.

* فلتجف يداك من دماء المسلمين، وبطنك من أموالهم، ولسانك من أعراضهم... فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل: «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم».

* لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من الدنيا بشيء أبدًا حتى أعلم ما في وجوه رسل ربي إلى عند الموت، وما أحب أن يهون علي الموت، لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن.

* إن العلم والعمل في بيان... فكن عالمًا بالله عاملًا له، فإن أقوامًا علموا ولم يعملوا، فكان علمهم عليهم وبالًا.

* متى أشفي غيظي؟ أحين أقدر فيقال لي: لو عفوت؟ أو حين أعجز فيقال لي: لو صبرت؟!

* كنا نحن وبنو عمنا بنو هاشم: مرة لنا ومرة علينا، نلجأ إليهم ويلجئون إلينا... حتى طلعت شمس الرسالة، فأكدت كل نافق، وأخرست كل منافق، وأسكتت كل ناطق.

* استعملنا أقوامًا كنا نرى أنهم أبرار أخيار، فلما استعملناهم إذا هم يعملون عمل الفجار... قتلهم الله، أما كانوا يمشون على القبور؟

* إن في القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم.

* كأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل، وكأن ما هو كائن قد كان.

حرص عمر على مال الدولة

لا يكون الحاكم رشيدًا عادلًا، إلا إذا كان على مال الدولة حريصًا، وعلى حقوقها أمينًا... لأن من يسرق مال الأمة، أو يضيع حقًّا من حقوقها، أو يغتالها في قليل أو كثير مما لها، لا يكون راعيًا لها ولا جديرًا بقيادتها، بل يكون عدوها، والجدير بلعنها وطردها.

وعمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليه، قد ضرب المثل الأعلى في الحرص على مال الدولة، والسهر على حقوقها. وخير مقياس تقيس به أمانة الحاكم وعدالته ونزاهته واستقامته، هو أن تقارن بين حاله قبل الحكم وحاله في أثنائه أو بعده... فإن كان قد امتلأ في الحكم بعد خلو، وأثري بعد فقر، واتسع في دنياه بعد ضيق، فقد فتح على نفسه أبواب الظن السيئ من الناس. وإذا كان لم تتغير حاله، فهو على خير. وإن كان قد قل ماله بعد الحكم، فذلك أفضل وأنبل.

وهذا هو ابن عبد العزيز، مَنْ جده الفاروق رضوان الله عليهما، كان يتقلب في مطارف العز وميادين الغنى، ومجالات الثروة... فلما تولى الخلافة، افتقر بعد غنى، وزهد بعد تمتع، وتقشف بعد تنعم. ومات يوم مات، ولم يترك من المال ما يستحق اسم ثروة أو ميراث، فقد ترك واحدًا وعشرين دينارًا، وفي رواية: أنه ترك أربعة عشر دينارًا، وترك من الغلة غلة ستمائة دينار، وترك من أولاده الذكور اثني عشر ولدًا، ومن بناته ست بنات!!

وروي أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: «عظني».

قال عبد الرحمن: «بما رأيت أو بما سمعت؟».

قال المنصور: «بما رأيت».

قال عبد الرحمن: «مات عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخلف أحد عشر ابنًا، وبلغت تركته سبعة عشر دينارًا: كفن منها بخمسة دنانير، واشترى له موضع قبر بدينارين، وقسم الباقي بين بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهمًا.

«ومات هشام بن عبد الملك، وخلف أحد عشر ابنًا. فقسمت تركته، وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف.

ورأيت رجلًا من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلًا من ولد هشام يتصدق الناس عليه!!».

* * *

وقد بدأ حرص عمر بن عبد العزيز على مال الدولة منذ اليوم الأول الذي أسندت إليه فيه الخلافة، فما كاد ينتهي من دفن سليمان بن عبد الملك الخليفة السابق عليه، حتى قربوا إليه مراكب الخلافة الفخمة المطهمة، فدهش عمر لها وسأل عنها: «ما هذه؟». فقالوا: «هذه مراكب الخلافة، لم تُركب قط من قبل، يركبها الخليفة أول ما يلي».

فأعرض عنها وقال: «بغلتي تكفيني!». ثم التفت إلى مزاحم مولاه، وقال: «يا مزاحم، ضم هذه إلى بيت مال المسلمين!!».

ثم نصبوا له سرادقات وحجرًا لم يجلس فيها أحد قط، وكانت تضرب للخلفاء أول ولايتهم. فقال: «ما هذه؟».قالوا: «إنها سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلي».

فقال لمزاحم: «يا مزاحم، ضم هذا لأموال المسلمين».

ورأى عمر الطنافس والفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط، يفرش للخلفاء في بدء ولايتهم، فجعل يدفع هذا كله برجله حتى بلغ الحصير، ثم قال لمزاحم: «يا مزاحم، ضم هذا إلى أموال المسلمين».

وانتهز أولاد سليمان بن عبد الملك الفرصة، فجعلوا يفتحون كثيرًا من القوارير والزجاجات المليئة بالعطور والأدهان والطيب، وجعلوا يلبسون عددًا كبيرًا من الملابس الكثيرة الجديدة الموجودة في دار الخلافة...

أتدري السر في ذلك؟

لقد كانت العادة جارية بأنه إذا مات الخليفة فما مس من الطيب أو استعمل من الثياب -أيّ مس، وأيّ استعمال- فهو لولده، وما لم يمس أو يلبس فهو للخليفة من بعده.

وجاء أولاد سليمان يقولون لعمر عن العطور والثياب: «هذا لك، وهذا لنا»... وأشاروا إلى ما لم يستعملوا وما استعملوا، فعجب عمر من كلامهم، وكأنه لم يفهم، فقال لهم مسائلًا: «وما هذا، وما ذاك؟».

قالوا: «هذا ما لم يمس الخليفة من الطيب والثياب، فهو للخليفة من بعده، وهذا مما لبس الخليفة من الثياب، ومس من الطيب، فهو لأولاده!».

فقال عمر: «كل هذا ليس لي، ولا لسليمان، ولا لكم... وإنما هو جميعه مال المسلمين!». ثم التفت عمر إلى مزاحم قائلًا: «يا مزاحم، ضم هذا إلى بيت مال المسلمين!!».

هنا دهش القوم، وأراد الراتعون من قبل في مراتع الاستغلال والاغتيال للأموال أن يتآمروا عليه، وأن يحتالوا للتأثير فيه، فقال بعضهم لبعض:

«أما المراكب والسرادقات والحجر واللباس والزينة ومتاع البيت والوطاء، فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم، وبقيت خصلة، وهي الجواري، نعرضهن عليه، فعسى أن يكون ما تريدون فيهن... فإن كان، وإلا فلا طمع لكم عنده!».

وجاءوا بالجواري، وعرضوهن أمامه كأمثال الدمى. فلما نظر عمر إليهن، جعل يسألهن واحدة واحدة: «من أنتِ؟ ولمن كنتِ؟ ومن بعث بكِ؟».

فتخبره الجارية بأصلها، ولمن كانت، وكيف أخذوها... فأمر عمر بردهن إلى أهليهن ويحملهن إلى بلادهن، حتى فرغ منهن.

فلما رأوا ذلك يئسوا منه، وعلموا أنه مصر على حمل الناس على طريق الحق والعدل.

* * *

وكأنما سعت الجموع من هنا وهناك، حينما سمعت بخلافة عمر، والكثير منها طامع وراغب: فهذا يُدلّ بقرابة، وهذا يمت بصداقة، وذلك يدلي بشفاعة، وكأنما أراد عمر أن يشرح لهم مبلغ حرصه على الأمانة، وعلى حقوق المسلمين، وعلى أموال الرعية، وعلى العدل المطلق في حكمه، فقال لهم:

«من أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، ويدلنا من العدل على ما لا نهتدي إليه، ويكون عونًا لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس، ولا يغتب عندنا أحدًا. ومن لم يفعل، فهو في حرج من صحبتنا

والدخول علينا».

وبدأ عمر فطبق مبدأ «الحرص على مال الدولة» على نفسه وأهل بيته وذوي قرابته قبل الناس.

كانت في أيديه قطائع ورثها عن آبائه، وهو يغلب على ظنه أنها أموال مغصوبة، فخرج عنها، وردها إلى أموال المسلمين... رد قطائعه الموجودة في «المكيدس» و«جبل الورس» و«فدك»، ورد قطائع كانت باليمامة، ولم يترك بيده إلا عينًا بالسويداء كان قد استنبطها بعطائه، فهي ليست من قبيل القطائع الأخرى.

وقال لامرأته فاطمة بنت الخلائف، وأخت الخلائف -وكان عندها جواهر كثيرة لا مثيل لها أعطاها لها أبوها عبد الملك- قال لها عمر: «اختاري: إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك... فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد».

فقالت له: «لا، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي».

فأمر به عمر فحملوه حتى وضعوه في بيت مال المسلمين. فلما مات عمر، وتولى الخلافة يزيد أخو فاطمة قال لها: «إن شئت رددته عليك». فقالت: «إني لا أشاؤه... طبت عنه نفسًا في حياة عمر، وأرجع فيه بعد موته؟ لا والله أبدًا!». فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده.

وأقدم عمر فأخذ القطائع من أيدي قرابته وردها إلى أموال المسلمين، ومنعهم الامتيازات التي أجراها عليهم الخلفاء من قبله... فهاجوا وماجوا، ولكنه لم يأبه لهم.

واجتمع بنو مروان على باب عمر، وجاء ابنه عبد الملك ليدخل عليه، فقالوا له: «إما أن تستأذن لنا، وإما أن تبلغ عنا الرسالة».

قال لهم: «قولوا». فقالوا: «إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا، ويعرف لنا مواضعنا... وإن أباك قد حرمنا ما في يده».

فدخل إلى أبيه وأخبره عنهم، فقال له عمر: «قل لهم: إن أبي يقول لكم: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم!».

وبعثوا إليه بهشام بن عبد الملك فقال لعمر:

«يا أمير المؤمنين، إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به... إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك، وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم».

فقال له عمر: «أرأيت إن أتيت بسجلين: أحدهما من معاوية، والآخر من عبد الملك بأمر واحد، فبأي السجلين آخذ؟». قال هشام: «تأخذ بالأقدم». فقال عمر: «فإني وجدت كتاب الله هو الأقدم، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني».

وكان سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان حاضرًا، فقال عمر: «يا أمير المؤمنين، امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل، وخل عمن سبقك وعما ولي خيره وشره... فإنك مكتف بذلك».

فقال له عمر: «أنشدك الله الذي إليه نعود، أرأيت لو أن رجلًا هلك وترك بنين صغارًا وكبارًا، فعز (أي غلب) الأكابرُ الأصاغرَ بقوتهم، فأكلوا أموالهم، فأدركك الأصاغر، فجاءوك بهم، وبما صنعوا في أموالهم... ما كنت صانعًا؟».

قال: «كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها».

قال عمر: «فإني وجدت كثيرًا ممن قبلي من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم، وعزهم بهم أتباعهم فلما وليت أتوني بذلك، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوي، وعلى المستضعف من الشريف».

فقال: «وفقك الله يا أمير المؤمنين!».

ثم تشفعوا لديه بعمته -وكانت ذات منزلة وكرامة- فلقيها عمر خير لقاء. فقالت له: «إن قرابتك يشكونك، ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك».

قال عمر: «ما منعتهم حقًّا أو شيئًا كان لهم». فقالت: «إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا». فقال لها: «كل يوم أخافه، دون يوم القيامة، فلا وقاني الله شره!».

وفي رواية أنه قال لها: «يا عمة، إن رسول الله ﷺ قبض، فترك الناس على نهر مورود: فولى ذلك النهر رجل، فلم يستنقص منه شيئًا، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر، فلم يستنقص منه شيئًا، ثم ولى بعد ذلك رجل آخر فكرى منه ساقية. ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي، حتى تركوه يابسًا ليس فيه قطرة... وايم الله لئن أبقاني الله، لأسكرن السواقي حتى أعيده إلى مجراه الأول!».

ولقد دخل عليه عنبسة بن سعيد بن العاص فقال:

«يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا منعتناها، ولي عيال وضيعة، أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي وما يصلح عيالي؟».

فقال عمر: «أحبكم إلينا من كفانا مئونته»، فخرج عنبسة. فلما وصل الباب، ناداه عمر فقال: «أبا خالد، أبا خالد». فرجع عنبسة، فقال له عمر: «أكثر ذكر الموت: فإن

كنت في ضيق من العيش وسعه عليك، وإن كنت في سعة من العيش ضيقه عليك!».

بل لم يبال عمر، في سبيل الحرص على مال الدولة، أن يكون المأخوذ منه هذا المال هو ابن الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك.

فقد قال ابن سليمان لمزاحم: «إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر» فاستأذن له. فلما لقي عمر قال له: «يا أمير المؤمنين، لم لا ترد على قطيعتي؟».

فقال عمر: «معاذ الله أن أرد قطيعة رسخت في الإسلام».

فأخرج ابن سليمان كتابًا من كمه، وقدمه إلى عمر قائلًا: «هذا كتابي».

فقرأ عمر الكتاب، ثم قال: «لمن كانت هذه الأرض؟».

قال ابن سليمان: «للفاسق بن الحجاج».

قال عمر: «فهو أولى بماله».

قال: «يا أمير المؤمنين، فإنها من بيت مال المسلمين».

قال عمر: «فالمسلمون أولى بها».

قال ابن سليمان: «يا أمير المؤمنين، فرد عليّ كتابي».

قال عمر: «لو لم تأتني به لم أسألكه... أما إذ جئتني به، فلا ندعك تطالب بباطل!!».

وإذا كان هذا هو موقفه الصارم مع ابن سليمان، فلا عجب ولا غرابة إذا كان عمر يقف من عنبسة بن سعيد الموقف التالي:

فقد كان سليمان بن عبد الملك أمر لعنبسة بعشرين ألف دينار، ودار الأمر في

الدواوين لتنفيذه، حتى تمت خطوات التنفيذ، وبلغ الأمر ديوان الختم، ولم يبق إلا قبضها، فتوفي سليمان ابن عبد الملك قبل أن يقبض عنبسة المال...

وكان عنبسة صديقًا لعمر بن عبد العزيز، فدخل عليه يطمع منه في أن ينفذ أمر سليمان. قال له: «يا أمير المؤمنين، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار، حتى انتهت إلى ديوان الختم، ولم يبق إلا قبضها، فتوفي على ذلك... وأمير المؤمنين (يعني عمر) أولى باستتمام الصنيعة عندي، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان».

قال عمر: «كم ذلك؟».

قال عنبسة: «عشرون ألف دينار».

فقال عمر دهشًا: «عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من بيوت المسلمين، وأدفعها إلى رجل واحد؟ والله ما إلى ذلك سبيل!!».

ومن العجيب أن عنبسة احتفظ بهذا الكتاب حتى قبض هذا المال بعد موت عمر، قبضه من يزيد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد عمر.

* * *

ويجب أن تتذكر هنا ما رواه عبد الله بن دينار قال: «لم يرتزق عمر من بيت مال المسلمين شيئًا، ولم يرزأه حتى مات!!».

فلا غرابة بعد هذا أن نرى عمر يبالغ في الحرص على أموال المسلمين، فهو قد طبق المبدأ على نفسه وعلى أهله في أقسى صورة.

لقد دقق في إنفاق هذه الأموال، وحاسب عليها حسابًا دقيقًا. ولم يرتض الإسراف فيها، ولو لم أقل الأشياء، حتى بلغ من أمره في ذلك أن علم الولاة والعمال الاقتصاد حتى في حجم الخطابات التي يكتبونها، وفي غلظ سن القلم الذي يكتبون به... فلا داعي لأن يكون في ورقة الخطاب مكان خال دون استعمال، بل عليهم أن يجعلوا الورقة على قدر الكتابة، ولا داعي للإطناب والتطويل، بل الإيجاز خير لكيلا تستغرق الكتابة مساحة كبيرة من الورق. وإذا كتبوا فلتكن كتابتهم بقلم رفيع غير غليظ جليل!

حدث ميمون بن مهران قال: «ما زلت أنا وعمر بن عبد العزيز ننظر في أمور الناس، حتى قلت: يا أمير المؤمنين، ما بال هذه الطوامير التي يكتب فيها بالقلم الجليل، ويمد فيها وهي من بيت مال المسلمين؟... فكتب إلى العمال ألا يكتبن في طومار ولا يمد فيه. فكانت الكتب شبرًا أو نحو ذلك».

وكتب إلى عمر عامل من عماله يشكو إليه قلة القراطيس والورق، فأجابه:

«أدق قلمك، وأقل كلامك، تكتف بما قِبَلك من القراطيس!».

وكانت العادة، قبل عمر، أن الوالي على المدينة إذا خرج إلى المسجد ليلًا يوقد بين يديه شموع من بيت المال تنير الطريق، وتزين الموكب، وتظهر نوعًا من الأبهة. وكان في هذا الإيقاد لون من الإسراف، فلما تولى عمر أبطل هذا توفيرًا لمال بيت المسلمين.

ولقد كتب أبو بكر بن عمرو بن حزم إلى سليمان بن عبد الملك يرجوه أن يأذن له في شمع لهذا الغرض، وفي ورق ليكتب فيه. وشاءت الأقدار أن يصل الكتاب إلى دار الخلافة بعد موت سليمان واستخلاف عمر، فأجابه عمر بالكتاب التالي:

«أما بعد، فقد قرأت كتابك الذي كتبت به إلى سليمان بن عبد الملك، وكنت المبتلى

بالنظر فيه دونه، كتبت تسأله أن يقطع لك من الشمع مثل الذي كان يقطع لمن قبلك، وتذكر أن الشمع الذي قبلك قد نفد، ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك إلى مسجد رسول الله ﷺ في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء، ولعمري لأنت يومئذٍ خير منك اليوم، وكتبت تسأله أن يقطع لك شيئًا من القراطيس مثل الذي كان يقطع قبلك، فأدق قلمك، وقارب بين سطورك، واجمع حوائجك... فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين شيئًا لا ينتفعون به. والسلام».

وهذا وهب بن منبه؛ كان على بيت المال في اليمن، فضاع منه دينار، فكتب إلى عمر يقول له: «إني فقدت من بيت المسلمين دينارًا».

والدينار، في نظر الذين لا يقدرون التبعة العامة، مبلغ تافه زهيد، ولكنه في نظر عمر شيء كبير... فإذا هو يكتب إلى وهب يقول: «إني لا أتهم دينك ولا أمانتك، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك. وأنا حجيج المسلمين في أموالهم، ولأخسهم عليك أن تحلف. والسلام!».

* * *

وكان عمر يحذر الحذر كله أن يأخذ شيئًا من بيت المال، أو يختلط بماله شيء منه، أو ينتفع بأمر من أمور المسلمين لا حق له فيه.

بعث عمارة بن نسي مع أبي شيبان سلتين من الرطب -أول ما ظهر الرطب- إلى عمر، ولكن أبا شيبان حملهما على دواب البريد. فلما علم عمر بذلك، رفض أن يأكل منهما، وكلفه أن يبيعهما... فباعهما أبو شيبان لرجل من بني مروان بثمانية عشر درهمًا، وأمره عمر بأن يلقيها في بيت المال...

وبعد قليل أهدى الرجل المرواني السلتين إلى عمر، فوضع واحدة بين أيدي من حوله، فأكلوا منها، وأرسل الأخرى إلى زوجته.

واشتهى عمر يومًا عسلًا من عسل «سنير»، فأرسلت فاطمة إلى ابن معد يكرب - عامل هذا المكان- رسولًا يخبره أن أمير المؤمنين قد تشهى عسل «سنير»، فأرسل إليه بعسل كثير. فأسرع العامل بإرساله، وقدمته فاطمة إلى عمر قائلة: «هذا الذي تشهيت»، وكأنما أُلهم الله عمر ما كان، فقال لها:

«كأني بك يا فاطمة قد بعثت بعض مواليك إلى ابن معدي كرب فأمر بذلك العسل!!».

ثم أمر بالعسل فبيع في السوق، وأدخل ثمنه في بيت مال المسلمين، ثم كتب إلى ابن معدي كرب يقول له: «إن فاطمة بعثت إليك تخبرك أني تشهيت عسلًا من عسل سنير فبعثت إليها، وايم الله لئن عدت إلى مثلها، لا تعمل لي عملًا أبدًا، ولا أنظر إلى وجهك!!».

وذات مرة طلب من أهله أن يتأدم بعسل ولم يكن عندهم، ثم أحضروا له بعد ذلك عسلاً، فأكل منه فأعجبه، فقال لأهله: «من أين لكم هذا؟». قالت امرأته: «بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد فاشتراه لي». فأقسم عليها أن تحضر له جميع هذا العسل، فأحضرته، فباعه بثمن يزيد على ثمنه، وأعطاها ما دفعت فيه، وألقى بقية الثمن في بيت المال، وقال لها يلومها ويؤنبها:

«نصبت دواب المسلمين في شهوة عمر!!».

ولقد تكرر مجيء أشياء حملوها لعمر على دواب البريد، فأبى أن يقبلها.

وذات يوم أراد أن يستحم في ماء ساخن، ولم يكن عندهم ما يوقدون به على الماء ليسخن، فأرسلوا إلى القمقم بالماء إلى مطبخ المسلمين، وعلم عمر بذلك، فطلب صاحب المطبخ وأنبّه قائلًا: «قيل لك: هذا قمقم أمير المؤمنين، فأوقدت تحته؟». قال الرجل: «لا والله يا أمير المؤمنين، ما أوقدت تحته عودًا واحدًا، وإن هو إلا جمر لو تركته لخمد حتى يصير رمادًا». قال عمر: «بكم أخذت الحطب؟». قال الرجل: بكذا...قال عمر: «أدوا إليه ثمنه!».

وكان عمر يضم تفاحًا من تفاح الفيء، فجاء ابن صغير له فتناول تفاحة، فانتزعها عمر من فيه، فآلمه انتزاعها، وذهب إلى أمه باكيًا، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحًا. فلما رجع عمر وجد رائحة التفاح فقال لها: «يا فاطمة، هل أتيت شيئًا من هذا الفيء؟». قالت: «لا». وأخبرته بما فعلت. فقال لها: «والله لقد انتزعتها من ابني، وكأنما انتزعتها من قلبي... لكن كرهت أن أضيع نفسي من الله ﷻ بتفاحة من فيء المسلمين!».

وجيء ذات يوم بماء قد سخن في فحم الإمارة، فأبى أن يتوضأ منه!

وكان لعامة المسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم، وكان يحضرهم أحيانًا وهم يأكلون، فإذا دعوه لمشاركتهم في الطعام وألحوا عليه، وضع درهمين من صلب ماله في نفقة المطبخ وأكل!

وأخرجوا ذات يوم مسكًا من خزائن المسلمين، فوضعوه بين يدي عمر، فأمسك أنفه مخافة أن يشم ريحه. فقال له رجل من أصحابه. «ما ضرك يا أمير المؤمنين إن وجدت ريحه؟». قال عمر: «وهل ينتفع من هذا إلا بريحه؟!».

وجاءه رسول من بعض الجهات ليخبره عن حالها -وكان الوقت ليلًا- فدعا عمر بشمعة فأوقدت، وجلس الرسول وجلس عمر. فسأله عمر عن حال أهل البلد ومن فيها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة الوالي، وكيف الأسعار، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار، وأبناء السبيل والفقراء... وهل أعطي كل ذي حق حقه؟

فأنبأه الرسول بجميع ما علم... حتى إذا فرغ عمر من أسئلته، بدأ الرسول يسأل عمر فقال له: «يا أمير المؤمنين، كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك، ومن تعنى بشأنه؟».

وهنا نفخ عمر في الشمعة فأطفأها. ونادى: «يا غلام، علي بسراج». فأحضر فتيلة لا تكاد تضيء، فقال عمر: «سل عما أحببت». فسأله عن حاله، فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته.

فعجب الرسول من حادثة الشمعة، وأراد أن يعرف سرها، فقال لعمر: «يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلت أمرًا ما رأيتك فعلت مثله». قال: «وما هو؟». قال الرسول: «إطفاؤك الشمعة عند سؤالي لك عن حالك وشأنك». فقال عمر: «يا عبد الله، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشمعة تضيء بين يدي فيما يصلحهم... فلما صرت لشأن وأمر عيالي ونفسي، أطفأت نار المسلمين!».

وكان عند عمر كاتب يكتب وشمعة تزهر، وهو ينظر في أمور المسلمين، فخرج الرجل، فأطفأ عمر الشمعة، وجيء له بسراج آخر ليقضي على نور حاجات نفسه!

شعور عمر بالتبعة

إذا كان المرء مسئولًا عن نفسه، خف حمله وسهل ثقله. وإذا كان مسئولًا عن بيت أو أسرة أو جماعة من الناس، أخذ حمله في الازدياد، وأخذت تبعته في الاتساع. وتزداد التبعة اتساعًا بازدياد الذين يكون الإنسان مسئولًا عنهم.

ونستطيع أن تتابع هذا الازدياد باستعراض التبعات التي ينهض بها حاكم القرية، وحاكم الإقليم، وحاكم الدولة، وحاكم الاتحاد الذي يضم طائفة من الدول.

ولا يكون الحاكم عادلًا فاضلًا إلا إذا أحس في قرارة نفسه وأعماق قلبه بأنه، منذ ولي الحكم، قد صار مسئولًا عن كل فرد في دولته وجماعته، وأنه راع وهو مسئول عن رعيته، وأنه أول شخص بين جماعته ينهض بتبعاتها... فيسهر على أمرها، ويدأب في خيرها، ويرى سعادته في برها، وشقاءه في ضرها.

والحاكم العادل عمر بن عبد العزيز قد أحس بهذه التبعة أصدق الإحساس وأعمقه، وشعر بأنه مسئول أمام الله وأمام الناس عن كل فرد في رعيته منذ اليوم الأول الذي تولى فيه مقاليد الخلافة.

وهذا هو اليوم الأول في خلافة عمر... وهذه ساعات قلائل تمضي على مبايعة الناس له وتأكيدهم هذه المبايعة بالقول والعمل... وهذا عمر يدرك أنه الشخص الأول في الأمة الذي يأمر فيطاع، ويحكم فينفذ حكمه، وتنبسط يده في الأموال والأحوال دون عجز أو ضعف...

ومع هذا كله، ها هو ذا يجلس مهمومًا مغمومًا، حزينًا مكتئبًا، صامتًا مفكرًا، ويدخل عليه ولاه متوقعًا أن يراه مسرورًا مبتهجًا بما حقق الله له من مجد الخلافة

وسلطة الحكم، فيراه على الحال التي قدمنا، فيسأله: «يا أمير المؤمنين، كأنك مهتم؟!».

فيجيب عمر: «لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممت... لأنه ليس من أمة محمد أحد في مشرق أو مغرب إلا له قبلي حق يحق عليّ أداؤه: غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني!».

بل رأينا عمر قبيل ذلك ينتهي من دفن سليمان ابن عبد الملك الذي كان خليفة قبلة، ويقدمون إليه برذون سليمان ليركبه، فيأبى ويكتفي ببغلته، ويقول مصورًا مبلغ التبعة التي لزمته بهذه الخلافة: «ليس أحد من أمة محمد ﷺ إلا له عندي: شرقها وغربها».

ويقف في أول خلافته ليخطب، فلا ينسى الشعور القوي العميق بهذه التبعة، فيقول للناس: «ألا إني لست بخيركم، لكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملًا».

ويرافق الشعور بالتبعة عمر في ليله ونهاره، ومراحه ومغداه، فيقلق جانبه، ويثير اهتمامه، وأحيانًا يثير دمعه. ولقد بكى عمر يومًا فقيل له: «ما يبكيك؟». فأجاب عمر سائله: «تلومني أن أبكي... ولو أن سخلة هلكت على شاطئ الفرات، لأخذ الله بها عمر يوم القيامة؟!».

وأحيانًا ينغص هذا الشعور على عمر مطعمه ومشربه. ولقد صور عمر ذلك حين قال لمسافع: «يا مسافع... كيف يشبع رجل من الطعام والشراب، وليس أحد من المشرق والمغرب يظلم بظلامة إلا كنت أنا صاحبه؟!».

وأحيانًا ينغص هذا الشعور على عمر منامه ورقاده... فها هو ذا ينتهي من حوائج يومه، ويدعو بسراجه الذي كان يسرج له من ماله، ثم يصلي ركعتين، ثم يقعي واضعًا

رأسه على يده، ودموعه تسيل على خده، ويشهق الشهقة تكاد تخرج معها نفسه أو تتصدع كبده... فلم يزل ليلته حتى برق له الصبح، ثم أصبح صائمًا.

وتدنو منه زوجته فاطمة وتسأله: «يا أمير المؤمنين، لشيء ما كان منك الليلة ما كان منك...؟».

فيجيبها: «أجل... فدعيني وشأني، وعليك بشأنك!».

فتقول له: «إني أرجو أن أتعظ».

فيجيبها: «إذن أخبرك... إني نظرت إلى نفسي، فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة: صغيرها وكبيرها، وأسودها وأحمرها. ثم ذكرت الغريب الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المفقود، وأشباههم في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله تعالى سائلي عنهم، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم، فخفت ألا يثبت لي عند الله تعالى عذر، ولا يقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة، فخفت على نفسي خوفًا دمعت له عيني، ووجل له قلبي... وأنا كلما ازددت لذلك ذكرًا، ازددت منه وجلًا، وقد أخبرتك، فاتعظي الآن أو دعي!!».

وكان هذا الشعور بالتبعة لا يفارقه وهو في مجلس الإمارة، وكان يخشى أن يضعف عنده هذا الشعور أو يرق، وهو في مجلس من مجالس الحكم والسلطان، فهو يحتاط لذلك أقوى احتياط.

عن أبي حازم قال: «لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: «انظروا رجلين من أفضل من تجدون»، فجيء برجلين. فكان إذا جلس مجلس الإمارة، أمر فألقى لهما وسادة قبالته، وقال لهما: «إنه مجلس شرة وفتنة... فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي، فإذا

رأيتما مني شيئًا لا يوافق الحق، فخوِّفاني وذكِّراني بالله ﷻ».

ولقد سمع عمر رجلًا يقول: «عدل -والله- عمر بن عبد العزيز في الأمة!». فلم يغتر عمر بهذه الشهادة، وإن كان لها ما يؤيدها ويعضدها، بل تذكر هول التبعة التي تحيط به، فبكى وقال: «وددت والله أنني كما قلت... ومن لعمر بالذي قلت رحمك الله؟!».

وكان شعوره بالتبعة يلجئه في كثير من الأحيان إلى جلسة التفكر والتدبر، أو جلسة الحزن والأسى، حتى يشاهد الكثير من الناس ذلك، وينوهوا به. فهذا هو النضر بن عدي يقول: «دخلت على عمر بن عبد العزيز فرأيته هكذا: قد نصب ركبتيه، ووضع يديه عليهما، وذقنه على ركبتيه... كأن عليه بثَّ هذه الأمة!!».

وفي موطن آخر يقول النضر: «دخلت على عمر بن عبد العزيز، وكان لا يبكي، وإنما هو منقبض، وكأن عليه حزن الخلق!!».

وقول يزيد بن حوشب: «ما رأيت أخوف من الحسن (البصري) وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما».

وقال الوليد بن أبي السائب: «ما رأيت أحدًا قط كان الخوف على وجهه أبين منه على عمر بن عبد العزيز!!».

* * *

وأحيانًا كان شعور عمر العميق بهذه التبعة العظمى يدفعه إلى التفكير في التخلص من ولاية الناس، والبعد عن الخلافة، حتى يستريح من وطأة هذا الشعور، وحتى لا

يتعرض للحساب الطويل بسبب التبعات التي يحملها وهو خليفة، ولكنه يعود فيتذكر أن الله جل وعلا قد حمله أمانة فيجب أن يحملها، وأن الله كلفه واجبًا فيلزمه أن يؤديه..

يقول عمر: «وايم الله لو أعلم أنه يسوغ لي، فيما بيني وبين الله، أن أخليكم وأمركم هذا (يعني الخلافة، وألحق بأهلي... لفعلت ولكني أخاف ألا يسوغ ذلك لي فيما بيني وبين الله!».

ويتجلى لنا شعور عمر بالتبعة من فرحه القوي إذا رأى الأمور بين الناس معتدلة، والأحوال متسقة، والرعية تنعم بالأمن والسعادة والطمأنينة... فقد خرج يومًا وهو خليفة ومعه مزاحم، فلقيا رجلًا قادمًا من المدينة، فسأله عمر عن أحوال الناس هناك، فقال: «إن شئتما جمعت لكما خبري، وإن شئتما بعضته تبعيضًا!» فقال عمر: «بل اجمعه».

فقال الرجل: «إني تركت أهل المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم منصور، والغني موتور، والعائل (الفقير) مجبور!».

فسر عمر كثيرًا بذلك، وقال: «والله لأن تكون البلاد كلها على هذه الصفة، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس!!».

عمر بن عبد العزيز والقرآن

القرآن الكريم هو دستور السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الغيث الإلهي الذي تنزل من لدن الرحمن الرحيم على الأرض الجدبة القاحلة، فأحيا مواتها، ورد عليها شبابها، ولا يستقيم لمسلم إسلام، ولا يتم إيمان بدون رابطة له مع القرآن المجيد... ولذلك قال رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**».

ولقد كان لرسول الله صلوات الله عليه مع القرآن نبأ أي نبأ: فهو ربيع قلبه، ونور سبيله، وسمير وحدته، وزينة مجمعه... يسمعه -وعليه أنزل- فإذا القلب الواجف، والروح الخائف، واللسان الذاكر.

وفي الحديث أن عبد الله بن مسعود قرأ على الرسول قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. ثم التفت إليه ابن مسعود فإذا عينا الرسول تذرفان.

وصلوات الله عليه، هو القائل: «**شيَّبتني هود وأخواتها**»... وهو القائل: «**إن الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا ويضع به آخرين**». وهو القائل: «**اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**».

وحينما كنت أتتبع سيرة الإمام العادل، والخليفة الخامس «عمر بن عبد العزيز» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مصادرها ومظانها... لفت نظري كلمات وأخبار ومواقف له مع القرآن الكريم ورأيت أن جمعها من شتاتها، والربط بينها، ونظمها في سلك واحد... وسيلةٌ من وسائل التخليد والتمجيد، وطريقة من طرق التأديب والتهذيب، وباب من أبواب التذكير والتحذير.

لعل أول ما نطالع في سيرة هذا الإمام التقي العادل من صلة له بالقرآن، بعد أن حفظه وهو غلام حدث، أنه يروي عن أبيه عبد العزيز بن مروان عن أبي الدرداء قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا خشي أحدكم نسيان القرآن فليقل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدًا ما أبقيتني، وارحمني بترك ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، ونوِّر به بصري، واشرح به صدري، واجعلني أتلوه كما يرضيك عني، وافتتح به قلبي، وأطلق به لساني**»... فيكون هذا الدعاء الذي ترويه كتب السيرة أو التاريخ شاهدًا على أن عمر بن عبد العزيز يعرف للقرآن قدره، وإذا نسيه ذكره، وإذا غفل عنه تاب إلى ربه واستغفره.

ثم نشاهد عمر بن عبد العزيز في موقف آخر مع القرآن الكريم: إنه يدمن القراءة فيه، ويديم المذاكرة له... فهو يألف المصحف، ولا يكاد يمر عليه يوم دون أن يتناوله ويتلو فيه جانبًا من القرآن، سواء أكان يريد تثبيت ذلك الجانب إن كان محفوظًا من قبل، أم يريد استذكاره واسترجاعه إذا كان قد ند عنه.

وها هو ذا سعيد بن عامر يحدثنا عن إسماعيل بن أبي حكيم قال: «كان عمر بن عبد العزيز لا يدع النظر في المصحف كل يوم، ولكنه لا يكثر». وفي رواية أخرى: كان عمر بن عبد العزيز قلما يدع يومًا يقرأ في المصحف بالغداة فلا يطيل.

ولعل عدم الإكثار، أو عدم الإطالة، مما يستوقف النظر هنا.. ولكن الراجح أن عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه كان يستهدي في ذلك بقول الرسول عليه صلوات الله: «**اقرءوا القرآن ما اءتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه**». فهو يهرع إلى القرآن ما دام هادئًا فارغًا، وما دام لا يجد من معوقات الحياة، أو اختلاف الأمور أو الأشخاص، ما يصرفه عنه.

ويؤكد هذا المعنى أن عمر كان إذا سمع القرآن شغله المعنى أكثر مما يشغله اللفظ، واستبد به التفكير أكثر مما تستبد به متابعة الترتيل أو روعة التلحين.

حدث الغلابي قال: «حدثني رجل أن عمر بن عبد العزيز ﷺ، قرأ عنده قارئ مرة، فقال له مسلمة بن عبد الملك -وكان حاضرًا-: لحنت. فقال عمر: أما شغلك معناها عن لحنه؟».

وحدث عثمان بن عبد الحميد بن لاحق قال: «سمعت أبي قال: قرأ رجل عند عمر بن عبد العزيز سورة -وعنده رهط- فقال بعض القوم: لحن... فقال عمر: أما كان فيما سمعت ما يشغلك عن اللحن؟».

وليس هذا فيما يظهر تسويغًا من عمر للحن في كتاب الله، فحاشاه أن يفعل. ولكن لعله أراد ألا يخجل القارئ من جهة، وأراد أن يخفف من مجابهته بنقد النقاد من جهة أخرى.

ولعله رأي من أسلوب الناقد ما أفهمه أنه غفل عن تتبع المعنى والتأثر به، واكتفى بإحصاء الهنات والهفوات.

* * *

والإجابة الحاضرة عن معنى آية من آيات القرآن، عقب السؤال عنها، لا تتيسر على وجهها إلا لرجل ألف القرآن تلاوة، وتدبرًا، واستيحاء. ويلوح لنا أن عمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليه، كان من ذلك الصنف الممتاز الذي طالت صحبته للقرآن الكريم، واستطاع من وراء ذلك أن فقه معانيه، وأن يستحضرها حين السؤال عنها دون الحاجة إلى استنباء المراجع أو المظان... وهاك بعض الشواهد السريعة على ذلك، وهي بعض الزهرات المنثورة في سيرة ذلك الخليفة التقي:

حدث محمد بن كعب القرظي قال: «اجتمع نفر من علماء أهل الشام وعلماء أهل الحجاز، فكلمنا عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فقلنا: نحب أن نسأل عمر، ونحن نسمع، عن قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢]. قال: فسأله، ونحن نسمع، فقال عمر: سألت عن التناوش، وهو التوبة... طلبوها حين لم يقدروا عليها».

وهذا تفسير جميل لا تستوحش منه أقوال المفسرين في كلمة «التناوش»... ففي كتاب «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني: «النوش: التناول، وتناوش القوم كذا: تناولوه، قال: وأنى لهم التناوش، أي كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد، ولم يكونوا يتناولونه من قريب في حين الاختيار والانتفاع بالإيمان... إشارة إلى قوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية».

وقال الزمخشري في كشافه في تفسير الآية: «التناوش والتناول أخوان، إلا أن التناوش تناولٌ سهل لشيء قريب... وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا».

والتوبة قريبة من الإيمان، فقد قال الراغب أيضًا: «التوب، ترك الذنب على أجمل الوجوه». والكفر رأس الذنوب، وفي التوبة رجوع إلى الله، والرجوع إليه خضوع له وإيمان به.

ومن جميل تفسير عمر للقرآن أنه سئل -كما حدث إبراهيم بن زيد- عن قوله تعالى: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩]، فقال: لم تكن إضاعتها أن تركوها، ولكن أضاعوا المواقيت. وسياق الإجابة يدل على أنه أجاب حين سئل، دون استنباء أو

رجوع، وذلك يدل على صلته الدائمة بالقرآن ومعرفته له وأنسه به.

وهذا تفسير طريف آخر لبعض آيات القرآن الكريم، ذكره عمر بن عبد العزيز، ولمح فيه من ألفاظ القرآن ما قد يغيب عن سواه... كتب إليه بعض عماله يقول: «يا أمير المؤمنين إني بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على من قبلي من أهلها ضعف الشكر».

فكتب إليه عمر يقول:

«إني قد كنت أراك أعلم بالله. إن الله لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليه، إلا كان حمده أفضل من نعمه. لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ [النمل: ١٥]. وقال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤]... وأي نعمة أفضل من دخول الجنة؟».

والظاهر أن عمر رضي الله عنه لا يريد بذلك التهوين من شأن النعم الإلهية، ولكنه يحث على مداومة الحمد المصحوب بالشكر وحسن العبادة... وذلك خير مقابلة للنعم. وإذا تذكرنا أن التوفيق للحمد على وجهه نعمة أخرى كبرى، فقد عرفنا كيف تتصل النعم وتدوم، وكيف يتصل -بمقتضى ذلك- الحمد والشكران!

* * *

ويلوح من سيرة عمر بن عبد العزيز ومواقفه مع القرآن المجيد، أنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- كان يقبل عليه بالسمع والبصر والفؤاد، ويبدأ في تلاوته يقظ القلب، حاضر اللب، طاهر الروح... وذلك هو يتنبه لفواصله، ويتتبع تنقلاته، ويتأثر بألوان عباراته، ويندمج في جوه الروحي السامي، فينال من حسه ونفسه وشعوره الشيء الكثير. فهو مثلًا يقرأ قراءة الفاهم، ويسمع سماع المتابع، ويدرك ما يناسب كل آية من تجاوب أو تعليق.

حدث وكيع عن صالح بن سعيد المؤذن قال: «بينما أنا وعمر بن عبد العزيز بالسويداء، فأذنت بالعشاء الآخرة فصلى، ثم دخل القصر فقلما لبث أن خرج، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبى فافتتح «الأنفال»... فما زال يرددها ويقرأ: كلما مر بتخويف تضرع، وكلما مر بآية رحمة دعا، حتى أذنت الفجر!».

وهو يهتز قلبًا وقالبًا إذا استبان أنوار الجلال القدسي، أو ملامح القدرة الإلهية في التعبير القرآني...

حدث بحدل الشامي عن أبيه -وكان صاحبًا لعمر- قال: «رأيت عمر بن عبد العزيز يتلو على المنبر هذه الآية: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] حتى ختمها، فمال على أحد شقيه يريد أن يقع»... يعني أنه فعل ذلك من شدة تأثره بما تلا.

وهو كثير البكاء حين يتلو القرآن، وإنما البكاء ترجمان حسي عما يعتلج في صدره، وما يحترق به كبده من زفرات.

حدث الفضيل بن موسى عن مقاتل بن حبان، قال: «صليت خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤] فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها»... يعني من البكاء وشدة التأثر.

وذكر أبو المليح عن ميمون بن مهران، قال: «قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] فبكى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢]... ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد أن يرجع الزائر إلى الجنة أو النار!».

ولله ما ألطف ذلك التأويل! وما أجمل استنتاج ذلك المعنى الرقيق المؤثر من الآية الكريمة!

أرأيت كيف يلمح من كلمة «زرتم» أن البقاء في القبور إنما هو بقاء الزائر... والزائر يخفف زيارته عادة فلا تطول، وهي -مهما تطل- قصيرة، ولا بد له من عودة. وإلى أين العودة هنا؟... إلى الجنة أو النار!

وقد روي عن عبد الأعلى بن عبد الله الغزي أنه رأى عمر يوم جمعة صعد المنبر فخطب فقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٢، ١٣] بكى وأبكى أهل المسجد، حتى ارتج البكاء، قال الغزي: حتى رأيت حيطان المسجد تبكي معه!

وليس ذلك بعجب... فعمر عندما تلا تصور، وبلغ به التصور حده: فكأنه يرى أهل الجنة وهم يتزاورون فيها، ويرى أهل النار وهم يصطرخون فيها. وإذا لم تكن الحيطان قد بكت حقيقة -إن أردت المراجعة- فلا أقل من أن تفهم أن هذه اللحظة، بما فيها من جلال وخشية واستغراق، جعلت «الغزي» كأنه يرى كل شيء حوله باكيًا!!

وقال محمد بن الحصين: «حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز -وهو أمير المؤمنين- وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] فبكى عمر حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس!»

وروى سعيد بن أبي عروبة أن عمر بن عبد العزيز قال لابنه: «اقرأ»: قال: «ما أقرأ؟». قال: «اقرأ سورة ق». فقرأ حتى بلغ ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] فبكى، ثم قال: «اقرأ، اقرا يا بني». قال: «ما أقرأ؟»، قال: «اقرأ سورة ق»، حتى إذا بلغ ذكر الموت بكى أيضًا بكاءً شديدًا... يفعل ذلك مرارًا.

ولعله يشير بذكر الموت في آخر الخبر السابق إلى قوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، أو إلى قوله تعالى بعد ذلك في السورة نفسها أيضًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣]... ففي كل منهما إشارة إلى الموت.

وأخبر رجل من بني ضبة قال: «شهدت رجلًا يقرأ عند عمر بن عبد العزيز، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] بكى عمر حتى اشتد بكاؤه، ثم ازداد بكاؤه، فلم يزل يبكي حتى غشي عليه!».

* * *

ومن مظاهر تعلق عمر بالقرآن أنه كان يجعله آخر ما ينطق به في يومه، فإذا أوى إلى فراشه قرأ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]؟ ويقرأ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] ونحو هذه الآيات.

ولما ولي عمر الخلافة، وجلس لرد المظالم، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص، فقال: «يا أمير المؤمنين، كتاب الله!». قال عمر: «ما ذاك؟». قال: «العباس بن الوليد بن

عبد الملك اغتصبني أرضي» -والعباس جالس- فقال له عمر: «ما تقول يا عباس؟». قال: «نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلًّا». فقال عمر: «ما تقول يا ذمي؟». قال: «يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله تعالى». فقال عمر: «نعم كتاب الله تعالى أحق أن يتبع من كتاب الوليد... قم يا عباس فاردد عليه ضيعته»، فردها عليه.

فأنت ترى أن عمر لا يقدم على القرآن شيئًا، ويضحي في سبيله كل شيء.

ولقد كتب عمر إلى ولاته بألا يستعملوا على الأعمال إلا أهل القرآن، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى ألا يكون عنده خير... وهذا إجلال للقرآن، وإعزاز لأهله، وتحريض على العناية به.

وكان عمر يعطي لمن انقطع لقراءة القرآن والعلم في المسجد الجامع مائة دينار في كل عام، وهذا تقدير كريم من عمر الذي يعرف شأن القرآن، ويحرص على أن يظل محفوظًا منشورًا.

وعن عنبسة بن سعيد قال: «اجتمع بنو مروان فقالوا: لو دخلنا على أمير المؤمنين عمر فعطفناه علينا، وأذكرناه أرحامنا؟... فدخلوا فتكلم رجل منهم فمزح، فنظر إليه عمر، فوصل له رجل كلامه بالمزاح، فقال عمر: لهذا اجتمعتم؟... لأخس الحديث، ولما يورث الضغائن؟ إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله، فإن تعديتم فعليكم بمعالي الحديث!».

* * *

ولما دنا الموت من عمر قال لأهله: «اخرجوا عني»، فخرجوا. وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعوه يقول: «مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست

بوجوه إنس ولا جان»، ثم قرأ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. ثم هدأ الصوت، فدخلوا عليه، فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة فقبض.

فكان آخر ما نطق به عمر آية من القرآن!

* * *

والظاهر من سيرة عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه، أن أسرته كانت تشاركه الشعور بجلال القرآن، وتتجاوب معه في ذلك الحزن العميق والألم البليغ إذا جاء ذكر الحساب والعقاب... ولا عجب فقد كانت ذرية مقودة بزمام الحق والإيمان.

حدث أبو مودود قال: «بلغنا أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، فبكى بكاءً شديدًا حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة (زوجته) فجلست تبكي لبكائه، ويبكي أهل الدار لبكائهما، فجاء عبد الملك ابنه، فدخل عليهم -وهم على تلك الحال يبكون- فقال: «يا أبتي، ما يبكيك؟». قال: «خير يا بني، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه. والله يا بني لقد خشيت أن أهلك. والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار».

ولقد روى التاريخ أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يستقرئ أبناءه القرآن بعد الجمعة. ويروى أنه لما كان قبيل وفاته توفي أخوه سهل، وولده عبد الملك، ومولاه مزاحم -وكانوا أعوانه على هذا الأمر- فخرج فخطب الناس، فأمرهم بشيء مما يصلحهم، فكأنهم تثاقلوا عنه، فاغتم لذلك، ثم انصرف فدخل، وذلك يوم الجمعة، فدخل عليه أولاده

ليقرءوا عليه القرآن كعادتهم، فاستقرأ أولهم فقرأ قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ١ - ٤].

فقال عمر: «لقد عزاني الله على لسان ابني هذا».

وتجلى عنه بعض غمه، وقال: «اللهم، إني قد مللتهم وملوني، فارحمني منهم وارحمهم مني!»، فما عاد إلى المنبر ثانية حتى قبضه الله ﷺ!!

ثم هذا خبر نجعله خاتمة هذه المواقف، ولعله جدير بأن يكون خاتمتها... لقد بكت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك بعد وفاته بكاء شديدًا موصولًا، فلما أرادوا أن يصدوها عن ذلك أبت، وقالت فيما قالت:

«رأيته ذات ليلة قائمًا يصلي، فأتى على هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥]. فصاح: واسوء صباحاه!.. ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم إنه هدأ فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق إفاقته فنادى: يا سوء صباحاه!... ثم وثب فجعل يجول في الدار، ويقول: ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش!... قالت: فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه ميت، حتى أتاه الأذان للصلاة... فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتني عيناي فلم أملك رد عبرتي!!».

* * *

رضوان الله عليك أيها الإمام التقي الصالح، بقدر ما أعليت من شأن القرآن، وأقبلت عليه، واحتفلت له، وبقدر ما حزنت لوعيده وتحذيره. وأعلى الله مكانك بين الصديقين والشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

عمر بن عبد العزيز والرسول

إن محمدًا ﷺ هو خاتم أنبياء الله ﷺ، وزعيم رسله إلى خلقه، وقد أوسع الله له في الفضل والمنة: فلم يخص برسالته قومًا دون قوم، أو مكانًا دون مكان، أو زمانًا دون زمان... بل قال له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال له وزكى الحكم عليه والثناء فيه فقال عنه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤]. وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد جعل الله طاعة الرسول من طاعة الله، وجعل حب الرسول والحرص على هديه والاقتداء بسنته أصلًا من أصول الدين. وقال الرسول: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**، وقال: **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي»**، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟. قال: **«من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»**. وقال: **«من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»**!

والناظر في سيرة خامس الراشدين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، يرى أنه كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، وكان بادي العناية بكل ما يتعلق به من هدي أو سنة أو أمر من الأمور. ونلحظ هذه العناية أول ما نلحظها فيما كان من شأن عمر بن عبد العزيز حينما أراد أن يطلب العلم، فقد جعل سنة النبي صلوات الله عليه في طليعة العلوم التي ينشدها ويريدها. وعلى الرغم من أن عمر نشأ في بيت النعيم، وتربى في معارض الغنى والرفاهية، نراه يتخذ خاله عبد الله بن عمر مثلًا أعلى وقدوة سامية له،

فيقول لأمه: «يا أماه، أنا أريد أن أكون مثل خالي عبد الله بن عمر!». وعبد الله بن عمر هو الذي كان مضرب المثل في الزهد والاهتداء بهدى الرسول، والتقيد بسنته، والمبالغة في تتبع آثار الرسول هنا وهناك... وذلك بجانب أنه كان ملء دنياه علمًا وفضلًا!

بدأ عمر بن عبد العزيز يطلب الحديث والسنة: فروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وذكر أنه روى عنه أكثر مما روى عن جميع الناس، وروى كذلك عن محمد بن كعب القرظ، وأسند الحديث عن جماعة من الصحابة، وجماعة من كبار التابعين، وأسند عن أنس بن مالك، وابن عمر، وعبد الله بن جعفر، وعمرو بن أبي سلمة، والسائب، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وعبادة بن الصامت، وتميم الداري، والمغيرة بن شعبة.

وأرسل الحديث عن عائشة وأم هانئ وخولة بنت الحكم. وذكر عمر بن عبد العزيز أنه سمع عدة من أصحاب رسول الله ﷺ. وروى عن جماعة من كبار التابعين، مثل سعيد بن المسيب، وعبد الله بن إبراهيم بن قارظ، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، وخارجة ابن زيد، وعامر بن سعد بن أبي وقاص، وأبي بردة، والربيع بن سبرة الجهني، وعراك بن مالك، والزهري، وأبيه عبد العزيز بن مروان، وأبي حازم... وسمع من أبي سلام ممطور الحبشي.

سمع عمر الكثير من السنة، وتلقى عن الكثير من أقطابها من الصحابة والتابعين، ولكنه لم يرو كثيرًا مما سمع وتلقى. ويظهر أنه كان مشغولًا بشئون الناس في الإمارة والولاية، وهذا الانشغال حال بينه وبين التحديث الكثير... وإحياء العلم مذاكرته كما يقولون، ولذلك حدث حماد بن يزيد عن معمر بن الزهري قال: «سمرت مع عمر بن عبد العزيز ليلة فحدثته، فقال: كل ما حدثت به فقد سمعته، ولكنك حفظت ونسيت!».

ولقد تولى عمر ولاية المدينة قبل أن يتولى الخلافة، فكان قائمًا بالسنة، معظمًا لشأن الرسول صلوات الله عليه، وقد قام ببناء المسجد النبوي وتوسعته، بعد أن تلقى أمر الوليد بذلك، أدخل في البناء قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أدخل حجرات نساء النبي. وقد ذكر ذلك ابن كثير في «البداية والنهاية».

ولما تولى عمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليه، الخلافة لم ينس أن يذكر الناس من أول يوم له فيها أنه يهتدي في خلافته بالسنة، ولا يقبل البدعة... فإذا هو يقول للناس من خطبته يوم استخلافه عليهم: «إني والله ما أنا بمبتدع، ولكني متبع». أي لا أخترع في الدين شيئًا من عندي، ولكني أتبع سنة الرسول وسنن من اهتدى بهديه. ويؤكد هذا حينما يعود إلى الخطابة فيقول: «ألا إن ما سن رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه، وما سن سواهم فإنا نرجئه!».

ولذلك هو لا يرى هناك مجالًا للرأي أو للهوى ما دامت السنة واردة ثابتة، أو ما دام النص موجودًا، لأنه ليس هناك اجتهاد أو رأى مع النص أو السنة الواردة الثابتة.

عن سوادة بن زياد وعمرو بن مهاجر، ن عمر بن عبد العزيز، أنه كتب إلى الناس أنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ. وقد ذكر ذلك ابن عبد البر في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله».

وكان يعاهد نفسه وغيره بأن يبذل جهده وما في وسعه ليقضي على ما حدث في الأمة بعد الرسول من بدع، وليعيد الأمر كما كان على عهد نبيها الأمين، ولا يقبل في سبيل ذلك وساطة ولا شفاعة، ولا يراعي أمام ذلك قرابة ولا صداقة، ولا يفرق في الخضوع للحق والرجوع إلى حكم الله بين قريب وبعيد. وقد حدث أنه لما تولى الخلافة

ورد المظالم، وأقام أقاربه من بني أمية على الطريق المستقيم، وسوى بينهم وبين غيرهم من عامة الناس -جاءته عمته تريده على أن يختص قومه أو أقاربه بما كانوا يتميزون به على غيرهم في أثناء حكم من سبقه من ولاة بني أمية... فلم يقبل وساطتها، وقال لها:

«يا عمة، إن رسول الله ﷺ قُبض فترك الناس على نهر مورود: فولي ذلك النهر رجل، فلم يستنقص منه شيئًا، ثم ولي ذلك النهر، بعد ذلك الرجل، رجل آخر، فلم يستنقص منه شيئًا، ثم ولي بعد ذلك رجل آخر، فسقى منه ساقية... ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي، حتى تركوه يابسًا ليس ليه قطرة. وايم الله لئن أبقاني الله لأسكرن السواقي حتى أعيده إلى مجراه الأول». وقد ذكر ذلك بتوسع الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه عن سيرة عمر بن عبد العزيز.

وكذلك كتب عمر بن عبد العزيز، حين توليه الخلافة، كتابًا طويلًا مبسوطًا للمسلمين، ذكر فيه صفة ما كان عليه المسلمون من قبل، وما صاروا إليه بعد ذلك، وذكر فيه نصائح كثيرة. ويلوح في هذا الكتاب الطويل حرص عمر على الاهتداء بالكتاب والسنة، والتمسك بالمأثور عن رسول الله عليه صلوات الله، والتحذير من الابتداع والمخالفة عن أمر الله ورسوله، والتحريض القوي الشديد على أخذ ما شرع الله ومن رسوله بقوة ويقين. ومن هذا الكتاب قوله يخاطب عامة المسلمين، من حضره منهم، ومن غاب عنه:

«ففي الذي علمكم الله من كتابه، والذي سن رسول الله ﷺ من السنن التي لم تدع شيئًا من دينكم ولا دنياكم... نعمة عظيمة، وحق واجب في شكر الله، كما هداكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فليس لأحد في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ،

أمر ولا رأي، إلا إنفاذه والمجاهدة عليه. وأما ما حدث من الأمور التي تبتلي الأئمة بها مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ، فإن والي أمر المسلمين وإمام عامتهم لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضي فيها دونه».

ثم يقول في الكتاب نفسه: «فإن الذي حرصت على أن أحملكم عليه من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، هو حجتي في الدنيا، وبغيتي فيما بعد الموت، ولا تلبسوا ذلك بغيره».

ثم يقول: «وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك، أن لعمري أن تموت نفسي أول نفس أحب إلي من أن أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم التي عاش عليها من عاش، وتوفاه الله عليها حين توفاه». ثم يقول: «وليس عندي مع ذلك صبر على انتقاص شيء من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام».

ثم يقول في آخر الكتاب: «أسأل الله برحمته وسعة فضله أن يزيد المهتدي هدى، وأن يراجع بالمسيء التوبة في عافية منه، وأن يحمك على من أراد خلاف كتابه وسنة نبيه عليه السلام بحكم يعذبه به في خاصته ويعجله له... فإنه على ذلك قادر، وأنا إليه فيه راغب».

أرأيت كيف أبدأ عمر وأعاد في الدعوة إلى الكتاب والسنة، وفي التحذير من مخالفتها، وفي التهديد لمن يخرج عليها؟

أرأيت كيف أستعدي القهار الجبار على من يخالفها، فسأله أن يعذبه وينتقم منه؟

يحسن أن تراجع هذا الخطاب الطويل المبسوط في كتاب أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم عن سيرة عمر بن عبد العزيز، فقد شغل أكثر من ثماني صفحات من صفحات الكتاب!

ويخطب عمر الناس مرات ومرات، ويكتب إلى الولاة والأفراد والعامة مرات ومرات، فلا يجد مناسبة ملائمة للتذكير بسنة الرسول والدعوة إليها إلا انتهزها... فنراه مثلًا يخطب ذات يوم فيقول: «أيها الناس، إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب: فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة. ألا إني لست بقاض، وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع، ولكني متبع».

ويكتب إليه عروة يسأله كيف يقضي بين الناس، وكيف يفصل في أمورهم، ويحكم في خلافاتهم. فيرد عليه عمر ردًا وجيزًا بليغًا: يلخص له فيه قواعد القضاء والحكم، ويبدأ بالقرآن، ويثني بهدي الرسول، فهو يقول له: «كتبت إلي تسألني عن القضاء بين الناس، وإن رأس القضاء اتباع ما في كتاب الله، ثم القضاء بسنة رسول الله، ثم بحكم أئمة الهدى، ثم استشارة ذوي العلم والرأي».

ويكتب عمر إلى بعض عماله فيقول: «أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله، وترك ما أخذت المحدثون بعده، مما قد جرت سنته وكفوا مئونته. واعلم أنه لم يبتدع إنسان قط بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة فيها... فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة».

وكان من شدة حبه للرسول، وحرصه على سنته، وخوفه من مخالفة هديه، وهيامه بمحاربة ما يخرج عن طريقته... يرى حياته وقفًا على مناصرة السنة ومقاومة البدعة. فهو يقول ضمن خطبة له:

«لو لا سنة أحييها، أو بدعة أميتها، لما باليت أن لا أعيش فواقًا»[١].

ومن هنا كانت كتب عمر بن عبد العزيز إلى الولاة، وإلى المسلمين في مختلف الأمصار، لا تكاد تبعد عن الحديث عن هذين الأمرين: نصرة السنة، ومجاهدة البدعة... فإذا زاد عليهما أمر ثالث، فهو خير أو فيء أو مال، يبعث عمر بقسمته بين مستحقيه من المسلمين.

أخبر عبد الرحمن بن زيد عن أبيه، قال -فيما يرويه ابن الجوزي-: «ما طلع كتاب عمر بن عبد العزيز من الثنية إلا بإحدى ثلاث: إحياء سنة، وإماتة بدعة، وقسم يقسمه بين المسلمين».

ولم يكتف عمر بالدعوة إلى السنة والحث عليها بنفسه، بل أشرك معه غيره، إذ نظم بعثة من قِبَلِهِ لتعليم الناس أمور السنة هنا وهناك.

ذكر ابن عبد الحكم، أن عمر بن عبد العزيز بعث يزيد بن مالك والحارث بن محمد إلى البادية، ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد الأجر، ولم يقبل الحارث قائلًا: «ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرًا!». فذكر ذلك لعمر فقال: «ما تعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث!!».

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بمثل هذه البعثة، بل أمر بجمع السنة وتدوينها، وكتابة نسخ منها لتكون مرجعًا في مشارق الدولة الإسلامية ومغاربها، ويكون ذلك

---

(١) أي زمنًا قليلًا ضئيلًا، يقال -كما في أساس البلاغة- وما أقام عنده إلا فواق ناقة، وفيقة ناقة، أي قليلًا. وذلك أن الناقة تحلب في اليوم خمس مرات أو ست مرات، فما اجتمع بين الحلبتين فهو فيقة.

المرجع من الأسباب الميسرة لطلب السنة والوقوف عليها.

حدث سعيد بن زياد مولى الزبير -فيما يروي ابن عبد البر- قال: «سمعت ابن شهاب يحدث سعد بن إبراهيم: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا».

وكان عمر من إجلاله لسنة الرسول، وعرفانه قدرها، يذكر الناس بأن من خرج عليها لا يطاع ولا يقبل منه... فهو يقول في إحدى خطبه مشيرًا إلى ذلك: «ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله». ويعود فيصرح بذلك في عبارة واضحة، فيقول في كتابه لأهل الموسم: «ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة، فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم، حتى يراجع الحق وهو ذميم».

وعمر رضي الله عنه يرى السعادة في اتباع هذه السنة، وأنه إذا لم يؤمن المرء بوجود السعادة في هذه السنة الراشدة فهو شقي لا يستحق هداية ولا سعادة. ولذلك كان يكتب إلى عماله أن يأخذوا بالسنة ويقول: «إن لم تصلحهم السنة، فلا أصلحهم الله».

وكذلك كتب يقول: «سن رسول الله ﷺ، وولاة الأمر من بعده، سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها. من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا».

ولم يكتف عمر في ذلك بالكتاب أو القول، بل أتبع ذلك بالتطبيق والعمل، وحمل الناس على ذلك. ولذلك يعلق عبد الله بن عبد الحكم على الكتاب السابق بقوله:

«فسمعت مالكًا يقول: وأعجبني عزم عمر في ذلك»... يعني جده واجتهاده وعزيمته في تنفيذ هذه الخطة!

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتشبه برسول الله في أقواله ،أعماله، ومظهره ومخبره، وكانت صلاته، وهو وال على المدينة، أشبه الصلوات بصلاة الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى قال إمام المدينة مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حق عمر بن عبد العزيز: «ما رأيت إمامًا صلاته أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا». وكان عمر يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود.

وفي سبيل المحافظة على سنة الرسول ﷺ وهديه الكريم، كان عمر بن عبد العزيز يضحي بالمال ولو كان عزيزًا، وبالعقار ولو كان غاليًا. وقد ترك له أبوه عبد العزيز بن مروان في ميراثه مزرعة خيبر، وسأل عمر عن أصل هذه المزرعة، فقيل له: إنها كانت نحلة (أي هبة من الله خاصة) للرسول، فتركها فيئًا للمسلمين، ثم صارت إلى مروان، فأعطاها مروان لأبيك، ثم بلغتك عن أبيك!

فماذا كان من عمر بعد أن سمع هذا؟

مزق عمر سجل المزرعة الذي يثبت ملكيته لها، وقال: «اتركها حيث تركها رسول الله ﷺ!».

ومن الرموز التي تشير إلى حب عمر لرسول الله وحرصه على سنته، وتعلقه بشخصه وسيرته، واهتدائه بهديه وطريقه -أن ترى له رسائل وعظات كان يقتصر فيها -تقريبًا- على العبارة النبوية الكريمة، ويرى فيها عمدة الاستشهاد والتوجيه، فنحن نراه مثلًا يكتب إلى عبد الملك ابن مروان واعظًا فيقول له:

«أما بعد: فإنك راع، وكل راع مسئول عن رعيته... حدثنيه أنس بن مالك، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل راع مسئول عن رعيته». ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾...». فاقتصر عمر في عظته على البدء بالإشارة إلى الحديث، ثم عاد فأكد ذلك برواية الحديث، ثم ختم بالآية المذكورة بأن النهاية إلى الله ليحاسب كل راع عما فعله في رعيته!

ومن علامات حب عمر لرسول الله وإجلاله لمكانه، أن يغضب حينما يبلغه أن بعض الذين يقصون على الناس أحاديث الوعظ والتذكير قد بدءوا ينافقون الأمراء، أو يخافون منهم فيصلون عليهم كما يفعلون في شأن الرسول صلوات الله عليه. فكتب عمر إلى أمير الجزيرة يقول -كما يروي ابن الجوزي-: «وقد بلغني أن ناسًا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عدل ما يصلون على النبي ﷺ. فإذا جاءك كتابي هذا، فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك. والسلام».

ويروي ابن عبد الحكم أن هذا الأمر وجهه عمر إلى أمراء الأجناد، وعبارته من كتاب له:

«... وإن رجالًا من القصاص قد أحدثوا صلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل ما يصلون على النبي وعلى المؤمنين، فإذا أتاك كتابي هذا، فمر قصاكم فليصلوا على النبي ﷺ، وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم، ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات، وليستنصروا الله، ولتكن مسألتهم عامة للمسلمين».

وشمل حب عمر للرسول الأمور الحية المتعلقة به، كما شاع ذلك وتمكن في الأمور

المعنوية والدينية المرتبطة به... فقد حدث محمد ابن مهاجر قال: «كان عند عمر بن عبد العزيز سرير النبي ﷺ وعصاه وقدحه وجفنته، ووسادة حشوها ليف، وقطيفة ورداء، فكان إذا دخل عليه النفر من قريش قال لهم: هذا ميراث من أكرمكم الله به، ونصركم به، وأعزكم به، وفعل ما فعل!!».

فعمر هنا يحفظ الأشياء الحسية لأنها من آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو في الوقت نفسه يتخذها وسيلة لعظة بليغة في نفوس هؤلاء القريشيين... فهو يذكرهم بأن نبيهم ورسولهم وهاديهم إلى الخير والسعادة، وناصرهم ومعزهم، وموحد كلمتهم ومحقق المجد لهم، ثم يترك دورًا ولا قصورًا ولا عقارًا، ولم يخلف وراءه ميراثًا كبيرًا... بل هذه الأدوات القليلة هي كل ما ترك ذلك الرسول العظيم!

ونحن نستطيع أن نلمح حب عمر بن عبد العزيز لرسول الله، وحرصه على ربه منه، وخوفه من انقطاعه عنه، حينما نراه يخرج من المدينة مع مولاه مزاحم بعد عزله عن ولايتها، ونسمعه يقول: «يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة!!»... وهو يشير بذلك إلى قول النبي: «**إن المدينة تنفي خبثها، كما ينفي الكير خبث الحديد**». ولكن مزاحم يرد عليه بما يطمئن خاطره.

ومن إجلال عمر لمقام الرسول، وهيبته من أمره، أنه قيل له في أخريات أيامه، أو في أثناء مرضه: لو أتيت المدينة، فإن قضى الله موتًا دفنت في موضع القبر الرابع مع رسول الله وأبي بكر وعمر!

فاستنكر عمر بن عبد العزيز ذلك القول، واعتبر نفسه غير أهل لهذا الشرف، فأجاب: «والله لأن يعذبني الله بكل عذاب -إلا النار فإني لا صبر لي عليها- أحب إلي

من أن يعلم الله من قلبي أني أراني لذلك أهلًا!».

وكان إذا دعا للمسلمين دعا لهم بوصف أنهم منسوبون إلى رسول الله ﷺ.

ولا عجب فهو قائدهم وهاديهم إلى صراط ربهم، ولذلك كان يقول في دعائه: «اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح أمة محمد، اللهم وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد؟».

وبلغ من حب عمر للرسول وآل بيته، واشتهار ذلك بين الناس، أن وصل ذلك الحب إلى الرؤى التي يراها الناس على عهده... فعن أبي هاشم الرماني أن رجلًا جاء لعمر بن عبد العزيز فقال له: «رأيت النبي ﷺ في المنام، وكأن بني هاشم يشكون إليه، فقال لهم: فأين عمر بن عبد العزيز؟!».

كأن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هو المرجو المأمول في نصرة آل الرسول من بني هاشم. ولا يبلغ عمر هذه الدرجة إلا إذا كان مثلًا في حبه للرسول وآل الرسول!

وهكذا عاش عمر بن عبد العزيز: محبًا للرسول صلوات الله عليه، داعيًا إلى هديه وسنته، حريصًا على اتباع طريقته... فرضوان الله عليه في خيار الصالحين.

عُمَر الحليم

الحلم سيد الأخلاق، وإنما كان سيدها لأنه عنوان على ضبط الإنسان لنفسه. وإذا استطاع الإنسان أن يضبط نفسه -وهي أعدى أعدائه إذا انطلقت بلا ضابط ولا رابط- فقد اعتدل طريقه واستقام أمره.

والحلم خلق يدل على سعة الصدر، ودماثة الخلق، وصفاء القلب، وعلو الهمة. ولا يكون الحلم حلمًا كريمًا سليمًا إلا إذا أتى عن استطاعة واقتدار، وأما تظاهر العاجزين بالحلم فهو لون من ألوان المذلة والهوان. وكل حلم يأتي بغير اقتدار بعد خطة من خطط اللئام التي يسترون بها عجزهم وقصورهم.

والحاكم العادل عمر بن عبد العزيز له مواقف في الحلم يجب أن يتكرر إيرادها ليدوم الاتعاظ والاعتبار بها. ومن عجب أن تكون هذه المواقف الحليمة الكريمة لرجل تجري في أعراقه دماء الحدة والغضب، ويزداد عجبنا -بل يزداد إعجابنا- حينما نستعرض ما بين أيدينا من مواقف الحلم لعمر، فنجدها جميعًا مواقف كان عمر فيها قادرًا كل القدرة على الانتصاف والعقاب. والحلم تعلو منزلته كلما قوي حق صاحبه في الانتصاف والعقاب.

وحسبنا أن نسوق هذه المواقف تباعًا، لنتضوأ بنورها، فتكون هدى ونبراسًا لقادرين غاضبين في هذه الحياة، لعلهم يعتبرون فيزجروا أنفسهم عن الاندفاع والثوران، ويجملوها بالحلم والاصطبار.

خرج ابنٌ لعمر بن عبد العزيز يلعب مع الصبيان، فجرحه أحدهم، فحملوا ابن عمر مع الغلام الذي جرحه إلى فاطمة بنت عبد الملك. وسمع عمر الضجة، فأقبل على

زوجته يستطلع الخبر، وأقبلت في الوقت نفسه أم الغلام الذي جرح ابنه، وكانت امرأة ضعيفة فقيرة، فجعلت تعتذر إلى عمر عما فعل ابنها فتقول: «إنه يتيم!». وإذا بعمر يسألها عنه: «أله عطاء؟». قالت أمه: «لا». فأمر عمر بكتابته في الذرية التي لها عطاء.

فتعجبت من ذلك زوجته فاطمة، وغضبت فقالت: «فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى!!».

فرد عليها عمر مهدئًا لها، فقال: «إنكم أفزعتموه!!».

* * *

وغضب عمر يومًا غضبًا شديدًا على رجل ارتكب أمرًا واستحق عقابًا، فبعث إليه عمر، وقيده، ومده ليجلده، وأحضر السياط ليفعل، وأيقن الناس أنه فاعل، وقالوا: هو ضاربه. ولكن عمر فاجأهم بقوله: «خلوا سبيله». ثم قال للرجل: «أما والله لولا أني غضبان لسؤتك!». ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]!

وكان عمر منصرفًا من عمله إلى بيته ليستريح، فاعترضه رجل في الطريق، وأقبل عليه مسرعًا حتى ظن الناس أنه يريد بأمير المؤمنين شرًا، وكأنهم هموا بالحيلولة بينه وبين عمر، وكان في يد الرجل طومار غليظ من ورق قد كتب فيه حاجته. فلما ظن الرجل أنهم سيمنعونه من الوصول إليه، رمى بالطومار نحوه، فأصاب عمر في وجهه فجرحه، وسال الدم على وجهه -وكان الوقت ظهرًا، والشمس تغمر بأشعتها وجه عمر- وظن الرجل بمصيره الظنون، وظنت الناس الظنون كذلك... ولكن عمر أدرك سر الموقف، فتناول الطومار وقرأه، فلما عرف حاجة الرجل أمر بقضائها، وعفا عنه، وخلى سبيله!

وسب رجل عمر بن عبد العزيز، فلم يرد عليه. فقيل له: «ما يمنعك منه؟» قال: «إن التقي مُلجم!».

بل وقف عمر يخطب على المنبر يومًا، فقام رجل كأن بعقله مسًّا، أو كأنه يريد أن يظهر بين الناس، فقال لعمر: «أشهد أنك من الفاسقين». فأجابه عمر في هدوء: «وما يدريك وأنت شاهد زور لا نجيز شهادتك؟!». ثم مضى في خطبته!

وقال رجل لعمر: «يا أمير المؤمنين، هذا رجل يسبك»، فأعرض عمر عنه، فأعاد الرجل قوله، فأعرض عمر عنه، فأعاد كلامه مرة ثالثة، فأجابه عمر: «إن الله يستدرجه من حيث لا يعلم».

وكان عمر يسير على دابته، وهو يقرأ وخلفه بعض من معه، فغشيت دابته رجلًا يمشي في الطريق، فغضب الرجل وقال لعمر: «أبصر لا أبصرت!!». فلم يغضب عمر.

وبعد هنيهة احتاج هذا الرجل الشاتم إلى معونة، ورجا من يعينه.. فأمر عمر بعض من كان معه أن يعين الرجل.

ودخل عمر المسجد ليلًا -وكان مظلمًا، وكان وراءه أحد الجنود- وبينما هو سائر في ساحة المسجد عثرت رجله خطأ برجل نائم، فرفع الرجل رأسه، وصرخ في وجه عمر قائلًا: «أمجنون أنت؟»، فأجابه عمر بكل هدوء: «لا». فأراد الجندي أن يبطش به، فمنعه عمر وقال له: «إنما سألني: أمجنون أنت؟ فقلت لا!».

وأقبل على عمر رجل، وأخذ يسبه، فلم يرد عليه إلا بقوله: «أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تنال مني غدًا». ثم أعرض وعفا عنه!!

فأعاد عمر سؤاله: «من أي بني هاشم؟». فهمس ابن مورق: «مولى علي بن أبي طالب!».

وكان أنصار علي مكروهين في دولة بني أمية، فوضع عمر يده على صدر ابن مورق وقال: «أيا مولى علي بن أبي طالب، حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه».

ثم قال عمر: «يا مزاحم، كم تعطي أمثاله؟». قال مزاحم: «مائة درهم أو مائتي درهم».

فقال عمر: «أعطه خمسين دينارًا لولايته لعلي بن أبي طالب!!».

وكذلك وفد زريق، مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على عمر بن عبد العزيز، وكان قد حفظ القرآن الكريم والفرائض فقال: «يا أمير المؤمنين، إني رجل من أهل المدينة، وقد حفظت القرآن والفرائض، وليس لي ديوان» (أي لم يفرض له عطاء).

قال له عمر: «ولِـمَ، يرحمك الله؟... من أي الناس أنت؟». قال زريق: «رجل من موالي بني هاشم». قال عمر: «مولى من؟».

قال زريق: «مولى رجل من المسلمين». فصاح به عمر: «إني أسألك، أتكتمني من أنت؟». فقال زريق بصوت منخفض: «أنا مولى علي بن أبي طالب!!».

فبكى عمر حتى جرت دموعه إلى الأرض، ثم قال: «وأنا مولى علي، أتكتمني ولاء علي؟! حدثني سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: من كنت مولاه فعلي مولاه!!».

ويا له من تقدير كريم يصدر عن الخليفة عمر، يكرم به من انتمى إلى الإمام علي!... ثم يا له من تقدير يعلو على كل تقدير من عمر للإمام علي رضوان الله عليهما!

ومما يتصل بهذا أن عبد الله بن الحسن كان يتردد على عمر بن عبد العزيز يستعين به على سليمان بن عبد الملك في حوائجه، فقال له عمر: «رأيت ألا تقف ببابي إلا في الساعة التي ترى أنه يؤذن لك فيها علي، فإني أكره أن تقف ببابي فلا يؤذن لك علي!!».

وهذا يذكر بموقف لعمر مع سعيد بن المسيب، فقد أرسل عمر إليه رسولًا يسأله عن مسألة -وكان عمر حينئذٍ أميرًا على المدينة، وكان سعيد لا يأتي أميرًا ولا خليفة- فأخطأ الرسول وقال لسعيد: «الأمير يدعوك». فأخذ سعيد نعليه، وقام إليه من وقته، لأن ابن المسيب كان يحب عمر ويقدره ويعرف له فضله، فلما رآه عمر كبر عليه ذلك، وقال له:

«عزمت عليك يا أبا محمد ألا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ... إنما أرسلناه ليسألك!!».

* * *

ومن تقدير عمر للرجال، وبصره بأحوالهم، أنه عزل خالد بن الريان الذي كان صاحب الحرس على عهد الوليد وعبد الملك، وكان سيافًا يقوم على رأس الخليفة، وكان لا يتورع عن إتيان الكبائر لمرضاة الخلفاء، فقال عمر، حين تولى الخلافة، لابن الريان: «يا خالد، ضع هذا السيف عنك... اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان، فلا ترفعه أبدًا». قال نوفل بن الفرات: «ما رأيت مثله شريفًا خمد ذكره حتى لا يذكر، حتى أن كان الناس ليقولون: ما فعل خالد بن الريان، أحي هو أم قد مات؟!».

عزل عمر خالد بن الريان لعلمه بحاله التي أجملنا أمرها، ثم نظر في وجوه الحرس، حتى رأى بينهم عمرو بن مهاجر الأنصاري، فدعاه إليه وقال له: «والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام. ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد فرأيتك حسن الصلاة... خذ هذا السيف، قد وليتك حرسي!!».

ويقابل تصرف عمر مع ابن مهاجر تصرفه مع بلال ابن أبي بردة الكوفي... فقد كان بلال هذا رجلًا صاحب دهاء وحيلة، وكان مظهره غير مخبره: فهو يتظاهر بالتدين والتعبد، ولكن وراء ذلك نفسًا تطمح وتطمع.

وفد بلال على عمر، وهو في «خناصرة»، فهنأه بالخلافة قائلًا له: من كانت الخلافة -يا أمير المؤمنين- شرفته فأنت قد شرفتها، ومن كانت زانته فقد زنتها... وأنت والله كما قال مالك بن أسماء:

وتزيــدين طيــب الطيــب طيبًــا إن تمــسيه، أيــن مثلــك أينــا؟
وإذا الــدر زان حــسن وجــوه كــان للــدر حــسن وجهــك زينــا

فجزاه عمر خيرًا، وخرج بلال من لدن عمر، ولزم المسجد، ولصق بسارية منه، وجعل يصلي فيطيل الصلاة، ويقرأ ليله ونهاره... ففكر عمر في أن يوليه العراق، فقال للعلاء بن المغيرة بن البدار: «إن يكن سر هذا الرجل كعلانيته فهو رجل أهل العراق دون مدافع». فقال العلاء: «أنا آتيك بخبره».

فأتاه العلاء، وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال له: «يا بلال، اشفع صلاتك فإن لي إليك حاجة»، ففعل، فقال له العلاء: «قد عرفت حالي عند أمير المؤمنين، فإن أنا

أشرت بك على ولاية العراق، فما تجعل لي؟».

قال بلال: «لك عمالتي سنة»... وكان قدرها ألف ألف درهم.

قال العلاء: «فاكتب لي كتابًا بذلك».

فأسرع بلال إلى منزله، وأحضر دواة وقلمًا وورقة، وكتب للعلاء ما أراد...

وحمل العلاء الكتاب إلى عمر، فاستبان له به وجه الحق، وانكشف أمامه ما كان مستورًا... فأبعد عنه بلالًا، وقال: «إن بلالًا قد غرنا بالله فكدنا نغتر، فسبكناه فوجدناه خبثًا كله». وقال لأهل العراق عنه: «يا أهل العراق، إن صاحبكم أعطى مقولًا ولم يعط مفعولًا، وزادت بلاغته، ونقصت زهادته!».

* * *

وهناك لعمر موقف قريب من موقفه مع عمرو بن مهاجر الأنصاري...

فقد رووا أن سليمان بن عبد الملك أرسل -وهو خليفة- رجلًا يثق به ليقبض خراج إفريقية، وأمر سليمان عبد الله بن موسى بن نصير عامل إفريقية أن يكون جمع المال بشهادة عشرة من أهل القيروان، يصحبون المال حتى يبلغه في دمشق، ويشهدون أنه أخذ أخذًا عادلًا. فلما وصل العشرة مع المال، كان عمر بن عبد العزيز موجودًا مع سليمان، وجعل الخليفة يسأل العشرة عن المال وطريقة أخذه، فأجابوه بأنه قد جمع من وجهه.

وكان بينهم رجل من العشرة لم يتكلم قط، فلما انصرفوا سأل عمر بن عبد العزيز عن هذا الرجل، فقالوا له: إنه عبد الله بن المغيرة، فسألهم عن سبب صمته، فأثنوا على دينه وفضله وورعه، وقالوا إنه لم يتكلم لأنه لا يريد أن يتكلم إلا بحق يوقن به.

فحفظ عمر ذلك لابن المغيرة حتى جاءت الخلافة إلى عمر، فأسند قضاء إفريقية إلى ابن المغيرة هذا!!...

ويروي التاريخ أيضًا أن عمر ولى السمح بن مالك الخولاني على الأندلس، وكان قد رأى منه أمانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك!

وكذلك كتب عمر إلى عامله على البصرة عدي بن أرطاة يطلب منه أن يجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني، ويولي القضاء أنفذهما... ففعل عدي. وجعل كل من الرجلين يحاول التخلص من الوظيفة، حتى بلغ الأمر أن حلف كل منهما أنه لا يصلح لمنصب القضاء.

وقال إياس لعدي: «أيها الرجل، سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسن وابن سيرين».

وكان القاسم يأتيهما، وكان إياس لا يتردد عليهما. فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به، فقال لعدي: «لا تسأل عني ولا عنه... فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء... فإن كنت كاذبًا فما ينبغي أن توليني، وإن كنت صادقًا فينبغي أن تقبل قولي».

فحار عدي، وصدق القاسم، وهم بتعيين إياس... فأراد إياس النجاة بنفسه، والخلاص من المأزق، فقال لعدي:

«إنك جئت برجل، فأوثقته على شفير جهنم، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف!».

وأعجب عدي بهذا الجواب، وعرف أن إياسًا قد أدرك ما وراء كلام القاسم، ولا يدرك هذا إلا فقيه عالم، فقال عدي لا بأس: «أما إذ فهمتها فأنت لها!»... وعيَّنه في منصب القضاء!!.

أرأيت إلى عقل الرجلين العظيمين: إياس والقاسم؟... أرأيت تحرزهما من الإثم والشبهة؟... أرأيت تحرزهما من الإثم والشبهة؟... أرأيت عزوفهما عن المناصب واتهامهما لنفسيهما وتفضيل كل منهما للآخر على نفسه؟!... ثم أرأيت خبرة عمر بن عبد العزيز بالرجال، وكيف اختار للقضاء أحد هذين البطلين؟!

وكان عدي بن أرطاة عاملًا لعمر بن عبد العزيز، وكان يكثر من إرسال الرسل إلى الخليفة العادل يسأله عن أشياء من السنة، وعن أمور في الدين. ولا شك أن عمر كان عالمًا وكان فقيهًا، ولكنه يجد الحسن البصري موجودًا في أمته، وهو من هو في فقهه وعلمه وبصره بالسنة، وإذن فليعرف له عمر قدره وفضله ومكانته، وليعط القوس باريها، ولذلك يكتب عمر إلى عدي يقول له:

«أما بعد، فإنك لن تزال تعني إليَّ رجلًا من المسلمين في الحر والبرد يسألني عن السنة، كأنك إنما تعظمني بذلك... وايم الله لحسبك بالحسن (البصري)، فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن... لي، ولك، وللمسلمين، فرحم الله الحسن، فإنه من الإسلام بمنزل ومكان، ولا تقرئه كتابي هذا».

وأرجوك أيها القارئ أن تقف طويلًا أمام قول عمر:

«وايم الله لحسبك بالحسن!»...

وقوله: «فسل الحسن... لي، ولك، وللمسلمين!»...

وقوله: «فإنه من الإسلام بمنزل ومكان؟».

وقوله: «ولا تقرئه كتابي هذا!».

وهذا هو عمر يعرف لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة قدره وفضله، لأنه العالم الناسك، ولأنه راهب قريش، وأحد فقهاء المدينة السبعة، وكان عبيد الله ينتقد عمر ويراجعه ويلومه، وأحيانًا يقسو في لومه... ولكن عمر يحتمل منه، ويستجيب له، وينوه بمكانته.

ولا عجب في ذلك، فقد كان ابن عتبة آية من آيات الله في العلم والفقه. يقول الزهري: «سمعت من العلم شيئًا كثيرًا، فظننت أني قد اكتفيت... حتى لقيت عبيد الله، فإذا كأني ليس في يدي شيء!»... ويقول: «أدركت أربعة بحور، عبيد الله بن عبد الله أحدهم». وكان عبد الله بن عباس يقدمه ويؤثره ويعزه كثيرًا...

جاء عبيد الله هذا إلى عمر بن عبد العزيز فاستأذن عليه، فتعجل الحاجب ورده قائلًا: «عنده عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو مختل له». فانصرف عبيد الله غضبان، وأرسل إلى عمر أبياتًا يقول فيها:

ابن لي، فكن مثلي، أو ابتغ صاحبًا ... كمثلك، إني تابع صاحبًا مثلي
وإني امرؤ من يصفني الود بلفني ... -وإن نزحت دار به- دائم الوصل
عزيز إخائي، لا ينال مودتي ... من الناس إلا مسلم كامل العقل!
ولولا اتقائي الله قلت قصيدة ... تسير بها الركبان، أبردها بغلي
بها تنقض الأحلاس في كل منزل ... وينفي الكرى عنه بها صاحب الرحل
وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا ... إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل

فتألم عمر لما حدث، وأرسل إلى عبيد الله أبا بكر بن سليمان وعراك بن مالك يعتذران إليه، ويقولان له: إن عمر يقسم بالله ما علم برد الحاجب إياك. فقبل عبيد الله اعتذاره، ولزم عمر -كما يروي الأصفهاني في الأغاني- فلم يزل معه حتى مات بالمدينة سنة ثمان وتسعين.

وفي رواية أخرى أن الإمام عبيد الله جاء سأل عن عمر، فقيل له مشغول لا يجد من وقته سعة، فعاد غاضبًا وهو يحسب أن عمر قد رضي بذلك... فكتب إليه عبيد الله يقول:

أبا حفص، أتاني عنك قول ... فضقت به، وضاق به جوابي
أبا حفص، فلا أدري: أرغمي ... تريد بما تحاول أو عتابي؟
فإن تك عاتبًا نعتب، وإلا ... فما عودي إذن بيراع غاب
وقد فارقت أعظم منك رزءًا ... وواريت الأحبة في التراب
وقد عزوا علي، وأسلموني ... معًا، فلبست بعدهم ثيابي

فلما عرف عمر القصة، تألم وقال: «أستغفر الله! والله ما علمت، ولا رضيت. ومن أنا حتى يقف ببابي شيخي عبيد الله؟ بل أنا الذي أسعى إليه فيأذن لي أو يردني!!».

واعتذر عمر إلى عبيد الله حتى رضي ولزمه حتى مات في حياة عمر. وكان عمر كلما جاء ذكره يثني عليه ويمدحه، فيقول وهو خليفة: «ليت لي مجلسًا من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بدية» أو يقول: «لو كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة حيًّا ما صرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي يوم من عبيد الله غرمًا». أو يقول: «لو أدركني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة إذ وقعت فيما وقعت فيه لهان علي ما أنا فيه!!».

كما جاء في «الأغاني» هذا الخبر الذي يبعد علينا أن نصدقه في حق عمر بن عبد العزيز:

فقد روي أن عمر كان يجلس إلى عبيد الله، فبلغه أن عمر قد انتقد بعض صحابة الرسول، فلما جاء عمر إلى عبيد الله لم يلتفت إليه، وكان عمر عاقلًا، فقال لعبيد الله: «يا أبا محمد، إن لك لشأنًا، فإن رأيت لي عذرًا فاقبل عذري!».

فقال له عبيد الله: «أتتَّهم رسول الله ﷺ في حديثه!.

قال عمر: «أعوذ بالله!».

قال عبيد الله: «يقول الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. وأنت تقع في فلان، وهو ممن بايع، فهل بلغك أن الله سخط عليه بعد أن رضي عنه؟!».

فاعتذر عمر وقال: «والله لا أعود أبدًا!».

* * *

ومن دلائل معرفة عمر لأقدار الرجال أنه بعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقًا: فأما يزيد فأخذ الأجر، وأما الحارث فأباه. فلما علم عمر بذلك قال: «أنا لا نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد!».

وهكذا عرف عمر لكل منهما صنيعه، وأدرك منزلته، وأرضاه في حكمه... مع أنهما تصرفا تصرفين متضادين.

ولقد دخل على عمر شيخ من أهل الشام فقال له: «يا أمير المؤمنين، إني دخلت مصر مع مروان، وغزوت دير الجماجم، وغزوة كذا وكذا، فتأمر لي بشيء». فقال له عمر: «اجلس أيها الشيخ!».

وهنا نهض غلام من أبناء الأنصار وقال:

«يا أمير المؤمنين، أنا فلان بن فلان، أبي ممن شهد العقبة، وشهد بدرًا وأحدًا... ثم ذكر عدة من الغزوات». فقال عمر: «أين الشيخ الذي ذكر ما ذكر؟ فقام الشيخ وقال: ها هو ذا أنا يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: «هذه هي المكارم، لا ما تعده أيها الشيخ منذ اليوم:

تلك المكارم، لا قعبان من لبن شيبًا بماء فعادا بعد أبوالا

خذوا حاجة الفتى!».. ثم أمر عمر بقضاء حاجته!

* * *

ولم يكتف عمر رضوان الله عليه بعرفان أقدار اللامعين من الرجال، أو المشهورين من الأبطال... بل كان يعرف كذلك أقدار الخيرين من المغمورين، ولا يعنيه في هذا العرفان أن يكون صاحب القدر حرًّا أو عبدًا، مالكًا أو مملوكًا، مشهورًا أو مجهولًا، فحسبه أن يعرف المعدن الكريم أينما كان فيقدره قدره، ويحسن ذكره.

لقد كان لمحمد بن كعب القرظي غلام مولى اسمه «سالم»، وكان عابدًا خيرًا، فطلب عمر من ابن كعب أن يبيعه هذا الغلام، فقال له ابن كعب: «لقد دبرته، فلا يصح بيعه». فطلب عمر من ابن كعب أن يجعل سالمًا يزوره ليتحدث إليه، فجاء سالم إلى عمر زائرًا، فقال له عمر وقد أعجبه دينه وتقواه:

«إني قد ابتليت بما ترى، وأنا والله أتخوف ألا أنجو».

فقال له سالم: «إن كنت كما تقول فهذا نجاتك، وإلا فهو الأمر الذي تخاف!!».

فقال عمر: «يا سالم، عظنا».

فقال سالم: «آدم ﷺ على خطيئة واحدة أخرج من الجنة، وأنتم تعملون الخطايا ترجون تدخلون بها الجنة؟!»... وسكت.

في رواية أخرى أن عمر قال له: «يا سالم، إني أخاف ألا أنجو».

قال سالم: «إن كنت تخاف فنعما، لكني أخاف عليك ألا تخاف. إن الله أسكن عبدًا دارًا، فأذنب فيها ذنبًا واحدًا، فأخرجه من تلك الدار... فنحن أصحاب ذنوب كثيرة نريد أن نسكن هذه الدار!!».

* * *

وكما عرف عمر للأخيار أقدارهم، عرف للأشرار أخطارهم وأضرارهم. وكما أثنى على الفضلاء بالذي هو خير، قال في الأراذل -أو الذين يعتقد أنهم أراذل على أقل تقدير- ما يؤمن بأنهم يستخفونه من نقد وذم.

يتولى عمر الخلافة، ويرد المظالم إلى أهلها، ويصلح المفاسد التي فعلها من كان قبله من بني أمية، فيغضب من ذلك الإنصاف عمر بن الوليد بن عبد الملك، فيكتب إلى عمر الكتاب الشديد العنيف التالي:

«إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم، بغضًا لهم وشنآنًا لمن بعدهم من أولادهم... قطعت ما أمر الله به أن يوصل، إذ عملت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورًا وعدوانًا.

يا ابن عبد العزيز! اتق الله وراقبه إن شططت... لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أولي قرابتك بالظلم والجور. فوالذي خص محمدًا ﷺ بما خصه به، لقد ازددت من الله بعدًا في ولايتك هذه، إذ زعمت أنها عليك بلاء... فأقصر بعض ميلك، واعلم بأنك بعين جبار وفي قبضته، ولن تترك على هذا».

فإذا بعمر يرد عليه بكتاب أشد منه وأعنف، يكيل فيه لعمر بن الوليد بالكيل الوافي، ويعرفه قدره ومكانته فيقول له فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى عمر بن الوليد:

السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. أما بعد، فإنه بلغني كتابك، وسأجيبك بنحو منه.

أما أول شأنك يا ابن الوليد -كما زعم- فأمك «بنانة» أمة السكون، كانت تطوف في سوق حمص، وتدخل في حوانيتها، ثم الله أعلم بها. اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين، فأهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس المحمول وبئس المولود!

ثم نشأت فكنت جبارًا عنيدًا!...

تزعم أني من الظالمين لأني حرمتك وأهل بيتك فيء الله ﷻ الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبيًا سفيهًا على جند المسلمين، تحكم بينهم برأيك، ولم تكن له في ذلك نية، إلا حب الوالد لولده... فويل لك وويل لأبيك! ما أكثر خصماءكما يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟

وإن أظلم مني، وأترك لعهد الله، من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب، يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام!...

وإن أظلم مني، وأترك لعهد الله، من استعمل قرة بن شريك أعرابيًّا جافيًا على مصر، وأذن له في المعازف واللهو الشرب!...

وإن أظلم مني، وأترك لعهد الله، من جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس العرب!...

فرويدًا رويدًا يا ابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفيء إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك، فوضعتهم على المحجة البيضاء... فطالما تركتم الحق، وأخذتم في بنيات الطريق. وما وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته: بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل، فإن لكل فيك حقًّا.

والسلام علينا، ولا ينال سلام الله الظالمين!».

وفي رواية أن عمر كتب يقول لابن الوليد: «إن أظلم مني وأجور من ولى عبد ثقيف (الحجاج) العراق، فحكم في دمائهم وأموالهم. وإن أظلم مني وأجور، وأترك لعهد الله، من ولى «قرة» مصر جلفًا جافيًا. وإن أظلم مني وأجور، وأترك لعهد الله، من ولى عثمان بن حيان الحجاز، فأنشد الأشعار على منبر رسول الله ﷺ... وإنما أمك كانت تختلف إلى حوانيت حمص، فاشتراها ذبيان بن ذبيان فبعث بها إلى أبيك، فحملت... فبس الجنين وبئس المولود، ثم وضعتك جبارًا شقيًّا. لقد هممت أن أبعث إليك من يحلق جمتك، فبئس الجمة!».

ومن خبرة عمر بالرجال، طيبهم وخبيثهم، أنه كان يدقق فيما يقدم إليه من تهم، وكان يلاحظ ما في الاتهامات من حق أو باطل، ثم يتذكر مع ذلك مكانة المدعي بالتهمة ومكانة المطعون عليه بها، فيكون له من وراء ذلك التدقيق، وتلك الملاحظة، ما

يدنيه من الحكم العادل الملهم، وما يبعده عن مواطن الظلم وحمى الشبهات...

لقد ولى عمر مثلًا الوليد بن هشام المعيطي على جند «قنسرين»، وكان الفرات بن مسلم حينئذٍ على خراج «قنسرين»، فلم يتوافقا، بل اختلفا وتباغيا، حتى بلغ الأمر بالوليد أن هيأ أربعة من كهول قنسرين ليشهدوا زورًا وبهتانًا على «الفرات» بأنه يترك الصلاة، ويفطر في شهر رمضان وهو مقيم صحيح، ولا يغتسل من الجنابة، ويجامع زوجته وهي حائض!!...

وقدم الشهود الزور الأربعة على عمر، وشهدوا بهذه الشهادة وهم مختضبون بالحناء. فعجب عمر من شهادتهم عجبًا شديدًا، وأدرك ما فيها من افتعال وافتراء، فقال لهم:

«هذا رمقتموه في صلاته فلم يصلها، إما تركها متعمدًا وإما ساهيًا، ورأيتموه يفطر في شهر رمضان ولا ترون به سقمًا... ما أعلمكم أنه لا يغتسل من الجنابة، وأنه يأتي زوجته وهي حائض؟! والله ما هذا مما يشتم به، ولا سيما الفرات في مثل عفافه وأمانته!!».

ثم قال عمر لغلامه: «يا غلام، انطلق بهؤلاء المشيخة السوء إلى صاحب الشرط، فمره فليضرب كل واحد منهم عشرين سوطًا على مفرق رأسه، وليرفق في ضربه لمكان أسنانهم، وبحسبهم من الفضيحة ما هم صائرون إليه، إن لم يتغمد الله ما كان منهم بعفوه، ثم استوثق منهم بالكفلاء، حتى يكون الفرات هو الآخذ بحقه منهم، أو العافي عنهم... والعفو أقرب للتقوى، وأقرب إلى الله ﷻ!».

ثم أصلح عمر بين الوليد والفرات.

وإليك موقفًا آخر بطلاه الوليد والفرات أيضًا، وهو أقوى دلالة على ذكاء عمر وفطنته وخبرته بالرجال:

في العام التالي لعام الحادثة السابقة، كتب عمر إلى الفرات ليقدم عليه ففعل. وقدم الوليد، ومعه رءوس أنباط قنسرين، على عمر -وكان الفرات جالسًا خلف سرير عمر حين دخل الأنباط- فسألهم عمر عن هيئة استقبالهم للفرات حين مرروه عليهم في طريقه إلى الخليفة، فقال لهم: «ماذا أعددتم لأميركم في نزله لمسيره إلي؟». قالوا: «وهل قدم يا أمير المؤمنين؟». قال: «أما علمتم به؟». قالوا: «لا والله يا أمير المؤمنين».

فأقبل عمر بوجهه على الوليد، وقال له: «يا وليد، إن رجلًا ملك قنسرين وأرضها، وخرج يسير في سلطانه وأرضه، حتى انتهى إلي، لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحدًا ولا يروعه... لخليق أن يكون متواضعًا عفيفًا!».

قال الوليد: «أجل والله يا أمير المؤمنين إنه لعفيف، وإني له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه!».

فقال عمر: «ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار!».

ورد عمر الوليد والفرات على عملهما، فكتب الوليد إلى عمر يخادعه ويتزين أمامه بما ليس فيه، فقال: «إني قدرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقي (راتبي) يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحط فضل ذلك!».

فقال عمر: «أراد الوليد أن يتزين عندنا بما لا أظنه عليه... ولو كنت عازلًا أحدًا على ظن لعزلته».

ثم أمر بإنقاص رزقه إلى القدر الذي سأله، ثم كتب عمر إلى يزيد بن عبد الملك، وهو ولي العهد من بعده، يقول: «إن الوليد بن هشام كتب إلي كتابًا أكثر ظني أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظني ما عمل لي أبدًا، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب... فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث، وأفضى هذا الأمر إليك، فسألك أن ترد إليه رزقه، وذكر أني نقصته، فلا يظفر منك بهذا أبدًا، فإنما خادع به الله، والله خادعه!!».

ومضت الأيام، ومات عمر، وتولى يزيد الخلافة، وتحقق ظن عمر، إذ كتب الوليد بن هشام إلى يزيد يقول: «إن عمر نقصني وظلمني!!». فغضب عليه يزيد، وبعث إليه فعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، ولم يل له عملًا بعد ذلك!

ولا نستطيع أن ننسى، في مقام الحديث عن معرفة عمر بالرجال، رأيه في الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو رأي لا يسرّ الحجاج في كثير ولا قليل... فعمر أولًا يجعله أحد خمسة، يعتقد أنهم ملئوا الدنيا ظلمًا وجورًا، فقد قال عمر في آخر إمارته للمدينة: «الوليد بن عبد الملك بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حبان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر... امتلأت الأرض، والله، جورًا!!».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه عدي بن أرطاة يحذره أن يعمل شيئًا من أعمال الحجاج السيئة، فهو يقول له:

«أما بعد، فإني كتبت إليك بكتب كثيرة، أرجو بذلك الخير من الله تعالى والثواب عليه، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج بن يوسف، وأرغب عنها وعن اقتدائك بها، فإن

الحجاج كان بلاء وافق خطيئة قوم بأعمالهم، فبلغ الله ﷻ في مدته ما أحب من ذلك، ثم انقطع ذلك، وأقبلت عاقبة الله ﷻ.

ونهيتك عن فعله في الصلاة، فإنه كان يؤخرها تأخيرًا لا يحل له. ونهيتك عن فعله في الزكاة، فإنه كان يأخذها في غير حقها، ثم يسيء مواضعها، فاجتنب ذلك منه، واحذر العمل به، فإن الله ﷻ قد أراح منه، وطهر العباد والبلاد من شره، والسلام».

وكتب إليه أيضًا: «بلغني أنك تستن بسنن الحجاج، فلا تستن بسنته، فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة لغير حقها، وكان لما سوى ذلك أضيع!».

وكتب عمر إلى مبشر بن أبي الفرات ينهاه عن ختم بيادر أهل الذمة، ويقول له: «بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج، وأنا أكره أن أتأسى به!!».

ولما خرج أبو مسلم الثقفي الذي كان سيافًا للحجاج ضمن بعث المسلمين، رده عمر من «دابق» وقال: «ليس بمثله يستعين المسلمون في قتال عدوهم»... ورد عطاءه من ألفين إلى ثلاثين!

واستعمل عمر عاملًا، ثم عرف أنه كان يعمل مع الحجاج، فعزله، فأتاه الرجل يقول: «إني لم أعمل مع الحجاج إلا قليلًا». فأجابه عمر: «حسبك من صحبة شر يوم أو بعض يوم!!».

ويتجلى رأي عمر في الحجاج بوضوح عنيف صارخ حينما نجده يقول عنه: «لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة، فأخرجت كل أمة خبيثها، ثم أخرجنا لهم الحجاج لغلبناهم!!».

أجوبة عُمَريّة

من علمه هذا؟

قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز: «قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك».

فقال عمر: «وصلك الله يا أمير المؤمنين: فقد أجزلت العطية، وكفيت المسألة!».

فأعجب عبد الملك برده، فقال بعض أولاد عبد الملك: «هذا كلام تعلمه فأداه!».

فانتظر عبد الملك حتى دخل عليه عمر يومًا فقال له: «كيف نفقتك؟».

فقال عمر: «الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين».

قال عبد الملك: «وما هما؟».

قال عمر: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

فقال عبد الملك لأولاده: «من علمه هذا».

معنى التناوش

سأل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أباه عن معنى «التناوش» في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [سبأ: ٥٢].

فقال عمر: «سألت عن التناوش، وهي التوبة، طلبوها حين لم يقدروا عليها».

إنك لتجيء بالعجب

حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرف على عقبة عسفان نظر سليمان إلى عسكره، فأعجبه ما رأى من حجراته وأبنيته، فقال سليمان: «كيف ترى ما ها هنا يا عمر؟».

قال عمر: «أرى دنيا يأكل بعضها بعضًا... أنت المسئول عنها، والمأخوذ بها فيها!».

وطار غراب من حجرة سليمان ينعب، في منقاره كسرة، فقال سليمان: «ما ترى هذا الغراب يقول؟».

أجاب عمر: «أظنه يقول: من أين دخلت هذه الكسرة، وكيف خرجت؟!».

فقال سليمان: «إنك لتجيء بالعجب يا عمر!».

كيف نخلعه ونتركك؟

راود الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز على أن يخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد، فقال عمر: «يا أمير المؤمنين، إنا بايعناكما في عقدة واحدة، فكيف نخلعه ونتركك؟!».

فكيف بالنقمة؟

خرج سليمان بن عبد الملك إلى الطائف، ومعه عمر بن عبد العزيز، فرأى برقًا وسمع رعدًا، ففزع وقال لعمر: «أما ترى؟... ما هذا يا أبا حفص!؟». قال عمر: «هذا عند نزول رحمته (يعني المطر)، فكيف لو كان عند نزول نقمته؟!».

كيف لو جاءك عذابه؟

بينما عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك بعرفات، إذ برقت السماء ورعدت رعدًا شديدًا، ففزع سليمان، ونظر إلى عمر، فإذا هو يضحك، فقال له: «يا عمر، أتضحك وأنت تسمع ما تسمع؟».

قال عمر: «يا أمير المؤمنين، هذه رحمة الله قد أفزعتك، كيف لو جاءك عذابه؟!».

خصماؤك يا أمير المؤمنين

نظر سليمان بن عبد الملك إلى جموع الناس في الحج، وكان معه عمر بن عبد العزيز، فقال سليمان: «ما أكثر الناس!».

قال عمر: «هم خصماؤك يا أمير المؤمنين!».

فقال سليمان: «ابتلاك الله بهم!».

رد المظالم

خرج سليمان بن عبد الملك إلى بعض البوادي، فارتفعت سحابة، فجاءت برعد وبرق وصواعق، ففزع سليمان ونادى على عمر بن عبد العزيز فقال: «يا عمر، يا عمر!» -وكان بنو أمية إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز- فأجاب عمر: «هاأنذا». وأقبل عليه.

قال له سليمان: «ألا ترى؟».

قال عمر: «يا أمير المؤمنين، إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟».

فدفع إليه سليمان مائة ألف درهم قائلًا: «خذ هذه وتصدق بها».

فقال عمر: «أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟».

قال سليمان: «وما هو؟».

قال عمر: «قوم صحبوك في مظالم لهم، لم يصلوا إليك!».

فاتعظ سليمان، وجلس فرد المظالم!...

عوجل أبوك

لما مات سليمان بن عبد الملك أدخله قبره عمر بن عبد العزيز وابن لسليمان، فاهتز على أيديهما فقال ابن سليمان:

«عاش والله أبي!».

فقال عمر: «لا والله، ولكن عوجل أبوك!».

تبعة الراعي

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أحس بجلال التبعة عليه نحو الأمة، فقال له مولاه: «يا أمير المؤمنين، كأنك مهتم؟».

قال عمر: «لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممت. إنه ليس من أمة محمد في مشرق ولا مغرب أحد إلا له قبلي حق يحق عليّ أداؤه إليه، غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني!!».

التلطف في قضاء الحاجة

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «إن من قرابتي كذا».

قال عمر: «إن ذاك!».

قال: «وإني أريد أن يكلم لي أمير المؤمنين في كذا وكذا».

قال عمر: «لعل ذاك!».

ثم قال عمر: «فقضيت حاجة الرجل وما يشعر!».

لطف التعبير

كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه، لا يتكلم بشيء من الخنا. وقال أبو عبيد: «ما رأيت رجلًا قط أشد تحفظًا في منطقه من عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ».

وذات يوم خرج له خُرَّاج في إبطه فقالوا: أي شيء عسى أن يقول الآن؟...

فقالوا له: «يا أبا حفص، أين خرج منك هذا الخراج؟».

قال: «في باطن يدي!».

وكان جماعة عند عمر، فقال رجل لرجل: «تحت إبطك». فقال عمر: «وما على أحدكم أن يتكلم بأجمل ما يقدر عليه».

قالوا: «وما ذاك؟».

قال عمر: «لو قال: «تحت يدك» لكان أجمل!».

لقاء الرجال

سهر جعفر بن محمد الرباحي عند عمر بن عبد العزيز ليلة، وكأنما خشي جعفر أن يثقل على عمر فقال له: «يا أمير المؤمنين، ما يبقى منك تعب النهار مع سهر الليل؟».

قال عمر: «لا تفعل يا أبا العالية، فإن لقاء الرجال تلقيح لألبابها!».

بئس الخاطب

مر عمر بن عبد العزيز على رجل بيده حصاة يلعب بها وهو يقول: «اللهم زوجني من الحور العين!».

فقال عمر: «بئس الخاطب أنت... ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء؟».

دين الصبي والأعرابي

سأل رجل عمر بن عبد العزيز عن الأهواء والشكوك فقال له عمر:

«عليك بدين الصبي الذي في الكتاب والأعرابي (يعني الذي اهتدى وآمن) والْهَ عما سواهما».

بين الدين والدنيا

قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه:

«يا أبت، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟... فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك».

فقال عمر: «يا بني، إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا لهذه، ويسكنوا لهذه!».

الأكباد الجائعة أولى

كتبوا إلى عمر بن عبد العزيز كي يأمر للبيت بالكسوة المعتادة للكعبة، كما كان يفعل من كان قبله، فقال: «إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنها أولى بذلك من البيت!».

بيت المال للإنفاق

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه يقول: «إنك قد أضررت ببيت المال!».

فرد عليه عمر: «أعط ما فيه، فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلًا!».

أنا حجيج المسلمين

كان وهب بن منبه واليًا لعمر بن عبد العزيز على بيت مال اليمن، فكتب إلى عمر: «إني فقدت من بيت المال دينارًا».

فرد عليه: «إني لا أتهم دينك ولا أمانتك، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم، ولأخسهم عليك أن تحلف، والسلام!».

حسبك قليل الشر

استعمل عمر بن عبد العزيز عاملًا، فبلغه أنه عمل للحجاج فعزله، فأتاه يعتذر إليه بقوله: «إنني لم أعمل للحجاج إلا قليلًا». فقال عمر: «حسبك من صحبة شر يوم أو بعض يوم».

وكان عمر يبغض الحجاج بغضًا شديدًا لمظالمه.

بين الظالم والمظلوم

كان رياح بن عبيدة قاعدًا عند عمر بن عبد العزيز فذكر الحجاج، فشتمه رياح، ووقع فيه فأكثر... فقال عمر: «مهلًا يا رياح، إنه بلغني أن الرجل ليظلم، فلا يزال المظلوم يشتم الظالم ويتنقصه حتى يستوفي حقه، ويكون للظالم الفضل عليه».

حصنها بالعدل

كتب بعض العمال إلى عمر بن عبد العزيز يقول: «أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالًا نرمها به، فعل».

فرد عليه عمر: «أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم... فإنه مرمتها، والسلام!».

الحلال الطيب

كتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبد العزيز يستعفيه من الخراج، فرد عليه عمر:

«يا ابن مهران، إني لم أكلفك بغيا في حكمك وفي جبايتك، فأجب ما جبيت من الحلال، ولا تجمع للمسلمين إلا الحلال الطيب».

الاقتصاد بالإيجاز

كتب إلى عمر بن عبدالعزيز عامل من عماله يشكو قلة القراطيس، فأجابه:

«أدق قلمك، وأقل كلامك، تكتف بما قبلك من القراطيس!».

ابذل جهدك

استعمل عمر بن عبد العزيز ميمون بن مهران على الجزيرة، ليقضي بين أهلها، ويجمع خراجها، فكتب إليه ميمون يقول:

«كلفتني ما لا أطيق... أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق».

فأجابه عمر: «اجب الخراج الطيب، واقض ما استبان لك، وإذا التبس عليك أمر فارفعه إلي... فإن الناس لو كانوا إذا كثر عليهم شيء تركوه، ما قام لهم دين ولا دنيا».

كان محمد هاديًا لا جابيًا

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يخبره أن كثيرين ممن وجب عليهم الخراج يدخلون في الإسلام ليسقط عنهم الخراج، كما أمر بذلك عمر، فأجابه:

«إن الله لم يبعث محمدًا ﷺ جابيًا، وإنما بعثه هاديًا. والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا، حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا!».

منزلتا سوء

دخل ميمون بن مهران على عمر بن عبد العزيز، وعنده عامله على الكوفة، فإذا عمر متغيظًا عليه، فقال ميمون: «ما له يا أمير المؤمنين؟».

قال عمر: «بلغني أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه!».

فقال ميمون: «يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن بفاعل» (أي إنه يهدد ويبالغ).

قال عمر: «انظروا إلى هذا الشيخ... إن منزلتين أحسنهما الكذب لمنزلتا سوء!».

زهد الواجد

صلى عمر بن عبد العزيز الجمعة بالناس وهو خليفة، وعليه قميص مرفوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين، إن الله أعطاك، فلو لبست؟!».

فنكس عمر مليًّا، ثم رفع رأسه وقال: «إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة!».

أهون من عذاب جهنم

دخل عمر بن عبد العزيز على امرأته فاطمة بنت عبد الملك، فقال لها: «يا فاطمة، عندك درهم أشتري به عنبًا؟!».

قالت: «لا!». ثم أقبلت عليه فقالت: «أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنبًا؟».

فأجابها: «يا فاطمة، هذا أهون علينا من معالجة الأغلال في جهنم!».

نموذج في التورع

وضعوا بين يدي عمر بن عبد العزيز قطعة كبيرة من المسك كانت من بيت المال، فوضع عمر يده على أنفه فسده، فقالوا له: «يا أمير المؤمنين، إنما هو ريح!».

فأجابهم: «وهل ينتفع منها إلا بريحها؟!».

تطهير اللسان

قيل لعمر بن عبد العزيز: «ما تقول في أهل صفين؟».

فقال: «تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها!!».

الحرص على النصيحة

دخل على عمر بن عبد العزيز أخ له فقال: «إن شئت كلمتك، وأنت عمر، فيما تكره اليوم وتحب غدًا، وإن شئت كلمتك، وأنت أمير المؤمنين، فيما تحبه اليوم وتكرهه غدًا».

قال عمر: «بل كلمني، وأنا عمر، فيما أكره اليوم وأحب غدًا!».

كلنا سواسية

قال عمر بن عبد العزيز لجارية له: «روحيني». فأقبلت تروحه حتى نام، ثم نامت... واستيقظ فوجدها نائمة، فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت فصاحت...

فقال لها عمر: «إنما أنت بشر مثلي، أصابك من الحر ما أصابني، وأحببت أن أروحك مثلما روحتني!».

الرجل لا يستخدم ضيفه

قال رجاء بن حيوة: «سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز فاعتل السراج، فذهبت أقوم أصلحه، فأمرني عمر بالجلوس، ثم قام فأصلحه، ثم عاد فجلس، فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز.. ولؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه!».

كيف أصبحت؟

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين، كيف أصبحت؟».

فأجاب: «أصبحت بطينًا متلوثًا في الخطايا أتمنى على الله الأماني!».

الخوف من الثناء

مدح رجل عمر بن عبد العزيز في وجهه، فقال له عمر:

«يا هذا، لو عرفت من نفسي ما أعرف منها ما نظرت في وجهي!».

الفضل للإسلام

قيل لعمر بن عبد العزيز: «جزاك الله عن الإسلام خيرًا».

فقال: «فلا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا!».

التقي ملجم

نال رجل من عمر بن عبد العزيز فقيل له: «ما يمنعك منه؟»

فأجاب عمر: «إن التقي ملجم!».

شاهد زور

قام رجل إلى عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر فقال: «أشهد أنك من الفاسقين».

فرد عليه عمر بقوله: «وما يدريك وأنت شاهد زور لا نجيز شهادتك!».

استدراج للسفهاء

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «هذا رجل يسبك»، فأعرض عنه عمر، ثم قال الثانية، فأعرض عنه، ثم قال الثالثة، فقال عمر: «إن الله يستدرجه من حيث لا يعلم».

سؤال وجواب

خرج عمر بن عبد العزيز ليلة ومعه أحد الحرس، فدخل المسجد، فمر في الظلام برجل نائم، فعثر به، فرفع الرجل رأسه وقال لعمر، وهو لا يعرفه ولا يراه: «أمجنون أنت؟».

فأجابه عمر في هدوء: «لا».

وهم الحارس أن يبطش بالرجل، فمنعه عمر قائلاً: «مه! إنما سألني: أمجنون أنت؟ قلت: لا!».

استفزاز الشيطان

اسمع رجل عمر بن العزيز كلامًا سيئًا، فحلم عليه عمر وقال له: «أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تنال مني غدًا»... ثم أعرض عمر عن الرجل وعفا عنه.

لوعة الذكرى

بكى عمر بن عبد العزيز يومًا حتى أبكى من في بيته، وهم لا يدرون سبب بكائه، ثم قالت له زوجته فاطمة بعد أن تجلى عنه العسر: «بأبي أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟».

فأجاب: «ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله: فريق في الجنة، وفريق في السعير!»، ثم صرخ وغشي عليه...

التفكر في الآخرة

كان عمر بن عبد العزيز يومًا ساكتًا وأصحابه يتحدثون، فقيل له: «ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟».

أجاب: «كنت مفكرًا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها!».

ثم بكى!...

الفرح أمامها

اشترى عمر بن عبد العزيز جارية أعجمية، فقالت بلغتها: «أرى الناس فرحين، ولا أرى هذا يفرح!».

فسأل عما تقول، فقيل له إنها تقول كذا وكذا، فقال: «ويحها، حدثوها أن الفرح أمامها!».

العالم المتكلم أفضل

قال بعض العلماء وهو جالس عند عمر بن عبد العزيز: «الصامت على علم كالمتكلم على علم!».

فقال عمر: «إني لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلهما يوم القيامة حالاً، وذلك لأن منفعته للناس، وهذا -يعني الصامت- صمته لنفسه».

فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين، وكيف بفتنة المنطق؟».

فبكى عمر بكاءً شديدًا.

وهو يشير بذلك إلى ما يروى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «بارك الله لرجل في حاجة أكثر الدعاء فيها، أعطيها أو منعها».

أحمق الناس

قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: «أخبروني من أحمق الناس؟».

قالوا: «رجل باع آخرته بدنياه».

قال عمر: «ألا أنبئكم بأحمق منه؟».

قالوا: بلى!

قال: «رجل باع آخرته بدنيا غيره!».

الحياة الطيبة

دخل عبد الأعلى بن هلال على عمر بن عبد العزيز فقال له: «أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خيرًا لك».

قال عمر: «قد فرغ من ذلك يا أبا النضر، ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة، وتوفاك مع الأبرار».

ادع بالصلاح

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «أبقاك الله».

فقال عمر: «قد فرغ من هذا، فادع لي بالصلاح!».

سيد قومه

قال عمر بن عبد العزيز لرجل: «من سيد قومك؟».

قال الرجل: «أنا!».

قال عمر: «لو كنت سيدهم ما قلت!».

لم لا يعهد إلى ولده؟

لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ظل أبوه يثني عليه، فقال له مسلمة بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين، أرأيت لو بقي أكنت تعهد إليه؟».

قال عمر: «لا».

قال مسلمة: «لم وأنت تثني عليه هذا الثناء؟».

قال عمر: «لولا أني أخاف أن أكون قد زُين في عيني من أمره ما زين في عين الوالد من الولد لرأيت أنه أهل للخلافة!!».

توطين النفس على القضاء

لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب بعض الناس إلى عمر يعزيه، فأجابه عمر:

«أما بعد، فإن هذا أمر كنا وطنا أنفسنا عليه، فلما نزل لم نكره... والسلام».

محبة لقاء الله

لما اشتد مرض الموت بعمر دعوا له طبيبًا، فلما نظر إليه قال: «إن الرجل قد سقي السم، ولا آمن عليه الموت!».

فرفع عمر بصره وقال: «وأنت لا تأمن الموت أيضًا على من لم يسق السم!».

قال الطبيب: «هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟».

قال عمر: «نعم قد عرفت حين وقع في بطني».

قال الطبيب: «فتعالج يا أمير المؤمنين، فإني أخاف أن تذهب نفسك».

قال عمر: «ربي خير مذهوب إليه. والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني... اللهم خر لعمر في لقائك».

فلم يلبث أيامًا حتى مات!

الهدية لنا رشوة

أتي رجل عمر بن عبد العزيز بتفاحات، فأبى أن يقبلها، فقال له الرجل: «قد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية!».

فقال عمر: «كانت الهدية لرسول الله ﷺ هدية، وهي اليوم لنا رشوة، ولا حاجة لي بها».

وليهم الله

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز، وهو في مرض موته، فقال له: «يا أمير المؤمنين، إلى من توصي بأولادك؟».

وكان مسلمة يطمع أن يوصي إليه بهم، فقال عمر: «إذا نسيت الله فذكرني!».

ثم عاد مسلمة يقول له: «إلى من توصي بأولادك؟».

فأجاب: «إن وليي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين!!».

أكره المباهاة

خطب عمر بن عبد العزيز يوم عيد فأبكى الناس جميعًا من رقة كلامه، ثم توقف عن الحديث والناس ينتظرون أن يمضي فيه، ونزل. فقال له رجاء بن حيوة: «يا أمير

المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه!».

فقال عمر: «يا رجاء، إني أكره المباهاة!».

العدل أمامك

رفعت إلى عمر بن عبد العزيز قصة مظلوم، فكتب عليها:

«العدل أمامك».

الزوجان سيان

شكا رجل زوجته إلى عمر بن عبد العزيز، فوقع على شكواه بقوله:

«أنتما في الحق سيان!».

بين أب وابنه

شكا رجل ابنه إلى عمر بن عبد العزيز، فوقع على شكواه بقوله:

«إن لم أنصفك فأنا ظلمتك!».

متى يكون الخير؟

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «نحن بخير ما أبقاك الله!».

فأجابه عمر: «أنت بخير ما اتقيت الله تعالى!».

حسن البيان

كره عمر بن عبد العزيز قول الرجل لصاحبه: ضعه تحت إبطك. وقال: «هلا قلت: تحت يدك أو تحت منكبك؟!».

وذات يوم كان عمر مع سليمان بن عبد الملك، وأخرج فرس روثًا من بطنه، فقال عمر: «ارفعوا ذلك النثيل». ولم يقل: ذلك الروث.

اختلافهم سعة ورحمة

عن رجاء بن جميل قال:

«اجتمع عمر بن عبد العزيز والقاسم بن محمد، فجعلا يتذاكران الحديث. قال: فجعل عمر يجيء بالشيء مخالفًا فيه القاسم، وجعل ذلك يشق على القاسم حتى تبين فيه. فقال له عمر: لا تفعل، فما يسرني أن لي باختلافهم حمر النعم».

وذكر ابن وهب عن نافع عن أبي نعيم عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أنه قال: «لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولًا واحدًا كان الناس في ضيق. وإنهم أئمة يهتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة!!».

اعرف قدرك

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى فصًّا بألف درهم فتختم به، فكتب إليه عمر:

«بلغني أنك اشتريت فصًّا بألف درهم، فعزيمة مني عليك لما بعت الفص الذي اشتريته، وتصدقت بثمنه، واشتريت فصًّا بدرهم، وكتبت عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه!».

نفسي مطيتي

دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه، وهو في قائلته، فأيقظه، وقال: «ما يؤمنك أن تؤتى في منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها؟».

قال عمر: «يا بني، إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني. إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلا قليلًا حتى أسقط ويسقطوا. وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي... إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزله الآية والآيتين، حتى استكمل الإيمان في قلوبهم».

ثم قال: «يا بني، ما مما أنا فيه أمر هو أهم إلي من أهل بيتك: هم أهل العدة والعدد، وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي، ولكني أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه، فيكون أنجح له... فإن يرد الله تمام هذا الأمر أتمه، وإن تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته!».

السحر الحلال

قال عمر بن عبد العزيز لمن أحسن الكلام في طلب حاجته: «هذا والله السحر الحلال!».

دعني وما أنا فيه

كان لعمر بن عبد العزيز غلام يقال له «درهم»، وكان يحتطب له، فقال له عمر بعد أن مضت أيام وهو خليفة: «ما يقول الناس يا درهم؟».

قال: «وما يقولون؟ الناس كلهم بخير، وأنا وأنت بشر».

قال عمر: «وكيف ذلك؟».

قال درهم: «لقد عهدتك، قبل الخلافة، عطرًا لباسًا، فاره المركب، طيب الطعام. فلم وليت، رجوت أن أستريح وأتخلص... فزاد عملي شدة، وصرت أنت في بلاء».

قال عمر: «فأنت حر، فاذهب عني، ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجًا».

الإحسان في غير موضعه

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى فيها عطايا عظيمة لأناس يعرفهم وهم أغنياء، فقال لعمر بن عبد العزيز: «كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟».

قال عمر: «رأيتك زدت أهل الغنى غنًى، وتركت أهل الفقر كما هم!».

اجعلها في بيت المال

قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: «إني قد اشتهيت الحج. فهل عندك شيء؟».

قال مزاحم: «عندي بضعة عشر دينارًا».

قال عمر: «وما تقع مني؟».

ثم مكث مزاحم قليلًا، وقال لعمر: «يا أمير المؤمنين، تجهز فقد جاءنا مال: سبعة عشر ألف دينار من بعض أموال بني مروان».

فقال عمر: «اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالًا فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حرامًا فكفانا ما أصابنا منها!».

فثقل ذلك على مزاحم، ورأى عمر ذلك، فقال:

«ويحك يا مزاحم! لا يكبرن عليك شيء صنعته لله، فإن لي نفسًا تواقة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة... وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة!».

أصلح جيب قميصك

لما نودي بعمر بن عبد العزيز خليفة على المسلمين، أقبلت عليه جموع الناس تبايعه، واشتد زحامهم، وكان ابنه موجودًا، فتمزق جيب قميصه، فقال له عمر: «يا بني، أصلح جيب قميصك، فإنك لم تكن قط أحوج إلى ذلك منك اليوم!!».

ماذا تقول لربك؟

دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه يستعجله الإصلاح دفعة واحدة بقوله:

«يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل غدًا لربك إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، أو سنة فلم تحيها؟».

قال عمر: «يا بني، أهذا شيء حملتك الرعية إلي، أم رأي رأيته؟».

قال عبد الملك: «بل رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت أنك مسئول فيما أنت قائل».

قال عمر: «رحمك الله وجزاك من ولد خيرًا، فإني والله لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير... يا بني، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقًا تكثر فيه الدماء. والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم... أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟!».

اتق الصرعة عند الغفلة

دخل رجاء بن حيوة على عمر بن عبد العزيز، وهو في مرضه، فقال له: «يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك توصيه وتخوفه».

قال عمر: «والله إني لأعلم أنه من بني مروان».

فقال رجاء: «يكون حجة عليه، وعذرًا لك عند الله».

فأمر عمر كاتبه أن يكتب إليه: «أما بعد يا يزيد، فاتق الصرعة عند الغفلة: فلا تقال العثرة، ولا يقدر على الرجعة، وتترك ما تترك من لا يحمدك، وتنقلب إلى من لا يعذرك، والسلام».

لا تدنسوا علي ديني

قال عمر بن عبد العزيز لأولاده مختبرًا لهم: «كيف أنتم إذا وليت كل رجل منكم جندًا؟».

فقال ابنه ابن الحارثية: «لم تعرض علينا أمرًا لا تريد أن تفعله؟».

فقال عمر: «أترون بساطي هذا؟ إنه لصائر إلى بلى، وإني أكره أن تدنسوه بخفافكم، فكيف أرضى أن تدنسوا علي ديني؟!».

لا خير في خير يجيء بالسيف

قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: «يا أمير المؤمنين: ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟... فوالذي نفسي بيده ما أبالي أن لو غلت بي وبك القدور!».

قال عمر: «وحق هذا منك؟».

قال عبد الملك: «نعم والله».

قال عمر: «الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني... يا بني، إني لو باهت (أي واجهت) الناس بالذي تقول، لم آمن أن ينكروه، فإذا أنكروه، لم أجد بدًّا من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف. يا بني إني أروض الناس رياضة الإبل الصعبة، فإن بطأ بي (أي اتسع لي) عمري رجوت أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تعد على منيتي، فقد علم الله الذي أريده!!».

أحذركم مصرعي هذا

قالوا لعمر بن عبد العزيز وهو على فراش الموت: «اعهد يا أمير المؤمنين!».

فقال: «أحذركم مصرعي هذا، فإنه لا بد لكم منه. وإذا وضعتموني في قبري، فانزعوا عني لبنة ثم انظروا ما لحقني من دنياكم هذه!!».

نقش النقود

ضربوا لعمر بن عبد العزيز فلوسًا، فكتبوا عليها: «أمر عمر بالوفاء».

فلما رآها غضب وقال: «كسروها واكتبوا: أمر الله بالوفاء والعدل!».

نازعني منازعة كريمة

جاء إلى عمر بن عبد العزيز مصري من حلوان يقول: إن عبد العزيز بن مروان (والد عمر) قد اغتصب منه ضيعة أثناء ولايته على مصر. واشتط المصري في خطابه مع عمر، فحلم عليه عمر، وقال له:

«نازعني منازعة كريمة، ولا تشتم عرضي، فإن لي فيه شركاء: أخوة وأخوات، وهؤلاء لا يرضون أن أرد لك الضيعة بغير القضاء... والرأي أن نذهب إلى القاضي!».

وذهبا إلى القاضي، فحكم للمصري بالضيعة، فقال عمر: «فقد أنفقنا عليها ألف ألف درهم!».

فأجاب القاضي: «قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها، فردوها لصاحبها!».

فقال عمر: «بارك الله عليك أيها القاضي!».

ورد عمر الضيعة إلى المصري!

أطعني كما أطعتك

قال عمر بن عبد العزيز، وهو خليفة، لمؤدبه: «كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤذيني؟».

قال: «أحسن طاعة!».

قال عمر: «فأطعني الآن كما كنت أطيعك: خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى يبدو عقباك؟!».

بين الرانفة والصفن

دخل عمر بن عبد العزيز يومًا على عمه عبد الملك بن مروان وهو يتجانف في مشيته (يميل في سيره من وجع).

فقال له: «يا عمر، ما بالك تمشي غير مشيتك؟».

قال عمر: «إن في جرحًا».

فقال عبد الملك: «وأين هو من جسدك؟».

قال عمر: «بين الرانفة والصفن»... يعني بين طرف الإلية وجلدة الخصية.

فقال عبد الملك لروح بن زنباع: «بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب بمثل هذا الجواب؟!».

عمر بن عبد العزيز والمكفوفون

المكفوفون هم أولئك الأشقاء الذين حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار، فامتحنتهم بذلك النقص الحسي، لحكمة قد تخفى حينًا، وقد تستعلن أحيانًا.

وقد جرينا في عصور الظلمات على إهمال أولئك المكفوفين، والتغافل عنهم... بل درج كثير منا على السخرية بهم، والتندر عليهم، والقسوة في معاملتهم. وتنبه الغربيون منذ زمن بعيد إلى الواجبات الكثيرة المفروضة على المجتمع المتمدن المتحضر نحو المكفوفين، فأخذ هؤلاء الغربيون يقومون بأداء هذه الواجبات في صبر ومثابرة، حتى رأينا المكفوفين في البيئات الغربية المتحضرة ينالون حظوظهم الوفيرة من التنشئة الكريمة، والتعليم النافع، والنتاج المثمر، والاشتراك في الحياة العامة بكل ما استطاعوا من وسائل...

ومر علينا وقت طويل ونحن نسمع عن جهود الغربيين التي بذلوها في سبيل النهوض بالمكفوفين ورعايتهم. وكان الواجب علينا أن نساير هذه النهضة، وأن نعني بالمكفوفين بيننا كما عنوا بالمكفوفين بينهم... بل كان لزامًا علينا أن نسبقهم ونبزهم في هذا المضمار، لأن بلادنا هي بلاد المكفوفين، إذ إن نسبة المكفوفين في الشرق أضخم كثيرًا من نسبتهم في الغرب، ولكننا مع الأسف تأخرنا كثيرًا في الالتفات إلى واجباتنا نحو هؤلاء الأشقاء.

وإذا كنا قد قصرنا في الماضي فطال منا التقصير وقبح، فمن الممكن لنا أن نمحو عن أنفسنا عيب هذا التقصير الفاضح بمضاعفة العناية بشئون المكفوفين، حتى نتدارك ما فاتنا، وندرك سوانا... بل ونسبقهم كما يوجب علينا ذلك ديننا ووطننا وكثرة

المكفوفين فينا كثرة مؤلمة!

ونحمد الله كثيرًا على أن العناية بالمكفوفين بيننا قد بدأت وظهرت وسارت، وأخذت تزيد وتنمو مع الأيام. وقد أنشئت بيننا جمعيات ومعاهد ومصانع ومراكز لتدريب المكفوفين وتعليمهم ورعايتهم، وتعويدهم ما يمكن من الحرف والصناعات والأعمال الإنتاجية، ولا زلنا نرجو المزيد من هذه الجهود.

والواقع أننا حينما نطالب قومنا بالعناية بالمكفوفين، والالتفات إلى تدريبهم وتعليمهم ومعاونتهم، لا نريد أن نكون مقلدين للغربيين فحسب... بل نحن نستجيب في ذلك لدعاء المواريث الكريمة التي ورثناها عن آبائنا العظام وعن أجدادنا في عصور الإسلام المزهرة. وإذا كان الغربيون يحاولون أن يفخروا علينا بأنهم كانوا أسبق منا في العناية بشئون المكفوفين، وبأنهم -فيما يوهمون- المبتكرون الأوائل لتلك العناية، فإنه من الممكن لنا أن نرد عليهم فخرهم وازدهاءهم، وأن نذكرهم بأن الإسلام الحنيف قد عرف للمكفوفين منذ أكثر من ألف عام مكانتهم وحقوقهم، وندب إلى مساعدتهم ومعاونتهم، واحترام أشخاصهم وحقوقهم... وهناك في تاريخ الإسلام العاطر أبطال وأعلام فعربوا المثل الكريمة الصالحة في حسن الرعاية لهؤلاء المكفوفين، ولنذكر من بينهم على سبيل المثال خامس الراشدين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليهم.

لقد كان لعمر بن عبد العزيز أرض في «السويداء»، استخصبها من حر ماله وخالص جهده. وكانت هذه الأرض تدر عليه غلة تقدر بمائة وخمسين دينارًا، أو بمائتي دينار. وجاءته هذه الغلة وأسرته في حاجة إليها للإنفاق منها على مطالب لهم، فلما

وضعت بين يديه جاء إليه مولاه مزاحم، وذكره بحاجة أسرته إلى المال. ولكن عمر لم يستجب له، بل قال لمن حوله: «انظروا الشيخ الجزري المكفوف الذي كان يغدو بالأسحار، فخذوا له ثمن قائد: لا كبير فيقهره، ولا صغير يضعف عنه». ففعلوا ذلك، ثم قال عمر لمزاحم مولاه: «أنفق ما بقي في مطالب أهلي!».

وفي رواية ابن عبد الحكم أن عمر لما جاءه المال قال: «دلوني على رجل مكفوف ليس له قائد». وبينما القوم يتذاكرون إذ قال عمر: «لقد وقعت عليه، وقد ذكرته، وهو الشيخ الجزري المكفوف، يأتي في الليلة المظلمة الماطرة يتكمّه (أي يتصرف تصرف الأكمه الذي ولد مكفوفًا) فلا يدري أين يتوجه، ليس له قائد، أخرجوا له ثمن قائد، لا كبير يقهره، ولا صغير يضعف عنه». فأخرجوا له من غلة السويداء خمسة وثلاثين دينارًا، وأمر باتفاق الباقي على عياله حتى يخرج لهم العطاء مع المسلمين.

ومعنى هذا أن أمر المكفوفين كان يشغل بال عمر بن عبد العزيز ويقض مضجعه، وأنه قدم معاونة واحد منهم ومساعدته بقائد على قضاء حاجات أسرته وأولاده. وكان هذا أيضًا منذ أكثر من ألف عام، إذ تولى عمر الخلافة سنة تسع وتسعين، وتوفي سنة إحدى ومائة. ولو أن كل قادر من المسلمين -منذ كان عمر- اقتدى بعمر، وفعل مثلما فعل، لما وجدنا اليوم بيننا مكفوفًا يشكو الحيرة والاضطراب.

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بهذه العناية الفردية الكريمة بشئون المكفوفين، بل نقل هذه العناية من المحيط الفردي الشخصي إلى المحيط العام، إلى محيط الأمة والدولة والحكومة المسلمة، فقد أصدر أمرًا بأن يوزع على كل مكفوف في الرعية غلام يقوده من غلمان الأسرى الرقيق الذين غنمتهم الدولة في حروبها.

وهناك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه موقف لا ينساه المكفوفون ولا أصدقاء المكفوفين. فقد حدثت في حياته حروب بين المسلمين والروم، وحدث أن أرسل عمر وهو خليفة إلى ملك الروم رسولًا في بعض المفاوضات. ولما أنهى الرسول مهمته هم بالعودة إلى عمر، فمر بموضع فسمع فيه رجلًا يقرأ القرآن الكريم، ويدير طاحونة يطحن عليها حبًّا. فتعجب الرسول ودنا من الرجل، وألقى عليه السلام مرة أخرى، فإذا بالرجل القارئ يجيبه قائلًا: «وإني بالسلام في هذا البلد؟!»... وتطلع الرسول فرأى الرجل القارئ مكفوف البصر، فأعلمه بأنه رسول عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم، وسأله عن شأنه وقصته، فقال له الرجل:

«إني فلان ابن فلان، وقد أسرت في موضع كذا، وأتوا بي إلى ملك الروم، فعرض علي الدخول في النصرانية فأبيت، فقال لي مهددًا: إن لم تفعل سملت عينيك (أي فقأتها بحديدة محماة) ففضلت ديني على بصري، فسمل عيني، وصيرني إلى هذا الموضع، وهو يرسل إليّ كل يوم بحنطة فأطحنها، وخبزة فآكلها»... فحزن الرسول من ذلك، وأخبره أنه سيبلغ أمره إلى الخليفة عمر...

وعجل الرسول بالعودة، ولما انتهى إلى عمر قص عليه قصة المسلم المكفوف. وهنا يروي الرسول قائلًا: «فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلت ما بين يديه !».

وسارع عمر فكتب إلى ملك الروم يقول: «أما بعد فقد بلغني خبر فلان ابن فلان». وقص عليه قصته كما بلغته من الرسول، ثم قال: «وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندي!».

سار الرسول بالكتاب إلى ملك الروم مسرعًا متعجلًا، فلما بلغه قال له الملك: «ما أسرع ما رجعت!». فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: «ما كنا لنحمل الرجل الصالح -يعني عمر- على هذا، بل نبعث إليه به». وبقي الرسول ينتظر تنفيذ ذلك. وذات يوم ذهب الرسول إلى الملك يستنجزه وعده ليعود، فوجده قاعدًا على الأرض قد نزل عن سريره، وعلى وجهه كآبة، وحينما رأى الرسول قال له: «أتدري لم فعلت هذا؟». قال: «لا، وقد أنكرت ما رأيت!» فقال الملك: «إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، فلذلك فعلت ما رأيت!».

وكان عهد عمر بن عبد العزيز عهد سلام وأمان ومصافاة شملت القريب والبعيد. ثم قال الملك: «إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلًا حتى يخرج من بين أظهرهم». فقال له الرسول: «أتأذن لي أن أنصرف؟»... وكان قد يئس من أخذ الرجل المكفوف، فقال له الملك: «ما كنا لنجيبه إلى أمر في حياته، ثم نرجع» فيه بعد مماته!. وأرسل معه المسلم المكفوف!

إن هذه الحادثة حين يؤيدها التحقيق التاريخي تعد شاهدًا ذهبيًّا رائعًا على عناية عمر بن عبد العزيز بشأن المكفوفين في ذلك العهد القديم بالنسبة إلينا، كما تعد من أقوى الدوافع التي تحرضنا على الاقتداء والاهتداء... فيا ليت قومي يعلمون.

ومن مظاهر عناية عمر بن عبد العزيز بالمكفوفين تكريمه لذكرى الراحلين من المكفوفين الذين كانت لهم أعمال مأثورة. يقول ابن عبد الحكم: «وأتى عمر بن عبد العزيز رجل من الأنصار فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ في بلاء أبي.

قال: وما كان بلاؤه؟

قال: يا أمير المؤمنين، إن أبي كان أعمى من الأنصار، وإن امرأة من المشركين كانت تؤذي النبي ﷺ، فقال أبي: أما لهذه المرأة أحد يكفيها النبي ﷺ؟ أقعدوني على طريقها، فإذا مرت فآذنوني. فأقعدوه على طريقها، فلما مرت آذنوه بها، فوثب عليها، فضربها حتى قتلها.

فقال عمر:

تلك المكارم، لا قعبان من لبن   شيبًا بماء فعادا بعد أبوالا

وقضى عمر حاجة هذا الرجل وأكرمه!.

عمر بين الجود والاقتصاد

قد يعجب المطالع في سيرة الخليفة الخامس والإمام العادل عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينما يرى أخبارًا كثارًا تدل على جوده وكرمه وسخائه، وأخبارًا كثارًا تدل على اقتصاده وتقتيره وتشدده. وربما عز على المطالع أن يهضم هذه الأخبار التي تبدو كالمتناقضة، أو ربما عز عليه أن يعللها ويوفق بينها.

وربما تعجل فوصف الخليفة العادل بأنه من أصحاب الشخصية المزدوجة على النحو المعروف في القصة المشهورة «دكتور جيكل وسمتر هايد»، حيث نرى صاحبها رحيمًا غاية الرحمة حينًا، قاسيًا غاية القسوة حينًا آخر.

ولكن المتبع لسيرة عمر، المتمعن في أخباره، يستطيع أن يجمع بين هذه الأنباء في نظام، دون أن يجد خلالها تنافرًا أو تناقضًا، ودون أن يجد في شخصية عمر ازدواجًا أو تعقدًا... فهو قبل الخلافة كان مترفًا متلافًا، سمحًا جوادًا، يذيل ثيابه، ويسرف في عطره، ويدخل في طيبه القرنفل والعنبر بكثرة، وتأتيه جبة الخز الغالية الثمن، الرقيقة الحاشية، الناعمة الملمس، فيعدها خشنة، ويتسع طعام داره حتى يقول: «لقد رأيتني وكنا لو ضافني أهل قرية لوجدت ما يعمهم».

وكان أثناء ذلك -كما يحدث التاريخ- من أعطر الناس، وألبسهم، وأخيلهم في مشيته... يعرفه الناس برائحته الطيبة من بعيد، ويتنافسون على غسل ثيابهم في الماء الذي غسلت فيه ثيابه، ويحاول الجواري تقليده في مشيته ذات الخيلاء، ويجلب له التجار بدائع الثياب من هنا وهناك.

وهو يفعل ذلك لأنه شاب، ولأنه يملك ذات نفسه ولا يسأل عن غيره، ولأنه في

وسط ثري غني قادر. فجده خليفة، وعمه خليفة، وزوجته بنت خليفة، والمال من حوله كثير وفير... وحسبك في تبيان جوده وسخائه قوله: «ما أعطيت أحدًا مالًا إلا وأنا أستقله. وإني لأستحيي من الله ﷻ أن أسأله الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل!».

ثم نرى عمر بن عبد العزيز في الخلافة، فإذا هو يشدد على نفسه، ويضيق في أمر ذاته. وإذا نحن نراه وقد طبق نظام الاقتصاد والتقتير على نفسه بعنف لا مثيل له: فلبس الصوف بعد الحرير، واستلان الخشن من الصوف، وقد كان قبل الخلافة يستخشن الناعم من الحرير، وأكثر من أكل العدس حتى قال خادمه يومًا متضايقًا: «كل يوم عدس؟»، وأكل الثوم المسلوق بالزيت والملح، ولبس المرقع البالي، وصار عنده -وهو الخليفة- قميص واحد، يتسخ فينزعه ليغسل، وينتظره حتى يجف. ويوقد الشمعة من بيت المال لينظر على ضوئها في شئون المسلمين، فإذا انتهى من ذلك، وانتقل إلى شأنه، أبى أن يستضيء بها وأطفأها. وهزل هزالًا شديدًا حتى استبانت أضلاعه، وقد كان من قبل سمينًا تغيب حجرة إزاره في طيات بطنه.

ويقول له بعض الناس: «يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست؟!»... فيخفض رأسه مليًّا ثم يقول: «إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة».

وإنما يفعل عمر ذلك، لأنه قد صار خليفة على المسلمين، وأصبح راعيًا لهم، مسئولًا عنهم... فانقضى ذلك الفراغ، وذهبت تلك الحرية أو السعة في الوقت والرغبة، وولى عهد الانطلاق في رحاب الترف والدعة، وأقبل عهد التبعة والواجب

والاهتمام لأمر الأمة والسهر من أجل الرعية... ولقد خب عمر رضي الله عنه وعب، ولكل شيء نهاية، وتطلعت عينه إلى الكثير من أمور الحياة، فما استعصت عليه أمنية، فلم يبق إلا التطلع إلى الخلود الدائم، والمجد الصحيح... إلى أداء الواجب، وابتغاء رضوان الله.

ويترجم عمر عن ذلك التغيير فيقول: «كانت لي نفس تواقة، فكنت لا أنال شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أعظم منه، فلما بلغت نفسي الغاية تاقت إلى الآخرة!»... والرجل المشتاق إلى الآخرة لا يهتم بالدنيا، ولا يحرص عليها بل يفر منها، ويتباعد عنها، ولو كان بالأمس مقبلًا عليها آخذًا منها.

ولكن تشدد عمر على نفسه وبيته لم يتجاوزه إلى غيره فبينما نراه آخذًا نفسه وأسرته بكل شدة وقسوة، فارضًا على بيته التقشف المثالي والزهد البالغ... نراه يرفق بالرعية، ويوسع لها، ويحمل إليها حقوقها في أمانة وإحسان. وإذا كنا نراه في بعض الأحيان يراجع، أو يحاسب، أو يعاقب على إسراف، أو يلوم على إفراط، أو يدعو إلى اعتدال... فلم يكن ذلك بخلًا منه ولا شحًّا، ولم يكن إعناتًا أو إرهاقًا. ولكنها شرعة القصد التي دعا إليها الإسلام في الغنى والفقر، وأسلوب العدل الذي حبب الإسلام فيه عند الرضا والغضب، وطريقة الاقتصاد التي يكثر بها القليل ويدوم الكثير.

ومن الخير أن نفرق هنا بين الاقتصاد والبخل: فالاقتصاد حكمة وتدبير وتوفير، والبخل كزازة وشح وتقتير: والاقتصاد عدل وإنصاف، والبخل ظلم واعتساف. والاقتصاد توسط وإعداد، والبخل كنز وسوء اعتقاد.

ويظهر الاقتصاد بصورة أوضح إذا لم يكن في مالك، بل في مال غيرك... لأن مال الغير لا يثير رغبة في حفظه، فإذا حافظت عليه مع ذلك ظهر الدليل على الحكمة والإخلاص.

ويظهر معنى الاقتصاد أكثر وضوحًا من ذي قبل، ويختفي معنى الشح حينئذٍ، إذا كان المرء في ماله كريمًا جوادًا، وفي مال الناس مقتصدًا مديرًا... وكذلك كان عمر رضي الله عنه.

وثمة شيء آخر... لو كان هذا الاقتصاد ظاهرًا في شأن عمر وحياته منذ نشأته لكان لظن الظانين به السوء مجال، ولأمكن أن يقال أن هذا بخل أو ازدواج شخصية، ولكن عمر كان كريمًا معطاء قبل الخلافة، وكان كريمًا معطاء بعد الخلافة... بل كان كريمًا معطاء طيلة حياته.

وإذا كان قد تشدد، فإنما تشدد على نفسه وأهله ابتغاء وجه الله والدار الآخرة وإذا كان قد حاسب على إسراف، فذلك هو التأديب الواجب، والحرص على مال الله ومال المسلمين. وإذا كان قد دعا إلى تدبير أو اقتصاد، فإنما من حسن الرعاية ودقة الولاية... وليس المسئول عن نفسه كالمسئول عن الأمة بأسرها. وقديمًا صور جده الفاروق عظم هذه التبعة حين قال: «لو عثرت دابة على شط الفرات لخشيت أن أُسأل عنها: لماذا لم أمهد لها الطريق؟»... وحين اعتبر نفسه مسئولًا عن الحبل يضيع في الفلاة!!

إذن لم يكن ابن عبد العزيز باخلًا ولا شحيحًا، بل كان عادلًا قاصدًا... والقصد -كما تقول العربية- هو استقامة الطريق، ومنه الاقتصاد. والاقتصاد المحمود ما كان بين طرفي الإفراط والتفريط: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾.

والاقتدار المعجب في الشخص العظيم هو أن يجمع بين الصفتين يراهما عامة الناس كالضدين، ولكنه يحسن الجمع بينهما: فيكون في الأولى حميدًا، وفي الأخرى مجيدًا... وكذلك كان ابن عبد العزيز في كرمه واقتصاده!

لقد كان عمر بن عبد العزيز، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبل توليه الخلافة مترفًا معطاء، لباسًا معطارًا، ذا خيلاء. ولكنه لما تولى أمر الناس التفت إلى الأمانة، ونهض بالتبعة، وانصرف عن الكثير من رغابه وطلابه، وأمسك عن الكثير من إنفاقه وبذله... وما كادت مقاليد الخلافة تلقى في يده حتى أمر بالستور فهتكت، والثياب والفرش التي كانت تبسط للخلفاء فحملت، وأمر ببيعها وإدخال ثمنها بيت المال، وقال لزوجته فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان -وكان عندها جواهر لم ير الناس مثلها، أخذتها من أبويها-: «اختاري: إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك... فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد». فقالت: «بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي»... وردت كل ذلك إلى بيت المال!

ورد عمر جميع الهدايا التي قدمها الناس إلى الخليفة من قبل، ومزق الكتب التي سجلت فيها أشياء من هذا القبيل، وبدأ في ذلك بنفسه وأهله.

قال ابن أبي سبرة: «لما رد عمر المظالم قال: إنه لينبغي ألا أبدأ بأول من نفسي، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع، فخرج منه، حتى نظر إلى فص خاتم، فقال: هذا مما كان الوليد أعطانيه مما جاء من أرض المغرب، فخرج منه».

ولما ذكروه بأولاده وما يحتاجون إليه قال: «أَكِلهم إلى الله». ورد جميع القطائع، كما رد الطيب والدواب والحرس الذين كانوا مخصصين له، وعمد إلى ما كان يجري على أهل بيوت الخلفاء من أرزاق خاصة وعطايا جسيمة فقطعها كلها بلا استثناء. ولما جاءت عمته ترجوه أن يرد إليهم ما جاءهم عن طريق من سبقه، مانع وأبى، فقالت له: «إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا» -كأنها تهدده بثورتهم عليه- فقال واثقًا: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره».

ووسطوا بعد ذلك ابنه عبد الملك قائلين له: «إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا، ويعرف لنا مواضعنا، وإن أباك قد حرمنا ما في يده»، فأخبر عبد الملك أباه بذلك، فقال: «قل لهم: إن أبي يقول لكم: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم».

ولقد أقبل عمر خليفة، فوجد الإسراف ضاربًا أطنابه، ووجد المظاهر تستبد بالأمراء والسلاطين، فيرهقون فيها أنفسهم، ويرهقون الناس معهم، ووجد العطايا للطالبين، والهدايا للشعراء والمادحين... ولا بد من يد ضابطة تعدل وتقتصد، فكانت تلك اليد هي يد عمر بن عبد العزيز.

* * *

إذن هذا رجل قد قسا على نفسه أشد القسوة، وأخذ أسرته وأقاربه بالعزم والحزم، ولم يخش في نهجه لومة لائم، ولم يبال أن يتعب نفسه ومن معه ومن بعده غاية التعب، ما دام ذلك في مرضاة الله.

فهل يكون ذلك الإصلاح والتشدد والصرامة مدعاة لكي يشتط أو يعنف أو يجحف؟... هل يكون ذلك مدعاة لدخوله في باب الكزازة والشح والبخل المضر بالناس، المفضي إلى القبيح من الأمور؟ أو هل يكون ذلك مدعاة إلى القول بأن عمر قد تغير في سماحة نفسه وكرم عنصره؟... أو هل يكون ذلك -على الأقل- مدعاة للقول بأنه صاحب «شخصية مزدوجة»؟!

لا شيء من ذلك على الإطلاق فيما نرى ويرى كل منصف للحقيقة والتاريخ... فعمر بن عبد العزيز لا يزال الكريم الجواد، ولا يزال الرقيق اللين، ولا يزال سائرًا على صراط العدالة والإنصاف، وإذا كان قد اشتد في أمر نفسه وأمر أهله وذوي قرباه،

فذلك ليعطي القدوة للناس، وليبعد الشبهة عن حِماه، وليحقق ما يريد من رضا الله وإيثار الآخرة، وضرب المثل الصالح للحاكم الشفيق والإمام العادل.

لم يكن تدقيقه إبان الخلافة ناشئًا عن حرص طارئ بعد سماح نفس وانبساط يد. وكيف وهو الذي يعيب الحرص فينعاه على سواه، ولو كان من ذوي قرباه... فيروي مالك بن أنس أن عمر بن عبد العزيز قال لسليمان بن عبد الملك: «صحبت آباءك فما رأيت حرصًا يشبه حرصهم على الدنيا، ماتوا وتركوها أقذر ما كانوا عليها».

وإذا كان عمر قد قسا على نفسه، وصدها عما كان معتادًا لها قبل خلافته، فقد استبان كرمه ورأفته بجماعة المسلمين، إذ يحدث ضمرة عن الوليد بن راشد فيقول: «زاد عمر الناس في أعطياتهم عشرة عشرة، العربي والمولى سواء».

فهذه الزيادة السمحة هنا على المسلمين، عربهم ومواليهم، مع ذلك التشديد البين هناك على نفسه وأهله، مما ينادي بأن عمر لم يتغير في سماحته وكرمه، بل بقي على أريحيته وجوده، وانضم إلى ذلك شعور عميق عنده بالتبعة التي ألقيت على عاتقه، وإحساس قوي بتلك العقبة الكنود التي لا يتخطاها المسلم إلى جنة ربه إلا بالصدق والإخلاص وحسن الجهاد: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وها هو ذا عمر، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يمضي في سنته الخيرة البارة، فيواصل إعطاءه لمستحقي الإعطاء من العاملين والفقهاء، ونراه يكتب إلى واليه على حمص قائلًا: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا... وإن خير البر عاجله، والسلام عليك».

رضوان الله على ابن عبد العزيز. لقد صدق، فخير الخير عاجله، ولا يقول هذا إلا أريحي نبيل، ولا يهدي إلى مثل ذلك الصنيع إلا كريم مطبوع.

ويكتب إلى والي حمص أيضًا يحرضه على مساعدة العلماء ومعاونة القارئين والمحدثين، حتى يتفرغوا لقراءتهم وعلمهم، وحتى لا تشغلهم مطالب حياتهم عن رسالتهم، فيقول له: «مر لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم، لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث».

ولعل ذلك الصنيع من أقدم السنن المشكورة في التاريخ، التي تعمل على تهيئة الجو الصالح لطلاب العلم والمعرفة.

ولقد بعث عمر يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن تمجد الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقًا، فقبل يزيد العطاء، ورفضه الحارث. فكتب عمر يقول: «إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد الأشعري».

ومعنى هذا أن المال يعطى لمستحقه وعند الحاجة إليه، فإذا أراد المرء أن يجعل عمله تطوعًا لاقتداره على شئون حياته من جهة أخرى، فبها ونعمت، وكفى الله بيت مال المسلمين مئونة تذهب بلا غرض أو طلب!

وعمر الذي يقسو على أهله، ويشدد على أولاده، ويحرم نفسه، هو الذي تنبسط يده بالخير لطالبه... فهذا دكين بن سعيد الدارمي التميمي الراجز[1] كان منقطعًا إلى

(١) هو غير دكين بن رجاء، واشتبها على ابن قتيبة في طبقات الشعراء، فجعلهما واحدًا. وقد توفي دكين بن سعيد سنة ١٠٦هـ.

عمر بن عبد العزيز، حين كان واليًا على المدينة، يسامره مع ابن عون وسالم بن عبد الله، فلما تولى عمر الخلافة قصده دكين، فلما استأذن عليه،قال له الحاجب: إنه في شغل برد المظالم (وهي الحقوق التي ظلم بنو أمية الناس بأخذها منهم)، فترقب دكين خروج عمر للصلاة، فلما خرج ناداه فقال:

يـــا عمـــر الخـــيرات والمكـــارم وعمـــر الدســـائع العظـــائم[1]
إني امـــرؤ مـــن قطـــن بـــن دارم طلبـــت دينـــي مـــن أخـــي مكـــارم
بيـــع يمـــين بالإخـــاء الـــدائم إذا تنتحـــى والله غـــير نـــائم
ونحـــن في ظلمـــة ليـــل عـــائم عنـــد أبي عـــون وعنـــد ســـالم!

فدخل عمر على أمهات أولاده، فما زال يجمع من عندهن العشرة والعشرة حتى جمع له ثلاثمائة، فأعطاه إياها!

* * *

وعمر بن عبد العزيز الذي يشدد على نفسه التشديد الذي عرفناه، هو الذي يحرص الحرص كله على أن يصل إلى المسلمين جميع حقوقهم، لا يتأخر منها حق عن موعده، ولا ينقص منها حق قليلًا كان أو كثيرًا. وهذا الحرص الكريم إن دل على شيء فإنما يدل على أن عمر لا يعرف الإمساك عن شح أو بخل، أو كنز أو تضييق... ولكنه حسن التصرف، مع حكمة التدبير، مع عدم التقصير.

كتب إليه بعض ولاته يقول: «إن الناس لما سمعوا بولايتك تسارعوا إلى أداء الزكاة، فقد اجتمع من ذلك شيء كثير، ولم أحب أن أحدث فيها شيئًا، حتى تكتب إلي برأيك».

---

(١) الدسائع: العطايا.

فكتب إليه عمر: «لعمري ما وجدوني وإياك على ما ظنوا، ما حبسك إياها إلى اليوم؟ فأخرجها حين تنظر في كتابي».

ويظهر أنها كانت زكاة الفطر، والمقصود بها هو التوسعة على الفقراء في مناسبة العيد بعد الإفطار، فالخير أن تصل إلى أيدي مستحقيها بلا تأخير... وهذا ما حرص عليه عمر.

ويزيد عمر هذا المعنى تأكيدًا حين نراه يكتب إلى عدي بن أرطاة خطابًا يبين له فيه الأعمال التي كرهها عمر من «الحجاج بن يوسف»، ويحذره أن يأتي مثلها. ومن الخطاب قوله: «ونهيتك عن فعله في الزكاة، فإنه كان يأخذها في غير حقها، ثم يسيء مواضعها. فاجتنب ذلك منه، واحذر العمل به». وأقل ما يفهم من هذا أن عمر لا يحب أن يؤخذ شيء بغير حق، وألا يوضع شيء في غير موضعه، وألا يضار مسلم في أمر.

ويكتب إلى ميمون بن مهران يقول: «يا ابن مهران، إني لم أكلفك بغيًا في حكمك ولا في جبايتك، فأجب ما جبيت من الحلال، ولا تجمع للمسلمين إلا الحلال الطيب».

ويبغ ابن عبد العزيز قمة الإحسان في باب النفقة والإعطاء، وهو خليفة، حين يكتب إليه بعض عماله -كما يحدث إسماعيل بن عياش- قائلًا: «إنك قد أضررت بيت المال» (أي لكثرة ما ينفقه في مصالح المسلمين) فيكتب إليه عمر: «أعط ما فيه، فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلًا!».

وهذه الكلمة الصريحة الوافية لا تترك وراءها شكًّا لشاك في أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يعرف في سبيل المصلحة العامة ومنفعة المسلمين تقتيرًا أو تقديرًا، فإنه لعلى استعداد لأن يأتي على ما في بيت المال عن آخره، ما دام في ذلك الاستئصال فائدة للأمة ومنفعة للجماعة.

وقريب من هذا ما حدث به جابر بن حنظلة الضبي، قال: كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز:

«أما بعد، فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج». فكتب إليه عمر يقول: «فهمت كتابك. ووالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون، أنا وأنت، حراثين، نأكل من كسب أيدينا».

وأعطى عمر لبعض ولاته مالًا ليتصدق به في الرقة، وقال لواليه: «لا تقسمه إلا على نهر جار». فقال له: «إنه يأتيني من لا أعرف، فمن أعطي؟». قال: «أعط من مد يده إليك».

* * *

ولكن أيكون معنى هذه السعة في الإنفاق والإعطاء أن يصير الأمر فوضى، فلا ضابط ولا نظام؟ أيكون معناها أن يتطفل على بيت المال من يستحق ومن لا يستحق؟ أيكون معناها أن تغفل عين الراعي عن ملاحظة الرعية فيستوي هاضم ومهضوم؟... ذلك ما لا يكون.

فعمر مع كرمه وإحسانه، وأريحيته وحبه للإنفاق والإعطاء: لا يقبل الإهمال والتفريط، ولا يرضى عن بذل القليل في غير موضعه فضلًا عن الكثير، ولا يسكت عن تضييع اليسير بله الكبير.

كان وهب بن منبه على بيت مال اليمن، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز: «إني قد فقدت من بيت مال المسلمين دينارًا».

فرد عليه عمر يعيب عليه إهماله وتضييعه، ويعرض لوهب بالإنذار والتحذير، ويقول:

«إني لا أتهم دينك ولا أمانتك، ولكني أتهم تضييعك وتفريطك، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم (أي المدافع عن حقوقهم)، ولأخسهم عليك أن تحلف، والسلام!».

إنك ترى هنا احتياطًا في عدم اتهام الدين أو الأمانة، فقد يكون وهب بريئًا لا شبهة فيه، ولكنا نرى بعد هذا -أو معه- دقة في الرقابة، وفي دينار واحد فقط... فلا بد من الحلف عليه!

وكتب إليه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم -وكان عامله على المدينة- ثلاثة كتب: يطلب في أولها زيادة في العطاء لأناس كبروا، وفي ثانيها يطلب شمعًا يوقد بين يديه وهو في طريقه إلى المسجد، ويطلب في ثالثها أن يبني مسجدًا انهدم لبني النجار أخوال رسول الله ﷺ.

فأجابه عمر عنها بكتاب واحد قال فيه:

«سلام عليك، أما بعد -فقد جاءني كتابك تذكر أن أشياخًا من الأنصار قد بلغوا أسنانًا، ولم يبلغوا الشرف من العطاء... وإنما الشرف شرف الآخرة، فلا أعرفن ما كتبت به إلي في نحو هذا.

وجاءني كتابك تذكر أن من كان قبلك من أمراء المدينة كان يجرى عليهم رزق من شمع، ولعمري، يا ابن أم حزم، لطالما مشيت إلى مسجد رسول الله ﷺ في الظلمة، ولا يمشى بين يديك بالشمع، ولا يوجف خلفك أبناء المهاجرين والأنصار... فارض لنفسك اليوم ما كنت ترضى به قبل اليوم.

وجاء في كتابك تذكر أن بني عدي بن النجار أخوال رسول الله ﷺ انهدم مسجدهم. وقد كنت أحب أن أخرج من الدنيا لم أضع حجرًا على حجر، ولا لبنة على لبنة... فإذا أتاك كتابي هذا، فابنه لهم بلبن بناءً قاصدًا، والسلام عليك».

هذه أمور ثلاثة يعرضها ابن حزم على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وهي كلها أمور مالية تستدعي نفقة، ولكن الخليفة يأبى أمرين، ويرتضي الثالث رغم مخالفته لما كان انتواه...

يأبى الزيادة لقوم في العطاء مع اكتفائهم بما فرض لهم، ولا يرى التقدم في السن وحده مسوغًا للزيادة في العطاء عن سائر المسلمين، ويأبى أن ينفق على شمع يضاء بين يدي الوالي، لأن هذا مظنة الإسراف، ولأن الناس يلحظون على الوالي ما لا يلحظونه على سواه، ولأن الوالي نفسه قد ألف السير إلى المسجد من قبل دون شمع يضاء... رفض الأمرين، مع تسويغ الرفض بدليل وبرهان، ومع التلميح الخفيف بالتعريض المذكر المؤنب.

ولكن الأمر الثالث ليس من هذا القبيل... إنه بناء مسجد تهدم، والمسجد لأخوال الرسول عليه الصلاة والسلام، فهل لعمر أن يرفض؟... ولكن عمر كان انتوى أن لا يضع لبنة على لبنة... فماذا يفعل؟ أيجعل الحكم هنا نيته ورغبته؟ أم الحق والخير؟

تغلب الحق والخير، فأمر عمر ببناء المسجد. وهكذا تنجلي الحكمة من عمر في أمور الرعية وشئون المال.

ويضرب ابن عبد العزيز، رضوان الله عليه، فنونًا شتى من الأمثلة في التحذير من الإسراف في الباطل، أو الإنفاق بلا موجب. وتتناول تلك الأمثلة أشياء قد يظنها عامة

الناس من توافه الأمور. ولكن المعلم المربي يتذكر دائمًا أن معظم النار من مستصغر الشرر، وأن القليل إلى القليل كثير، وأن النهر الكبير الواسع الهدار الموار، كان بالأمس جدولًا صغيرًا هادئًا... وإذن فلا بد من ملاحظة الأمور في مبادئها وفواتحها، حتى لا تفضي إلى عواقب يصعب معها القيادة والتوجيه.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة ينهاه عن الإسراف في ماء الوضوء فيقول: «أما بعد -فإنه لغني أن قومًا إذا توضئوا رفعت طساس[1] من أيديهم قبل أن تمتلئ، وذلك من زي الأعاجم أخذوه. فإذا أتاك كتابي هذا فلا ترفعوا طستًا حتى يمتلئ، أو يفرغ من آخر القوم!».

ويكتب إليه عامل من عماله يشكو قلة القراطيس، فيجيبه عمر: «أدق قلمك، وأقل كلامك، تكتف بما قبلك من القراطيس!».

ويظهر أن الورق كان نادرًا، ولذلك دعا عمر إلى الاقتصاد فيه... كما أنه أحسن في التوجيه إلى تدقيق القلم، فإنه يؤدي إلى حسن الخط وحسن موقعه في نفس قارئه، وأحسن في التوجيه إلى تقليل الكلام، فإنه بلاغة وحكمة. ولو اتسع الخط، وغلظ القلم، وكثر الورق، لانفتح باب الثرثرة والإسهاب، والخليفة محدود الوقت... فليس الأمر إذن أمر اقتصاد فقط، بل هو اقتصاد وحكمة وإصلاح.

وحدث عمرو بن ميمون قال: «حدثني أبي قال: كتب عمر إلى العمال: لا تكتبن في طومار بقلم جليل، ولا تمدن فيه».

---

(١) الطساس: مفردها طس، وهو الطست.

وفي رواية عن ميمون: «ما زلت أنا وعمر بن عبد العزيز ننظر في أمور الناس حتى قلت: يا أمير المؤمنين، ما بال هذه الطوامير التي يكتب فيها بالقلم الجليل، ويمد فيها، وهي من بيت مال المسلمين؟... فكتب إلى العمال ألا يكتب في طومار، ولا يمد فيه. فكانت شبرًا أو نحو ذلك».

وعمر بن عبد العزيز الذي عرف أن الاقتصاد خير وأفضل، وأن التخفف من متاع الحياة أسلم وأقوم، والذي طبق هذا على نفسه بعد الخلافة والتزمه... يحرص على أن ينصح بذلك الناس، ليأخذوا به عن طواعية واختيار، دون أن يرتكب في ذلك هضمًا لحق، أو ظلمًا لإنسان... وهذا من رغبته في شيوع الخير وانتشار البر.

حدث إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة الأنصاري أن عمر كتب إلى بعض الأجناد وصية طويلة، ومنها قوله:

«فإن ابتلاك الله بالغنى فاقتصد في غناك، وضع لله نفسك، وأد لله ﷻ فرائض حقه من مالك، وقل عند ذلك ما قال العبد الصالح: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وإياك وأن تفخر بطولك، وأن تعجب بنفسك، أو يخيل إليك أن ما رزقته لكرامتك على ربك ﷻ، وتفضيله إياك على غيرك، ممن لم يرزق مثل غناك... فإذا أنت أخطأت باب الشكر، ونزلت منازل أهل غيرك، ممن أطغاه الغنى، وتعجل طيباته في الدنيا، فإني أعظك بهذا. وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لكثير من أمري!».

وأتى عمر بعض أهله، فقرب إليه طعامًا كثيرًا، فقال عمر: «ويحك يا فلان، دون هذا ما يسد الجوعة، ويذهب سورة النفس، وتقدم فضل ذلك ليوم فقرك وفاقتك».

فقال: «يا أمير المؤمنين، إن الله أوسع وأحسن». فقال عمر: «فعند ذلك وجب الشكر»... ثم نهض!

* * *

وهكذا رأينا عمر بن عبد العزيز مترفًا مختالًا، منفقًا موسعًا قبل الخلافة، يحيا حياة الدعة والنعيم والرفاهية، إذا كان غير مسئول عن رعية أو جماعة. فلما ولي الخلافة، زهد وتخفف وتورع، وأعرض عن مفاتن الحياة، وانقبض عن شهواتها وملذاتها... ولكن ذلك لم يمنعه أن يحسن إلى رعيته الإحسان كله، فلم يدخر وسعًا في إيصال كل حق إلى صاحبه، وفي غير من ولا أذى. وإن كان ذلك الإنفاق أو الإعطاء لم يمنعه من دقة المراجعة وعمق الحساب، ولم يمنعه أن يوصي غيره من معارفه أو أصدقائه أو أقربائه بما أخذ به نفسه من زهد وورع... رضوان الله عليه.

عمر بن عبد العزيز والموت

الموت... هذا النذير الإلهي المتكرر، الذي طالع الناس في الصباح والمساء، وفي الصحة والمرض، وفي السراء والضراء، وبانتظار وبغير انتظار، والذي يهاجم الصغار والكبار، والضعفاء والأقوياء... هذا النذير الذي جاء آلاف المرات، ولا يزال يجيء آلاف المرات، وسيظل يجيء آلاف المرات، إلى ما شاء الله، ومع ذلك لم تخف حدته، ولم تسهل فجأته، فلا يزال الناس يخافونه، ويودون -بكل ما استطاعوا- لو وجدوا لهم منه خلاصًا أو معتصمًا... ولكن هيهات: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والعجيب في أمر الناس أنهم على الرغم من تكرر الموت، ومشاهدتهم إياه له آلاف المرات، ينسونه كثيرًا، ويغفلون عنه طويلًا، ولا يذكرونه إلا حين رؤيته، أو حين قربه منهم، ولكن هناك فريقًا من عباد الله يتذكرون الموت في حياتهم فيحسنون تذكره: فهو يغاديهم ويراوحهم، وهو يسامر عقولهم وقلوبهم... وفي طليعة هؤلاء خامس الراشدين الخليفة عمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليه، فقد عاش وكأن الموت لم يخلق إلا له، فهو على باله دائمًا، وهو يحدث عنه دائمًا ويذكِّر به غيره.

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رجلًا كأن الدنيا كلها، بمن فيها وما فيها، قد اتفقت على تذكيره بالموت: فنفسه تذكره، وحوادث الأيام تذكره، والناصحون يذكرونه، وهو يذكر به نفسه... فلو قيل إنه رجل من أهل القبور نزل ضيفًا على أهل الدنيا، فما اغتر بهذه الضيافة يومًا، ولا نسي مرجعه إلى ربه ساعة، لما كان هذا القول باطلًا.

وعمر يتذكر الموت منذ الصغر... فقد روي أنه بكى وهو صغير حينما جمع القرآن، فقالت له أمه: «ما يبكيك؟». قال: «ذكرت الموت»، فبكت أمه من ذلك... ولعل عمر قد ذكر، وهو يبكي هنا، ما في القرآن الكريم من حديث عن الموت، فتحدرت من عينيه الدموع.

ونحن نرى عمر بن عبد العزيز يحذر من الموت، فقد روى مفضل بن يونس أن عمر قال: «لقد نغص هذا الموت على أهل الدنيا ما هم فيه من نضارة الدنيا وزهرتها، فبينا هم كذلك، وعلى ذلك، إذ أتاهم حاد من الموت فاخترمهم مما هم فيه، فالويل والحسرة هناك لمن لم يحذر الموت، ويذكره في الرخاء، فيقدم لنفسه خيرًا يجده بعد ما يفارق الدنيا وأهلها». ثم بكى عمر حتى غلبه البكاء فقام.

ولو اقتصر الأمر هنا على الكلام من عمر، لقلنا إنها زخرفة بيان، وشقشقة لسان يحسنها الكثير. ولكن عمر كان يخاف الموت عمليًا قبل أن يذكر خوفه باللسان.

ومن شعر عمر بن عبد العزيز فيما ينسبه ابن دريد، وفيه تذكير بالموت ووعظ به، قوله:

ومن الناس من يعيش شقيًا ... جيفة الليل، غافل اليقظة
فإذا كان ذا حياء ودين ... راقب الله، واتقي الحفظة
إنما الناس راحل ومقيم ... فالذي سار للمقيم عظه!

ومن شعره قبل خلافته قوله:

انْهَ الفؤاد عن الصبا ... وعن انقياد للهوى
فلعمر ربك إن في ... شيب المفارق واللحى

لـــــك واعظًـــــا، إن كنـــــت تعـــظ اتعـــاظ أولي النهـــى
حتـــى متـــى لا ترعـــوي؟ حتـــى متـــى؟ وإلى متـــى؟
مـــن بعـــد مـــا ســـميت كهـــلًا واســـتلبت اســـم الفتـــى
بـــلي الـــشباب، وأنـــت إن عمـــرت رهـــن للـــبلى
وكفـــى بـــذلك زاجـــرًا للمـــرء عـــن غـــي... كفـــى!

* * *

وكان لعمر بن عبد العزيز طريقة في العزاء وتهوين المصاب على المصابين، وردع الجازعين عن الجزع. ونستطيع أن نتعرف إلى هذه الطريقة من الموقف التالي:

مات لعمر صديق فذهب لتعزية أهله، فصرخوا في وجهه، فقال:

«مه!... إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت. إن صاحبكم هذا لم يسد شيئًا من حفركم، وإنما سد حفرة نفسه... لكل منكم حفرة لا بد والله أن يسدها. إن الله لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دار مسرة إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها. فمن كان منكم باكيًا فليبك على نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم كلكم يصير إليه غدًا».

ولما مات عبد الله بن عتبة، كتب عمر إلى ابنه يقول له: «أما بعد، فإنا قوم من أهل الآخرة، سكنا الدنيا: أمواتٌ أبناء أموات... فالعجب كل العجب إلى ميت يعزيه عن ميت، والسلام».

وكتب عمر إلى ابنه يذكره بصرعة الموت، ويعظه فقال: «يا بني، احذر الصرعة على الغفلة، حين لا تستجاب الدعوة، ولا سبيل إلى الرجعة. ولا تغترن بطول العافية، فإنما هو أجل ليس دونه فناء، ولا بعد أن تستكمله بقاء».

ولما مات ولده عبد الملك لم يجزع لموته، بل كتب إلى الأمصار ينهاهم عن النواح عليه، فقال فيما كتب: «إن الله تعالى أحب قبضه، وأعوذ بالله أن أخالف محبته».

وبينما كان القوم مشغولين بدفن ابنه هذا، رأى عمر رجلًا يشير بشماله، فقال له: «يا هذا، إذا تكلمت فلا تشر بشمالك، وأشر بيمينك». فقال الرجل متعجبًا: «ما رأيت كاليوم!... إن رجلًا دفن أعز الناس عنده، ثم إنه يهمه شمالي ويميني!؟».

بل لقد سر بموت ابنه الذي كان يحبه حبًّا جمًّا، وكان يراه أهلًا للخلافة، لو لم يخف عليه من غلبة حب الوالد في ذلك الرأي... وذلك قال عن ابنه بعد موته:

«لقد دفعته إلى النساء في الخرق، فما زلت أرى فيه السرور وقرة العين إلى يوم الناس هذا، فما رأيت فيه أمرًا قط أقر عيني من أمر رأيته اليوم!».

وخطب عمر بعد موت ابنه هذا فقال: «إن الله ﷻ لم يجعل لمحسن ولا لمسيء في الدنيا خلدًا، ولم يرض بما أعجب أهلها ثوابًا لأهل طاعته، ولا ببلائها عقوبة لأهل معصيته. فكل ما فيها من محبوب متروك، وكل ما فيها من مكروه مضمحل... لذلك خُلِقَتْ، وكتب الله على أهلها الفناء، فأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها. فاتقوا الله، واعملوا ليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا».

ورد عمر على رجل عزاه في ابنه عبد الملك هذا، فقال عمر لكاتبه: «أجبه وأدق القلم». ثم أملاه ما يلي:

«أما بعد، فإن هذا أمر كنا وطنًّا أنفسنا عليه، فلما نزل لم ننكره، والسلام».

* * *

ولتلاحظ هنا أمره للكاتب بأن يدق القلم، وأعجب كيف يعني عمر في مثل هذا الموقف بأمر دقيق كهذا الأمر، ثم لاحظ هذا الإيجاز في الكلام، وذلك الرضا والاستسلام... ولكن لا عجب، فعمر هو الذي يقول: «ما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرني أني على غيرها».

وتولى عمر الخلافة، والخلافة أمر عظيم: له روعته ورونقه وبهاؤه، وله مشاغله ومظاهره. وكان المنتظر من هذا الأمر الشاغل أن يلفت صاحبه -ولو إلى حين- عن أمر الموت وذكره... ولكنا نرى عمر بن عبد العزيز لا ينسى الموت يوم الخلافة، فها هو ذا يلقي أول خطبة له بعد توليه الخلافة، فلا يغفل ذكر الموت فيها، بل يقول منها:

«وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات. وإن من لا يذكر من آبائه -فيما بينه وبين آدم عليه السلام- أبا حيا، لمعرق في الموت».

وها نحن أولاء نراه بعد توليه الخلافة يرسل إلى سالم بن عبد الله بن عمر ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة وغيرهم من الصالحين المذكرين بالله والآخرة، ويقول لهم فيما يقول: «إني قد ابتليت بهذا الأمر، فأشيروا علي».

وكأنهم يعرفون حبه للآخرة، واتعاظه بذكر الموت، فيذكرون له ذلك، ويكون مما يقوله سالم: «إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت».

ولقد ذكّر سالم هنا متذكرًا، ووعظ متقبلًا متهيئًا، ودعا إلى الطيبات من يحسن الاستجابة إليها... رضوان الله على القائل وعلى السامع!

وكتب الإمام الجليل حسن البصري إلى عمر -وهو خليفة- يقول له ناصحًا: «يا أمير المؤمنين، لو أن لك عُمْر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان... ما كان لك بد من أن تقتحم العقبة، ومن وراء العقبة الجنة والنار: من أخطأته هذه، دخل هذه»، فتصادف النصيحة أهلها، ويجد الحَسَن خير السميع.

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز يتمنى أن يقبضه الله إليه غير مضيع ولا مفرط، لكثرة ما يراه من الفساد، ولخوفه أن يناله ما نال أكثر الناس من انحراف وضلال.

فقد روى عبد الله بن المبارك أن عمر بن عبد العزيز قال: «إني نظرت في أمري وأمر الناس، فلم أر شيئًا خيرًا من الموت... لفساد الناس وما داخلهم من العيب».

وقال عمر لقاصه محمد بن قيس: «ادع لي بالموت». قال ابن قيس: «فأبيت وأبى علي، فدعوت له وعمر رافع يديه، يؤمن على دعائي وهو يبكي. وحضر ابن له صغير، فلما رأى عمر يبكي، بكى، فقال عمر: وهذا معنا. فدعوت بذلك أيضًا معهم».

فعرف الله الصدق من عمر، فلم يلبث إلا قليلًا حتى مات، ومات ابنه كذلك، وبقي محمد ابن قيس بعد.

وقد يفسر شوقه إلى الآخرة بشيء آخر لفهمه من قول عمر لسفيان: «كانت لي نفس تواقة، فكنت لا أنال شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أعظم منه، فلما بلغت نفسي الغاية تاقت إلى الآخرة».

وكان عمر من أجل ذلك لا يحب الحياة إلا لإحياء السنة، أو إحقاق الحق، أو مجاهدة الباطل، ولذلك خطب على المنبر، وهو خليفة، فكان مما قاله: «ولولا أن أنعش سنة، أو أعمل بحق، ما أحببت أن أعيش فواقًا!».

وكان رضوان الله عليه يأرق في الليل متفكرًا في الموت، ذاكرًا أمره... وها هو ذا يقول لبعض جلسائه يومًا: «يا أبا فلان، لقد أرقت الليلة مفكرًا»، قال الرجل: «فيم يا أمير المؤمنين؟». قال: «في القبر وساكنه... إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت عن قربه، بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان... مع تغير الريح وبلى الأكفان، بعد حسن الهيئة، وطيب الريح، ولقاء الثوب»... قال هذا، ثم شهق شهقة، وخر مغشيًّا عليه.

وكانت تلك حاله غالبًا كلما ذكر الموت، فقد روى التاريخ أنه كان إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، واضطربت أوصاله، وبكى حتى تجري دموعه على لحيته وغشي عليه... وكان يجمع الفقهاء بالليل يتذاكر معهم الموت والقيامة والآخرة، ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة!

* * *

وكان عمر يذهب إلى القبور متذكرًا متعظًا، متفكرًا في أحوال أهليها، مسترجعًا ماضيهم، معتبرًا بمآلهم، متخيلًا ما سيكون من أمره وأمرهم غدًا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا أيوب، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم

يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم... أما تراهم صرعى قد حلت بهم المَثُلات، واستحكم فيهم البلى، وأصابت الهوام في أبدانهم مقيلًا؟»... ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: «انطلق بنا، فوالله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله».

ولقد جاءه محمد بن كعب القرظي فأنكر أمره وقد تغيرت حاله بعد الخلافة من اللين إلى الشدة، ومن النعيم إلى الزهد. فقال له عمر: «فكيف لو رأيتني يا ابن كعب في قبري بعد ثالثة، حين تقع حدقتي على وجنتي، ويسيل منخري وفمي صديدًا ودودًا؟... كنت أشد لي نكرة!!».

ثم طلب عمر منه أن يحدثه حديثًا سمعه منه قبل ذلك وفي آخره: «... ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يده». ولعله طلب هذا الحديث لما فيه من تذكير بالله تبارك وتعالى، ومتى تذكر الإنسان ربه فقد تذكر لقاءه، ومتى تذكر لقاءه تذكر الموت لا محالة!

* * *

وكان عمر يؤمن بأن ذكر الموت يوسع الضيق ويضيق الواسع، وكان ينصح بذلك غيره... فقد دخل عنبسة بن سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة - وقد رد المظالم وسوى بين الناس- فرجاه عنبسة أن يعيد إليه ما كان يأخذه من عطايا، فأبى عمر ذلك، فخرج عنبسة غاضبًا. فلما كان عند الباب ناداه عمر قائلًا: «يا أبا خالد، يا أبا خالد...»، فرجع فقال له: «أكثر ذكر الموت، فإن كنت في ضيق من العيش وسعه عليك، وإن كنت في سعة من العيش ضيقه عليك!».

وكان عمر يتمثل كثيرًا بالأبيات التالية، وهي تذكر أيضًا بالموت:

تسر بما يفنى، وتشغل بالمنى كما غر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم، والردى لك لازم
وتعمل فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم!

وكان عمر يحب لقاء الشاعر المسلم سابق البربري، لأن أشعاره تشتمل على التذكير بالموت. ولقد وعظه سابق بقصائد كثيرة فيها ذكرٌ للموت، ومن ذلك قوله في قصيدة طويلة:

ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت يومًا على نقضه الروحات والبكر
والمرء يصعد ريعان الشباب به وكل مصعدة يومًا ستنحدر
وكل بيت خراب بعد جدته ومن وراء الشباب الموت والكبر
بينا يرى الغصن لدنا في أرومته ريان، أضحى حطامًا جوفه نخر
كم من جميع أشتّ الدهر شملهم وكل شمل جميع سوف ينتشر

وأنشد حرمي بن الهيثم من قول عمر بن عبد العزيز:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له مع الله في دار القرار نصيب
فإن تعجب الدنيا أناسًا، فإنها قليل متاع، والزوال قريب!

ومن شعره في الموت ما ينقله أبو صالح الشامي:

أنا ميت، وعز من لا يموت قد تيقنت أنني سأموت
ليس ملك يزيله الموت ملكًا إنما الملك ملك من لا يموت!

وكان يتمثل إذا ذكر الموت يقول القائل:

ألم تر أن الموت أدرك من مضى فلم ينج منه ذو جناح ولا ظفر؟

ولقد استبد ذكر الموت بعناية عمر بن عبد العزيز واستولى على اهتمامه وذاكرته... فنحن نراه يذكر أجناده وعماله بالموت، فإذا كتب إليهم لم ينس أن يحدثهم عن هذه القارعة التي ستقرعهم يومًا من الأيام. ولعله كان يريد بذلك التذكير أن يحيي في صدور عماله وولاته وأجناده الخوف من الله والخشية له، والرهبة من يوم لقائه. وها هو ذا يكتب إلى بعض الأجناد فيقول له فيما يقول:

«... بادر بنفسك قبل أن يؤخذ بكظمك، ويخلص إليك كما خلص إلى من كان قبلك. فقد رأيت الناس كيف يموتون، وكيف يتفرقون، ورأيت كيف يعجل لتائب توبته، ويفقد ذا الأهل أهله، وذا السلطان سلطانه، وكفى بالموت موعظة بالغة، وشاغلًا عن الدنيا، ومرغبًا في الآخرة... فنعوذ بالله ﷻ من شر الموت وما بعده، ونسأل الله تعالى خيره».

وكتب كذلك إلى عروة (عامله باليمن) يذكره بأخذات الموت، فقال: «أما بعد، فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم، وتراجعني. وأنت تعرف بُعد مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أخذات الموت... حتى لو كتبت إليك: اردد على مسلم مظلمة، لكتبت إلي: أردها عفراء أو سوداء... انظر أن ترد على المسلمين مظالمهم، ولا تراجعني».

ولقد مات لعمر أخوه سهل، وابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم، فلم يسخط على قضاء ربه، بل رضي واسترجع واستسلم، ووقف بعد ذلك يدعو ويقول: «اللهم إنك قد علمت ما كان من عونهم ومعونتهم، فأخذتهم، فلم يزدني ذلك إلا حبًا، ولا إلى ما عندك إلا شوقًا».

ولعمر أقوال كثيرة في وصف الموت والتذكير به. وصف الموت في خطبة له فقال عنه: «غيظ ليس كالغيظ، وكظ ليس كالكظ». وقال: «إذا كنت من الدنيا فيما يسوؤك، فاذكر الموت فإنه يسهله عليك». وقال: «من قرب الموت من قلبه استكثر ما في يديه».

ومن بليغ رسائله: «أما بعد، فإن من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه، والسلام».

ومن عظاته: «كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا، قد قضى نحبه وقضى أجله، وتغيبونه في صدع الأرض، تدعونه غير موسد ولا متعهد. فارق الأحباب، وخلع الأسباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، فقيرًا إلى ما قدم، غنيًّا عما ترك... فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موالاته. وايم الله، إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وأستغفر الله وأتوب إليه».

ومن عظاته: «لا يحل الموت في أعناقكم وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى كأن لم يكن، وكل ما هو آت قريب. أو ما رأيتم حالات الميت: وجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ، ولم يعمر الدنيا. واتقوا يومًا لا يحقر فيه مثقال ذرة في الموازين».

* * *

ولم يسترح عمر من المتاعب إلا بالموت... فقد روى مسلمة بن عبد الملك أنه رأى عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال له: «يا أمير المؤمنين، ليت شعري: إلى أي الحالات صرت بعد الموت؟ فأجابه عمر: يا مسلمة، هذا أوان فراغي. والله ما استرحت إلا الآن. فقال مسلمة: أين أنت يا أمير المؤمنين؟ فأجاب عمر: من أئمة الهدى في جنات عدن!».

وهكذا استراح عمر بن عبد العزيز من هذه الحياة بالموت... بل استراح أيضًا من الموت بالموت، فقد نغص ذكر الموت عليه حياته، فلم يدعه يحيا كما يحيا سواه من الناس... ولقد راوحه الموت وغاداه، ورافقه بالليل والنهار، ولم يتركه حتى انتقل به إلى عالم الأموات. ولكنه انتقل انتقال الهادين المهديين، الذين يبشرهم ربهم منه برضوانه، فسلام عليه في الصالحين، وسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه في جنات النعيم.

حديث عن الموت

قيل في بعض الروايات: إن عمر بن عبد العزيز خرج يشيع جنازة لبعض بني أمية، فلما صلى عليها ودفنت، قال للناس: قوموا! ثم توارى عنهم، فاستبطأه الناس حتى ظنوا به الظنون، ثم جاء وقد احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، فقالوا: يا أمير المؤمنين! لقد أبطأت... فما الذي حبسك؟

قال: أتيت قبور الأحبة، قبور بني أبي، فلم يردوا السلام، فلما ذهبت أقفي ناداني التراب فقال: يا عمر، ألا تسألني ما لقيت الأحبة؟

قال عمر: ما لقيت الأحبة؟

قال: خُرقت الأكفان، وأُكلت الأبدان!...

قال عمر: فلما ذهبت أقفي ناداني التراب فقال: يا عمر، ألا تسألني ما لقيت العينان؟

قال عمر: وما لقيت العينان؟

قال: قدعت المقلتان وأكلت الحدقتان.

فلما ذهب عمر يريد الانصراف ناداه التراب: يا عمر، ألا تسألني ما لقيت الأبدان؟

قال عمر: وما لقيت الأبدان؟

قال: قطع الكفان من الرسغين، وقطع الرسغان من الذراعين، وقطع الذراعان من المرفقين، وقطع الكتفان من الجنبين، وقطع الجنبان من الصُلْب، وقطع الصلب من الوركين، وقطع الوركان من الفخذين، وقطع الفخذان من الركبتين، وقطع الركبتان من الساقين، وقطع الساقان من القدمين!...

فلما ذهب عمر يريد الانصراف ناداه التراب:

يا عمر، عليك بأكفان لا تبلى!

قال عمر: وما الأكفان التي لا تبلى؟

قال: اتقاء الله والعمل بطاعته!

ثم بكى عمر وقال:

ألا وإن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشابها يهرم، وحيها يموت، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها، فالمغرور من اغتر بها. أين سكانها الذين بنوا مدائنها، وشقوا أنهارها، وغرسوا أشجارها؟... أقاموا فيها أيامًا يسيرة، غرتهم بصحتهم، وغروا بنشاطهم، فركبوا المعاصي.

إنهم -والله- كانوا في الدنيا مغبوطين بالأموال على كثرة المنع، محسودين على جمعها. ما صنع التراب بأبدانهم، والرمل بأجسادهم، والديدان بعظامهم وأوصالهم؟.. كانوا في الدنيا على أسرة ممهدة، وفرش منضدة، بين خدم يخدمون، وأهل يكرمون، وجيران يعقدون.

فإذا مررت فنادهم إن كنت مناديًا، وادعهم إن كنت داعيًا. مر بعسكرهم، وانظر إلى تقارب منازلهم التي كانت عيشهم، وسل غنيهم ما بقي من غناه، وسل فقيرهم ما بقي من فقره، وسلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون، وعن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان؟ أمحت الألوان، وأكلت اللحمان، وعفرت الوجوه، وقبحت المحاسن، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء.

فأين حجالهم وقبابهم؟ وأين خدمهم وعبيدهم؟ وجمعهم ومكنوزهم؟... والله ما زودوهم فراشًا، ولا وضعوا هنالك متكأ، ولا غرسوا لهم شجرًا، ولا أنزلوهم من اللحد قرارًا... أليسوا في منازل الخلوات والفلوات... أليس عليهم الليل والنهار سواء؟ أليس هم في مدلهمة ظلماء، قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة... فكم من ناعم وناعمة أصبحت وجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم بائنة، وأوصالهم متمزقة. قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ودبت دواب الأرض في أجسادهم، ففرقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا حتى عادت العظام رميمًا.

قد فارقوا الحدائق، وصاروا بعد السعة إلى المضايق، قد تزوجت نساؤهم، وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم، فمنهم والله الموسع له في قبره الغض الناظر فيه، المتنعم بلذته.

يا ساكن القبر غدًا!... ما الذي غرك من الدنيا؟ هل تعلم أنك تبقى أو أنها تبقى لك!... أين دارك الفيحاء، ونهرك المطرد؟ وأين ثمرك الحاضر ينعه؟ وأين رقاق ثيابك؟ وأين طيبك؟ وأين بخورك؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟

أما رأيته قد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه وهو يرشح عرقًا، ويتلمظ عطشًا، ويتقلب في سكرات الموت وغمراته. جاء الأمر من السماء، وجاء غالب القدر والقضاء... جاءه من الأجل ما لا يمتنع منه. هيهات هيهات... يا مغمض الوالد والأخ والولد، وغاسله، يا مكفن الموت وحامله، يا مخليه في القبر راجعًا عنه...

ليت شعري، كيف كنت على خشونة الثرى؟

يا ليتَ شعري بأي خديك بدأ البلى؟

يا مجاور الهلكات، صرت في محلة الموتى.

يا ليت شعري، ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا؟ وما يأتيني به من رسالة ربي؟...

ثم تمثل عمر بهذه الأبيات:

تسر بما يفنى، وتشغل بالمنى ... كما غر باللذات في النوم حالم

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم، والردى لك لازم

وتعمل فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم؟

خُطبُ عُمَر
بين الدنيا والآخرة

خطب عمر بن عبد العزيز مرة فقال:

«أيها الناس، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيها المنايا، وهم فيها نصب المصائب: مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص. لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أجله!».

وأورد القالي في «الأمالي» هذه الخطبة بصورة أطول، وهي:

«ما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما سيزول؟ وإنما الشيء من أصله، قد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نهب للمصائب: مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص. لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أجله. وأنتم أعوان الحقوق على أنفسكم، فأين المهرب مما هو كائن؟ وإنما تنقلب في قدرة الطالب، فما أصغر المصيبة اليوم، مع عظيم الفائدة غدًا، وأكبر خيبة الخائب فيه، والسلام».

منهج الخليفة

وروي أنه لما دفن سليمان بن عبد الملك، وخرج عمر من قبره، سمع للأرض رجة، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين، قربت إليك لتركبها. فقال: ما لي ولها؟ نحُّوها عني، قربوا إلى بغلتي، فقربت إليه فركبها، وجاءه صاحب

الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنح عني، ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين. فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فقال:

«أيها الناس: إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم».

فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فتول أمرنا باليُمْن والبركة فلما رأى الأصوات قد هدأت، رضي به الناس جميعًا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال:

«أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء. وليس من تقوى الله ﷻ خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر ذنباه... وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات. وإن من لا يذكر من آبائه، فيما بينه وبين آدم عليه السلام، أبا حيا لمعرق في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ﷻ، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي أحدًا باطلًا، ولا أمنع أحدًا حقًّا... إنني لست بخازن، ولكني أضع حيث أُمرت.

أيها الناس: إنه قد كان قبلي ولاة يجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم».

شروط الصحبة

وروي أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر، وكان أول خطبة خطبها، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه».

فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل، حتى يخالف قوله فعله.

بين الراعي والرعية

وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، أيها الناس، إنه ليس بعد نبيكم ﷺ نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب. فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة. إلا إني لست بقاض ولكني منفذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع. ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله ﷻ ألا إني لست بخيركم، وإنما أنا رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملًا.

يا أيها الناس: إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم... أقول قولي هذا، واستغفر الله العظيم لي ولكم».

حث على الطاعة

وخطب فقال: «أيها الناس، إنكم ميتون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم. يا أيها الناس: إنه من يقدر له رزق برأس جبل، أو بحضيض أرض... يأته، فأجملوا في الطلب».

طبيعة الدنيا

وخطب فقال:

«إن الدنيا ليست بدار قرار... دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظعن. فكم عامر وثق عما قريب يخرب، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن. فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد الهوى: إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب: بينا ابن آدم في الدنيا منافس، وبها قرير عين، إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودياره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، إنها تسر قليلًا، وتجر حزنًا طويلًا!».

حض على الإنفاق

وخطب يوم عيد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله ﷻ، ثم قال: «يا أيها الناس، إني وجدت هذا القلب لا يعبر عنه اللسان، لعمري -وإن لعمري مني لحقًّا- لوددت أنه ليس من الناس عبد ابتلي بسعة، إلا نظر قطيعًا من ماله، يجعله في الفقراء والمساكين، واليتامى والأرامل. بدأت أنا بنفسي وأهل بيتي، ثم كان الناس بعد»... ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل: «لولا سنة أحييتها، أو بدعة أمتها، لم أبال ألا أبقى في الدنيا إلا فواقًا».

بين الطاعة والمعصية

وخطب فقال:

«أما بعد. أيها الناس، فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عنكم يوم القيامة، فإن من زافت به منيته، فقد قامت قيامته، لا يستعتب من سيئ، ولا يزيد في حسن. ألا لا

سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله. ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم أمامه عاصيًا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم. ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله: قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا، لا يرون الحق غيره»... ثم قال: «إنه لحبيب إلي أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله».

رد المظالم

وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد: فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلي، ليس عليّ فيه دون الله محاسب. ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم...» (وكان مولاه).

وقد جيء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب، فقرأ مزاحم كتابًا منها، ثم ناوله عمر، وهو قاعد على المنبر وفي يده جلّم[1]، فجعل يقصه. واستأنف مزاحم كتابًا آخر فقرأه، ثم دفعه إلى عمر فقصه... فما زال حتى نودي بصلاة الظهر.

الاستغفار

وكان يخطب فيقول:

«أيها الناس: من أثم بذنب فليستغفر الله ﷻ وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب... فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها».

---

(١) المغص أو المغراض.

بين التصديق والتكذيب

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال:

«إني لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكني نظرت في أمر معادكم، وما أنتم إليه صائرون، فوجدت المصدق به -مع مخالفته- أحمق، والمكذب به هالكًا» ثم نزل.

لا تستصغروا الذنوب

وخطب فقال:

«أيها الناس، لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها، إن الحسنات يذهبن السيئات... ذلك ذكرى للذاكرين، وقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

تزودوا للآخرة

وخطب فقال:

«إن لكل سفر زادًا لا محالة: فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة، وكونوا كمن عاين ما أعد الله لهم من ثوابه وعقابه، فرغبوا ورهبوا. ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم... فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، ولا يمسي بعد إصباحه. وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيرًا. وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يبرأ من كلم إلا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يفرح؟... أعوذ بالله أن آمركم

بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي، وتظهر عورتي، وتبدو مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغني والفقير، والموازين منصوبة، والجوارح ناطقة، ولو عنيت به الجبال لذاب، أو الأرض لانفطرت... أما تعلمن أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما؟».

النصيحة صلة

وروي أنه خطب فقال:

«من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه... فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية لكم من العواقب فالزموها. فالرزق مقسوم، فلن يعدو المؤمن ما قسم له، فأجملوا في الطلب، فإن في القنوع سعة وبلغة وكفافا... إن أجل الدنيا في أعناقكم، وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن، وكل ما هو آت قريب. وقد رأيتم حالات الميت وهو يموت، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون: قد فرغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعاينتم تعجيل إخراجه، وقسمة تراثه، ووجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ، ولم يعمر الديار، فاتقوا هول يوم لا يحقر فيه مثقال ذرة في الموازين».

بين الأغنياء والفقراء

وحدث شبيب بن شيبة، عن أبي عبد الملك قال:

«كنت من حرس الخلفاء قبل عمر، فكنا نقوم لهم، ونبدؤهم بالسلام، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في يوم عيد، وعليه قميص كتان، وعمامة على قلنسوة

لاطئة، فمثلنا بين يديه، وسلمنا عليه، فقال: مه! أنتم جماعة وأنا واحد، السلام علي، والرد عليكم. وسلم فرددنا، وقربت له دابته، فأعرض عنها، ومشى ومشينا، حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال:

وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا، فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم»، ثم قال: «ما لي وللدنيا؟ أم ما لي ولها؟».

وتكلم فأرق، حتى بكى الناس جميعًا، يمينًا وشمالًا، ثم قطع كلامه ونزل. فدنا منه رجاء بن حيوة، فقال له: يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه، فقال: «يا رجاء إني أكره المباهاة».

تذكير بلقاء الله

وخطب بخناصرة خطبة لم يخطب بعدها حتى مات، رحمه الله تعالى، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض. واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف ربه، وباع قليلًا بكثير، وفانيًا بباق. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين. ثم أنتم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد: قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدم. وايم والله إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب

أكثر مما عندي، فأستغفر الله لي ولكم. وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة، يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ولحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم. وايم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة، لكان اللسان مني ناطقًا ذلولًا، عالمًا أسبابه، لكنه مضى من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته». ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه، ثم نزل، فلم يُر على تلك الأعواد حتى قبضه الله.

لا حجاب دون المظلوم

وروى أنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: الحقوا ببلادكم، فإني أنساكم عندي، وأذكركم ببلادكم.. ألا وإني قد استعملت عليكم رجالًا، لا أقول هم خياركم، ولكنهم خير ممن هم شر منهم. ألا فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي. ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضننت به عليكم إني أذن لضنين. والله لولا أن أنعش سنة، أو أسير بحق، ما أحببت أن أعيش فواقًا».

الله يتولى الأولاد

ودخل عليه مسلمة بن عبد الملك في المرضة التي مات فيها، فقال له:

«يا أمير المؤمنين:

إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ، أو إلى نظرائك من أهل بيتك، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله».

فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال:

«الحمد لله، أبالله تخوفني يا مسلمة... أما ما ذكرت من أني قطعت أفواه ولدي عن هذا المال تركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقًّا هو لهم، ولم أعطهم حقًّا هو لغيرهم. وأما ما سألت من الوصاة إليك، أو إلى نظرائك من أهل بيتي، قال وصيتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب، وهو يتولى الصالحين. وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله، فجعل الله له من أمره يسرًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه... ادعوا لي بَنِيّ». فدعوهم -وهم يومئذٍ اثنا عشر غلامًا- فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه، حتى اغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال:

«بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم! يا بَني: إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله. يا بني: ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرًا من دخول أبيكم يومًا واحدًا في النار... قوموا يا بني عصمكم الله، ورزقكم».

قالوا: فما احتاج أحد من أولاد عمر، ولا افتقر.

محاورة مع الخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذب الخارجي -واسمه بسطام، من بني يشكر- فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: «بلغني أنك خرجت غضبًا لله ولرسوله، ولستَ أولى بذلك مني، فهلم إليّ أناظرك: فإن كان الحق بأيدينا، دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك، نظرنا في أمرك».

فكتب بسطام إلى عمر: «قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك».

وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيًّا اسمه عاصم، ورجلًا من بني يشكر، فقدما على عمر.. بخناصرة، فأخبر بمكانهما، فقال: «فتشوهما لا يكن معهما حديد، وأدخلوهما». فلما دخلا قالا: «السلام عليك»، ثم جلسا. فقال لهما عمر: «أخبراني: ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا؟ وما نقمتم علينا؟».

فقال عاصم: «ما نقمنا سيرتك، إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر: أعن رضا من الناس ومشورة، أم ابتززتم أمرهم؟!».

فقال عمر: «ما سألتهم الولاية عليهم، ولا غلبتهم عليها، وعهد إليّ رجل كان قبلي، فقمت ولم ينكره علي أحد، ولم يكرهه غيركم. وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف، كائنًا من كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم».

فقالا: «بيننا وبينك أمر، إن أنت أعطيتناه، فنحن منك وأنت منا، وإن منعتناه، فلست منا ولسنا منك».

فقال عمر: «وما هو؟».

قالا: «رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك، وسميتها مظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال، فالعنهم وتبرأ منهم... فهذا الذي يجمع بيننا وبينك، أو يفرق».

فتكلم عمر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة، فأخطأتم سبيلها. إن الله ﷻ لم يبعث رسوله ﷺ لعانًا، وقال إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد سميت أعمالهم ظلمًا، وكفى بذلك ذمًّا ونقصًا. وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها، فإن قلتم إنها فريضة، فأخبرني متى لعنت فرعون؟».

قال: «ما أذكر متى لعنته».

قال: «أفيسعك ألا تلعن فرعون، وهو أخبث الخلق وشرهم، ولا يسعني ألا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون!».

قال: «أما هم كفار بظلمهم؟».

قال: «لا، لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثًا أقيم عليه الحد».

فقال الخارجي: «إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله، والإقرار بما نزل من عنده».

قال عمر: «فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم، على علم منهم أنه محرم عليهم.. ولكن غلب عليهم الشقاء».

قال عاصم: «فابرأ ممن خالف عملك، ورد أحكامهم».

قال عمر: «أخبراني عن أبي بكر وعمر: أليسا من أسلافكما وممن تتوليان، وتشهدان لهما بالجنة؟».

قالا: «اللهم نعم».

قال: «فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية؟».

قالا: «نعم».

قال: «فهل برئ عمر من أبي بكر؟ أو تبرءون أنتم من أحد منهما؟»...

قالا: «لا».

قال: «فأخبراني عن أهل النهروان: أليسوا من صالحي أسلافكم، وممن تشهدون لهم بالنجاة؟»... قالا: «بلى».

قال: «فهل تعلمون أن أهل الكوفة، حين خرجوا، كفوا أيديهم فلم يسفكوا دمًا، ولم يخيفوا آمنا، ولم يأخذوا مالًا؟»... قالا: «نعم».

قال: «فهل علمتم أن أهل البصرة، حين خرجوا مع مسعر بن فديك، استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت، صاحب رسول الله ﷺ، فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم صبحوا حيًّا من أحياء العرب فاستعرضوهم، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال، حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط وهي تفور؟»...

قالا: «قد كان ذلك».

قال: «فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة، وأهل الكوفة من أهل البصرة؟». قالا: «لا».

قال: «فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين؟»... قالا: «لا».

قال: «أرأيتم الدين واحدًا أم اثنين؟»...

قالا: «بل واحدًا».

قال: «فهل يسعكم فيه شيء يعجز علي؟»... قالا: «لا».

قال: «»فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى أحدهما صاحبه، وتوليتم أهل البصرة، وأهل الكوفة، وتولى بعضهم بعضًا، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني -فيما زعمتم- إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟...

«ويحكم! إنكم قوم جهال: أردتم أمرًا فأخطأتموه، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده»... قالا: «ما نحن كذلك».

قال عمر: «بل سوف تقرون بذلك الآن، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس، وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى خلع الأوثان، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه، وأحرز ماله، ووجبت حرمته، وكانت له أسوة المسلمين؟»... قالا: «نعم».

قال: «أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان، ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فتستحلون دمه وماله، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان، فيأمن عندكم وتحرمون دمه؟».

فقال اليشكري: «أرأيت رجلًا ولي قومًا وأموالهم فعدل فيها، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون... أتراه أدى الحق الذي يلزمه لله ﷻ؟ أو تراه قد سلم؟»... قال عمر: «لا».

قال: «أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك، وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق؟».

قال: «إنما ولاه غيري، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي».

قالا: «أفترى ذلك من صنع من ولاه حقًّا؟».

فبكى عمر وقال: «أنظراني ثلاثًا».

فخرجا من عنده، ثم عادا إليه، فقال عاصم: «أشهد أنك على حق». فقال عمر لليشكري: «ما تقول أنت؟». قال: «ما أحسن ما وصفت. ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر... أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم».

فأما عاصم فأقام عند عمر، فأمر له عمر بالعطاء، فتوفي بعد خمسة عشر يومًا، فكان عمر يقول: «أهلكني أمر يزيد، وخصمت فيه، فأستغفر الله».

فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيدَ من ولاية العهد، فوضعوا على عمر من سقاه سمًّا، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثًا، حتى مرض ومات.

رثاء لولده

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنَه عبدَ الملك، وسوَّى عليه قبره بالأرض، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون: إحداهما عند رأسه، والأخرى عند رجليه، استوى عمر قائمًا، وأحاط به الناس، فقال:

«رحمك الله يا بني، فقد كنت برًّا بأبيك. والله ما زلت مذ وهبك الله لي بك مسرورًا، ولا والله ما كنت قط أشد سرورًا بك، ولا أرجى لحظي من الله فيك، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه، فغفر الله لك ذنبك، وجازاك بأحسن عملك، وتجاوز عن سيئاتك، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير، من شاهد أو غائب...

رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين».

عمر والصلاة

الصلاة عماد الدين: من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، وهي فرق ما بين المسلم والكافر... وهي شعار العابدين، ورمز الموحدين. وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتصل ما بين العبد وربه، وتفتح عليه فتوح الرحمة والرضا والرضوان، وتدخله باستقامتها وإخلاصها في زمرة الخاشعين الذين يخشون ربهم، ويرجون ثوابه، ويخافون عقابه.

وللصلاة في أمة القرآن وأبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام شأن أي شأن، ومكانة أي مكانة، فهي الباب إلى طهارة جسومهم ونقاء نفوسهم، ويقظة قلوبهم، وسموا أرواحهم، وتوثيق الصلة بينهم وبين ربهم. ولقد كان الرسول صلوات الله عليه يصيبه من دنياه أو من قومه أو من أثقال الدعوة وهمومها ما يصيبه، فلا يجد سلواه ونجواه وراحته إلا في الصلاة، فيهتف ببلال مؤذن السماء قائلًا: «أرحنا بها يا بلال!».

وقد صور لنا صلوات الله عليه مبلغ سعادته بالصلاة والانخراط فيها حين قال: **«وجُعلت قرة عيني في الصلاة!»**.

وكان السلف الصالح يدخل الواحد منهم الصلاة فينسى بها شواغل الحياة وجواذب دنياه، وكأنه في رحلة علوية ممتعة، يتمنى دوامها ويكره زوالها.

ولقد كان للصلاة شأن جليل في تاريخ الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه... وأول موقف من المواقف المتعلقة بالصلاة في تاريخه نشهده وهو ما زال صبيًّا ناشئًا يطلب العلم في المدينة، فقد عهد والده بتأديبه وتهذيبه إلى الرجل الطيب

المؤدب صالح بن كيسان، وكان صالح يلزم عمر الصلاة في وقتها وجماعتها، فأبطأ عمر يومًا عن الصلاة، فحاسبه صالح على ذلك وقال له:

«ما الذي حبسك عن الصلاة؟».

قال عمر: «كانت مرجلتي تسكن شعري». (أي ترجله وتنظمه).

فقال صالح متعجبًا لائمًا: «بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره (أي تفضله) على الصلاة!!»...

وكأنما سكت عمر فلم يحر جوابًا.

وكتب صالح إلى أبيه عبد العزيز بن مروان بذلك، فبعث إليه أبوه رسولًا فلم يكلمه حتى حلق شعره!

وتمضي الأيام... وإذا هذا الغلام الذي شغله تسكين شعره ذات يوم عن ميقات الصلاة يبلغ مبلغ الشباب، ويصبح أميرًا على مدينة الرسول صلوات الله عليه، وقد نال من الفقه والسنة والعلم والأدب ما نال... وإذا أنس بن مالك العالم العظيم يصلي خلف عمر بن عبد العزيز، فيحمد له صلاته، ويثنى عليها، ويراها أشبه الصلوات بصلاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال زيد بن أسلم: «صلينا مع عمر بن عبد العزيز الظهر، ثم انصرفنا إلى أنس بن مالك -وكان شاكيًا (مريضًا)- فلما جلسنا قال: «أصليتم؟». قلنا: «نعم». قال: «يا جارية، هلمي وضوءًا... ما صليت خلف إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه بصلاة رسول الله من إمامكم»... يعني عمر بن عبد العزيز.

وكان عمر لا يطيل القراءة في صلاته، وكان يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود، وكان يقول عشر تسبيحات في ركوعه، وعشرًا في سجوده.

وكان عمر يترقب مواقيت الصلاة ليصليها لوقتها، وليجد فيها متعته ولذته. وقد يستدل لذلك بما رواه التاريخ من أن عمر كان له خوخة في داره مما يلي جهة الغروب. فكان إذا غربت الشمس، وأبطأ المؤذن قليلًا عن الأذان لصلاة المغرب بعث إليه: أن أذن فقد حضر الوقت.

وما أكثر الليالي التي قضاها عمر بن عبد العزيز متهجدًا متعبدًا، حتى إذا رحل الليل إلا أقله، وطلعت أنوار الفجر، تطلعت إلى الصلاة نفسه، فإذا أذن المؤذن للفجر أقبل على الصلاة إقبال من امتزج بجو العبادة والنجوى، فوصل خيرًا بخير، وزاد عبادة فوق عبادة.

ولقد بات سعيد بن عبد الملك بن مروان عند أخته فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز، فلما أمسوا دخل عمر إلى تابوت ففتحه فأخرج منه ثوبًا من الشعر فلبسه، ثم قام يصلي أثناء الليل... وكان أحيانًا يضع غلًّا في عنقه ويظل يصلي ويبكي ويناجي ربه حتى يطلع الفجر!

وكان يدخل الصلاة فيتلو فيها القرآن فيتأثر به ويبكي منه، فيطول بكاؤه. قال مقاتل بن حبان: صليت خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها... من البكاء!

وكذلك كان يبكي في سجوده فتغزو دموعه وتكثر، حتى يبل الموضع الذي يسجد فيه.

روى بعضهم قال: «لما رفع عمر بن عبد العزيز رأسه من السجود، خلف المقام، نظروا إلى موضع سجوده مبتلًّا من دموعه».

وربما اعتدل عمر في صلاته وعبادته فلم يطل من ناحية الزمن، ولكن تأثره يكون أكثر من تأثر سواه، وخوفه يكون أعمق من خوف غيره.

قالت فاطمة بنت عبد الملك للمغيرة بن حكيم: «يا مغيرة، إنه قد يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، وما رأيت أحدًا قط كان أشد فرقًا من ربه من عمر... كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده، ثم رفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه!».

وفي رواية: «كان إذا دخل بيته ألقى نفسه في مسجده، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه فيسقط، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع!».

وكان عمر يحرص على أن يختم يومه بالصلاة، حتى ينام على إثر عبادة، فإذا ما صلى آخر ما يريد صلاته في يومه امتنع حتى عن الكلام... يقول ابنه عبد العزيز: «كان عمر بن عبد العزيز يسجد بعد العشاء الآخرة قبل أن يوتر، فإذا أوتر لم يكلم أحدًا».

ومن عناية عمر بالصلاة أنه أصدر أمره بتعطيل الأعمال في الدولة عند حضور الصلوات، فقد كتب إلى عماله يقول: «اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعًا».

بل تبدو عنايته بأمر الصلاة أوضح وأوضح إذا عرفنا الموقف التالي... فقد خرج عمر على حرسه، فوسعوا له فجلس، فقال عمر: «أيكم يعرف الرجل الذي بعثناه إلى مصر؟».

قالوا: «كلنا نعرفه».

قال عمر: «فليذهب إليه أحدثكم سنًّا فليدعه».

وكان ذلك صباح جمعة. فذهب الحارس إلى الرجل يستدعيه إلى الخليفة، فظن الرجل أن الخليفة يستعجله، فشد عليه ثيابه، وأتى عمر، فقال له الخليفة:

«لا روع عليك، إن اليوم يوم الجمعة، فلا تبرح حتى تصلي الجمعة. وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين، فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها، فإنك لا محالة مصليها، فإن الله قال لقوم: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، ولم تكن إضاعتهم أن تركوها، ولكن أضاعوا المواقيت!».

وأوصى عمر بالمحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها. ولقد كتب إلى أمراء الأجناد كتابًا جاء في صدره: «أما بعد فإن عرى الدين وقوام الإسلام، الإيمان بالله، وإقام الصلاة لوقتها».

وكان من الأسباب التي كره من أجلها الحجاجَ أنه كان يؤخر أداء الصلاة عن مواقيتها، ولقد كتب عمر إلى واليه عدي بن أرطاة يقول: «بلغني أنك تستن بسنن الحجاج، فلا تستن بسننه، فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة لغير حقها، وكان لما سوى ذلك أضيع».

وحرص عمر على أن يؤدي الناس الصلاة، حتى الذين في السجون والمحابس، ولذلك كتب عمر إلى الذين يتولون أمر هذه المحابس يقول: «لا يقيد أحد بقيد يمنع من تمام الصلاة».

ولما تولى عمر الخلافة أخذ على نفسه عهدًا ألا يضع لبنة على لبنة، وألا يبني بناءً، وتشدد في ذلك تشددًا واضحًا، ولكنه خرج على هذا العهد حينما رأى الأمر متعلقًا ببناء مسجد له قيمته، تقام فيه الصلوات... فقد كتب إليه عامله على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يخبره أن بني عدي بن النجار، أخوال رسول الله ﷺ، انهدم مسجدهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه فليفعل... فكتب إليه عمر كتابًا جاء فيه:

«وجاء في كتابك تذكر أن بني عدي بن النجار، أخوال رسول الله ﷺ، انهدم مسجدهم.. وقد كنت أحب أن أخرج من الدنيا لم أضع حجرًا على حجر، ولا لبنة على لبنة. فإذا أتاك كتابي هذا فابنه لهم بلبن، بناءً قاصدًا، والسلام عليك».

وأخيرًا نرى عمر بن عبد العزيز يجعل حسن الصلاة والإخلاص فيها من المسوغات القوية للاستعانة بصاحبها في مهام الأمور. ولقد تولى عمر الخلافة فعزل رئيس الحرس خالد بن الريان لما كان فيه من زهو وخيلاء واعتداء، وأسند أمر الحرس إلى عمرو بن مهاجر الأنصاري، لأنه رآه حسن الصلاة مخلصًا فيها. قال له عمر:

«والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك فيه أحد، فرأيتك حسن الصلاة... خذ هذا السيف، قد وليتك حرسي»!

وهكذا رعى عمر بن عبد العزيز للصلاة حقها، وعرف جلال شأنها، فحافظ عليها، وانتهى بها عن الفحشاء والمنكر، وحث عليها، ودعا إليها، وأكرم أهليها، وتهدد المضيعين لها... فرضوان الله عليه، وسلام عليه في الخاشعين الأتقياء!

عمر والشباب

كانت حياة عمر بن عبد العزيز كصفحة من صفحات الشباب الغضة الناضرة التي انبسطت وهي زاهية باهية، وانطوت وهي في غضارتها ونضارتها... وكان عمره كالوردة التي باكرها طل الربيع فتفتحت له أوراقها الجميلة الحمراء، وانطوت بين يديه لم يدركها استواء الصيف، ولا زعازع الخريف.

وإذا صلح وصف «الخليفة الشاب» لأحد من الخلفاء، فإنه يكون أقوى صلاحية حينما يطلق على هذا الإمام الذي نال مرتبة الأعلام من الشيوخ، وهو ما زال في ميعة الشباب وضحوة الفتوة. وما كاد عمر يبلغ مبلغ الفتيان، بعد تقلبه في مطارف النعمة والعز، حتى أخذ زين شبابه بما ينهض به أو يوكل إليه من أعمال... فهذا هو الخليفة سليمان بن عبد الملك يولي عمر الشاب إمرة «خناصرة» بعد تجاوزه العشرين من عمره بقليل، ثم هذا هو الخليفة الوليد بن عبد الملك يولي عمر الشاب إمارة أوسع من تلك، وهي إمارة «المدينة»، وعمر في نحو الثلاثين من عمره... ثم هذه هي الخلافة الكبرى نفسها تأتي إلى عمر منقادة قبل أن يبلغ التاسعة والثلاثين من عمره، ثم ها هو ذا يسلم روحه وهو في نحو الأربعين، أي في سن الشباب!

ولعمر بن عبد العزيز عناية ملحوظة بالشباب، نشهدها خلال تاريخه، ونتتبع مواقفها فإذا هي، مجتمعة، تعطينا صورة عامة عن اهتمام عمر بأبناء هذه الأمة، ورعايته لمكان الناشئة والشبيبة فيها.

وهذا عمر يدرك ما لتربية الناشئة من جلال وخطورة، فيكتب إلى سهل مولاه ومؤدب أولاده يوصيه بالحزم والعزم في تأديب هؤلاء الأولاد حتى يخرجوا نماذج

صالحة لأبناء الأمة، وحتى يكونوا قدوة لغيرهم، لا أن يكونوا كغيرهم فقط... ولذلك يشتد عمر في وصيته بعض الشيء، ويقسوا على أولاده بعض القسوة، فيقول لمؤدب أولاده:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاه، أما بعد فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك عن غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي، فحدثهم بالجفاء فهو أمعن لأقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك فإن كثرته تميت القلب...

وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بفض الملاهي التي بدؤها الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن... فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف، واستماع الأغاني واللهج بها، ينبت النفاق في القلب، كما ينبت العشب الماء. ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه، وهو حين لا يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به.

وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله، وخرج إلى الغرض حافيًا، فرمى سبعة أرشاق، ثم انصرف إلى القائلة... فإن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: يا بني، قيلوا فإن الشياطين لا تقيل!».

ويكتب عمر إلى ابنه الفتى عبد الملك وصية طويلة تبدو فيها عنايته الواضحة بأمر تنشئته وتربيته ورجاء الخير منه في عمله وقوله، وفي صدر هذه الوصية يقول عمر رضي الله عنه:

«أما بعد، فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنت، وإن أحق من وعى ذلك وحفظه عني أنت. إن الله له الحمد قد أحسن إلينا إحسانًا كثيرًا بالغًا في

لطيف أمرنا وعامته، وعلى الله إتمام ما غير من النعمة، وإياه نسأل العون على شكرها، فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك.

ثم أعن أباك على ما قوي عليه، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزًا عن العمل فيما أنعم به عليه وعليك في ذلك. فراع نفسك وشبابك وصحتك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميدًا وتسبيحًا وتهليلًا، فافعل... فإن أحسن ما وصلت به حديثًا حسنًا حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثًا سيئًا، حمد الله وذكره، فلا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيها ليس فيه».

ويشب الفتى عبد الملك طيبًا طهورًا، وينبته الله نباتًا حسنًا، وتتفتح فيه أزاهير الحكمة واليقين، وتتفجر في صدره ينابيع الإيمان والتقوى... حتى يشير على والده فيقبل منه، ويراجعه فيسمع له، وينتقده فيستجيب لنقده، ويذكره بالخير، فيضمه عمر ويقبله ويقول: «الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يذكرني بربي ويعينني على ديني!... وكان عمر إذا أشكل عليه أمر استعان فيه برأي ابنه الفتى عبد الملك!...

ويؤثر عبد الملك الفتى الناشئ على طاعة الله في والده خير تأثير، حتى يقول بعض مشيخة أهل الشام: «كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رآه من ابنه عبد الملك».

ولقد غضب عمر بن عبد العزيز يومًا غضبًا شديدًا -وكانت فيه حدة- وكان ابنه عبد الملك حاضرًا. فلما رأى غضب أبيه، صبر عليه حتى سكن غضبه، ثم قال لأبيه:

«يا أمير المؤمنين، أنت في قدر نعمة الله عليك، وموضعك الذي وضعك به، وما ولاك من أمر عباده... يبلغ بك الغضب ما أرى؟!».

قال عمر: «كيف قلت؟!».

فأعاد عبد الملك كلامه، فقال له عمر: «أما تغضب يا عبد الملك؟».

فأشار عبد الملك إلى بطنه -وكان بطينًا- وقال: «ما تغني سعة جوفي إن لم أرد فيه الغضب عني لا يظهر منه شيء أكرهه؟!».

* * *

وكما حرص عمر بن عبد العزيز على تأديب أولاده وتهذيبهم، وتخريجهم في العلم والدين والخلق... حرص على مثل هذا لأبناء الأمة. ولقد دخل عليه غلام اسمه حريث بن عثمان الدجني مع أبيه، فسأل عمر أبا الغلام عن حال ابنه وعن تعليمه وتقويمه، ثم قال للوالد: «علمه الفقه الأكبر».

قال عثمان: «وما الفقه الأكبر يا أمير المؤمنين؟».

قال عمر: «القناعة وكف الأذى!».

ولقد أقبلت الوفود على عمر عقب توليه الخلافة تهنئه وتبارك له، وكان أول هذه الوفود هو وفد الحجاز، لأن الحجاز كان أكثر الأقطار فرحًا بولاية عمر، فلما دخل الوفد عليه تقدم من بينه غلام صغير في العاشرة من عمره، وهم بالكلام، فنظر إليه عمر فاستصغره، فقال له:

«يا غلام، ليتكلم من هو أسن منك!»

فقال الغلام: «يا أمير المؤمنين، ليس الأمر بالسن، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. فإذا منح الله العبد لسانًا لافظًا، وقلبًا حافظًا، فقد أجاد له الاختيار، واستحق الكلام. ولو أن الأمور، يا أمير المؤمنين، بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك

بمجلسك هذا!».

فأعجب عمر بالغلام وجرأته وشجاعته وحسن منطقه، وقال: «صدقت، تكلم أيها الغلام، فهذا هو السحر الحلال!».

فقال الغلام: «يا أمير المؤمنين، نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة (طلب المعونة)، ولم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة، لأنا قد أمنا في أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا!».

فازدادت دهشة عمر، وازداد إعجابه بالفتى البليغ...

وكان عمر حريصًا على أخلاق الشباب، وعفة نفوسهم، واستقامة أمورهم، وطمأنينة عواطفهم... ولذلك كان يعاون الشبان على الزواج. وإذا تزوج شاب منهم، وعجز عن نفقة الزواج، أو استدان في سبيل ذلك... أمر عمر بأن يقضي ما عجز عنه من بيت المال.

ولقد حدث أن تقدم ابن لعمر يريد التزوج بزوجة ثانية، فأبى عمر ذلك، ولام ولده لومًا شديدًا، وفضل عليه أن يزوج غيره من شباب المسلمين الذين لا يقدرون على الزواج.

فقد روى ابن عبد الحكم أن ولدًا لعمر بن عبد العزيز طلب منه أن يزوجه، وأن يعينه بشيء من بيت المال، وكان لهذا الولد زوجة، فغضب عمر من ذلك، وكتب إلى ابنه يقول:

«لعمر الله، لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين، وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعفُّ بها... فلا أعرفن ما كتبت، وانظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا، فبعه واستعن بثمنه على ما بدا لك!».

وإليك موقفًا آخر تلمح فيه انتصار عمر للشباب، فقد جاءه شيخ من أهل المشرق مع ابن أخ له يختصمان، وكان الشيخ قد أطال شاربيه إطالة فاحشة حتى سال شعرهما عليه، وجعل عمر يستمع إليه وينتصف للشاب دون أن يظلم الشيخ. وهمت نفس الشيخ بالاستجابة لرغبة عمر في الإصلاح بينهما، ولكن نازغًا من نوازغ الشيطان دب في صدره فعدل به عن هذه الاستجابة. وكأنما غاظ عمر ذلك، فقد كان يريد جمع الشيخ والشاب على خطة الوفاق والائتلاف، فقال للشيخ لائمًا ومعنفًا:

«ما رأيت أحلى منك ولا أمر، ولا أبعد ولا أقرب... بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم!».

ثم نادى عمر على حجامه «مينا» وقال له: «أخرج هذا الشيخ من الصف، ثم خذ لي من شاربه، ثم ائتني به!». وفعل «مينا» ما أراده الخليفة، فقال عمر:

«هذا أطيب وأنظف مع الفطرة... هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك!».

قالا: «نعم». فأصلح بينهما عمر، ورفع يديه إلى السماء قائلًا: «الحمد لله...».

وخرج الشيخ منتفعًا بتأديب عمر، وخرج الفتى مسرورًا بإنصاف عمر له!

عمر والشّعر

الشعر ترجمان القلوب، ومرآة العواطف والمشاعر... يقوله صاحبه فيجد فيه متعة، ويحس له لذة في نفسه وحسه، وترويحًا عن همومه وأحزانه.

ولقد روي أن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود -وهو أحد فقهاء المدينة السبعة- قال أبياتًا من الشعر ينتصف فيها لنفسه ممن أغضبه، فقال له ابن شهاب: «رحمك الله، أتقول الشعر في فضلك ونسكك؟».

فقال عبيد الله: «إن المصدور إذا نفث برأ!».

ولقد كان عمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليه، محبًّا للشعر محتفلًا به: يجد فيه سلواه وعزاءه، ويتخذه متعة حينًا، وواعظًا حينًا آخر.

قال الشعر، وإن كان الذي نظمه قليلًا محدودًا، واستمع إلى الكثير من الشعراء، ومال بين شعر هذا وشعر ذاك. وكانت له مع الشعراء وقفات ونقدات تدل على خبرة بالشعر، وبصر بطيبه ورديئه. وكان لا يتحرج أن يقول شيئًا من الشعر في لاعجة من اللواعج، أو عاطفة من عواطف القلب.

وربما سمع أبياتًا في غزل أو نسيب فأعجب بها وعلق عليها ورددها... أنشد ذات يوم أبياتًا لقيس بن الخطيم في الغزل، ثم علق عليها بقوله:

«قائل هذا الشعر أنسب الناس»، أي أرقهم غزلًا ونسيبًا بالنساء!

ولقد جاء ذكر عروة بن أذينة في مجلس عمر فقال عنه: نعم الرجل أبو عامر، وأنشد أبياته التي يقول فيها:

سليمي أزمعت بينا ... فأين تقولها أينا؟
وقد قالت لأتراب ... لها زهر تلاقينا:
تعالين، فقد طاب ... لنا العيش، تعالينا
فأقبلن إليها مسر ... عات يتهادينا...
إلى مثل مهاة الرمـ ... ـل، تكسو المجلس الزينا
إلى خود[1] منعمة ... حففن بها، وفدينا
تمنين مناهن ... فكنا ما تمنينا

ولقد دخل «نصيب» مسجد رسول الله ﷺ، وعمر بن عبد العزيز أمير للمدينة، وكان جالسًا بين قبر النبي ومنبره، فقال له نصيب: أيها الأمير، ايذن لي أن أنشدك من مراثي عبد العزيز (يعني أبا عمر).

فقال عمر: «لا تفعل فتحزنني، ولكن أنشدني قولك: «قفا أخوي» فإن شيطانك كان لك فيها ناصحًا حين لقنك إياها». فأنشده قوله:

قفا أخوي، إن الدار ليست ... كما كانت بعهدكما تكون
ليالي تعلمان وآل ليلي ... قطين الدار، فاحتمل القطين[2]
فعوجا فانظرا: أتبين عما ... سألناها به أم لا تبين؟
فظلا واقفين، وظل دمعي ... على خدي لتجود به العيون
فلولا إذ رأيت اليأس منها ... بدا أن كدت ترشقك العيون
برحت فلم يلمك الناس فيها ... ولم تغلق كما غلق الرهين[3]

---

(١) الخود: المرأة الشابة الجميلة.
(٢) القطين: سكان الدار.
(٣) غلق الرهن: أي لم يمكن استرداده.

وجاء «دكين الراجز» في أثناء ولايته للمدينة، فمدحه فأعطاه عمر خمس عشرة ناقة، وأراد دكين أن يرحل إلى مصر، وذهب إلى عمر يستأذنه ويودعه، فقال عمر لدكين: «يا دكين، إن لي نفسًا تواقة، فإن صرت إلى أكثر مما أنا فيه فائتني ولك الإحسان».

قال دكين: أشهد لي بذلك.

قال عمر: أشهد الله به.

قال دكين: ومن خلقه؟

قال عمر: هذين الشيخين (وهما سالم بن عبد الله بن عمر، وأبو يحيى مولى الأمير). فرضي دكين بهما شاهدين، ورحل.

ومضت الأيام، ومات سليمان بن عبد الملك، ويولى عمر الخلافة، فجاءه دكين فوجد جريرًا الشاعر منصرفًا من عنده، فقال له: «يا أبا حزرة، من أين؟». قال جرير: «من عند من يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء!».

فدنا دكين من عمر، وأنشده:

يا عمر الخيرات والمكارم ... وعمر الدسائع العظائم[1]
إني امرؤ من قطن بن دارم ... طلبت ديني من أخي مكارم
إذ تنتحي والله غير نائم ... عند أبي يحيى وعند سالم!

فقال أبو يحيى وكان حاضرًا: «يا أمير المؤمنين، لهذا البدوي عندي شهادة عليك».

---

(١) الدسائع: العطايا.

فقال عمر: «أعرفها... ادن يا دكين، أنا كما ذكرت لك، إن نفسي لم تنل شيئًا إلا تاقت لما هو فوقه، وقد نلت غاية الدنيا، فنفسي تتوق إلى الآخرة. والله ما رزأت من أموال الناس شيئًا، ولا عندي إلا ألف درهم، فخذ نصفها!».

فكان دكين يقول: «فوالله ما رأيت ألفًا كان أعظم بركة منه!».

وكان عمر يقارن بين الشعراء، ويحكم على هذا، ويحكم لذاك، وهذا يدل على مدى علاقته بالشعر...

سأله سليمان بن عبد الملك: أجرير أشعر أم الأخطل؟ فقال عمر: اعفني، قال: لا والله لا أعفيك. قال: إن الأخطل ضيق عليه كفره القول، وإن جريرًا وسع عليه إسلامه قوله، وقد بلغ الأخطل منه ما رأيت.

فقال سليمان: فضلت والله الأخطل...

ولكن إعجاب عمر بالشعر لم يصل إلى حد رضاه عن الفحش والخنا فيه، ولذلك اشتد وهو أمير بالمدينة على المتفحشين من الشعراء الذين يتهاجون ويتقاذفون، فأمر مثلًا بربط جرير وعمر بن لجأ لما تهاجيا وتقاذفا، فقرنوهما في حبل لينالا جزاءهما.

وكان عمر بن لجأ شابًّا قويًّا، وكان جرير شيخًا كبيرًا، فكان عمر بن لجأ يقول وهو مربوط معرضًا بجرير:

رأوا قمرًا بساحتهم منيرًا ... وكيف يقارن القمر الحمار!

ويرد جرير بقوله:

فلست مفارقًا قرني حتى ... يطول تصعدي بك وانحداري

ويروى أنه لما حضر غداء عمر بن عبد العزيز قال له رجل من جلسائه: لو دعا الأمير بأسيريه فغداهما معه؟ فدعا عمر بالشاعرين فأكلا معه.

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد قال شعرًا عاطفيًّا قليلًا، كان أهلًا للغناء، فإنه أيضًا قال الشعر الأخلاقي التهذيبي الذي يدل على أصالة التدين والتخلق فيه. يروي ابن الجوزي له هذه الأبيات:

إني لأمـــنح مـــن يواصـــلني ... منـــي صـــفاء لـــيس بالمـــذق[1]
وإذا أخ لي حـــال عـــن خلـــق ... داويـــت منـــه ذاك بـــالرفق
والمـــرء يـــصنع نفـــسه ومتـــى ... مـــا تبلـــه يرجـــع إلى العـــرق!

وروى ابن دريد لعمر هذه الأبيات:

ومـــن النـــاس مـــن يعـــيش شـــقيًّا ... جيفـــة الليـــل، غافـــل اليقظـــة
فـــإذا كـــان ذا حيـــاء وديـــن ... راقـــب الله، واتقـــى الحفظـــة
إنـــما النـــاس راحـــل ومقـــيم ... فالـــذي صـــار للمقـــيم عظـــة

ومما قاله قبل توليه الخلافة:

انْـــهَ الفـــؤاد عـــن الـــصبى ... وعـــن انقيـــاد للهـــوى
ولعمـــــر ربـــــك إن في ... شـــيب المفـــارق واللحـــى
لـــك واعظًـــا إن كنـــت ... تـــتعظ اتعـــاظ أولي النهـــى
حتـــى متـــى لا ترعـــوي؟ ... حتـــى متـــى؟ وإلى متـــى؟
مـــن بعـــد مـــا سميت كهـــلًا ... واســـتلبت اســـم الفتـــى

(١) أي ليس بالمخلوط أو المكذوب.

بلي الشباب وأنت إن عمرت رهن للبلى
وكفى بذلك زاجرًا للمرء عن غي، كفى!

وتولى عمر الخلافة، فتبدل أمره كله... كان مقبلًا على الدنيا فأقبل على الآخرة، وكان مترفًا منعمًا، فأصبح زاهدًا متقشفًا، وكان يلبس الحرير ويعده خشنًا، فأصبح يلبس الصوف ويعده لينًا رقيقًا. وكان مسئولًا بالأمس عن نفسه فقط، فصار يؤمن بأنه مسئول عن كل فرد في الأمة، وكان يقول الشعر، أو يستنشده أو يتمثل به، أو يتغنى به، فانصرف عن هذا كله أو عن أغلبه.

نعم إن عمر قد قال شعرًا وهو خليفة، وسمع بعض القصائد، ولكنه شعر من نوع خاص، إنه شعر التقوى والزهد والورع، إنه الشعر الذي يحض على مكارم الأخلاق.

لقد انصرف عمر عن قبر سليمان بن عبد الملك عقب دفنه، فقدموا إليه مراكب الخليفة ليركبها، فأبى عمر ذلك، وقال:

فلولا التقى ثم النهي خشية الردى لعاصيت في حب الصبا كل زاجر
قضى ما قضى من عمره، ثم لا يرى له صبوة أخرى الليالي الغوابر
فإن عاد في أمر يسوؤك بعدها فليس له منك استقالة عاذر

ويروى أن الشعبي كان واقفًا بجانب عمر بن عبد العزيز، فأطال الوقوف، وكأن عمر لم يشعر به في أول الأمر، لأنه كان يفكر أو يدير في نفسه أبياتًا من طراز شعره الأخلاقي التهذيبي، ثم أحس بالشعبي فقال له: إنك لواقف يا شعبي؟ فقال الشعبي: إني لواقف. فقال عمر: خذ إليك يا شعبي. ثم قال:

هب الدنيا تزف إليك زفًّا زفاف عرائس باكرن قصفًا
وقد ملكتها شرقًا وغربًا حويت بجمعها برًّا وطفا[1]
يجئن بألف ألف كل يوم ويتبع ألفها سبعون ألفًا
إذا عاديت قومًا في بلاد أتيت على جميع الناس عسفًا
ألست ملاقيا -لا شك فيه وإن عمرت طول الدهر حتفًا؟
فما ترجو بدار قد تراها بكل سرورها أبدًا تكفا

ولقد حدث في أول خلافته أن قدم إليه كثير عزة ونصيب والأحوص، وهم من شعراء عصره، كل واحد منهم يفتخر بصلته بعمر وإخائه له من قبل. فكان أول من لقيهم مسلمة بن عبد الملك وهو يومئذٍ فتى العرب، وكل واحد من الثلاثة ينظر في عطفيه زهوًا، ويحسب أنه شريك عمر في الخلافة.

فأحسن مسلمة لقاءهم وأكرم مثواهم، وسألوه عن عمر ومكانة الشعراء عنده، فقال لهم: أما علمتم أن إمامكم لا يعطي الشعراء شيئًا؟ قالوا: قد جئنا الآن، فوجه لنا في هذا الأمر وجهًا، فقال: إن كان ذو دين من آل مروان (يعني عمر) قد ولي الخلافة، فقد بقي من ذوي دنياهم من يقضي حوائجكم، ويفعل بكم ما أنتم له أهل.

فأقاموا عنده فترة طويلة، وحاول أن يستأذن لهم عند عمر لينشدوا أمداحهم التي أعدوها فيه، فلم يلق مجالًا... فذهب كثير يوم الجمعة إلى المسجد ليحفظ كلام عمر في خطبته، فوجده يتحدث عن التقوى والآخرة، وعن الثواب والعقاب، وعن غرور الحياة وباطلها، حتى أبكى من في المسجد، فرجع كثير إلى صاحبيه يقول لهما:

---

(١) الطف: الشاطئ.

«جددا من الشعر غير ما أعددناه، فليس الرجل بدنيوي!».

ونفهم من ذلك أنهم كانوا قد أعدوا أمداحًا حشدوها بعبارات المديح المتعلق بالدنيا وزينتها، ثم أدرك كثير من كلام عمر في المسجد أن مثل هذه الأمداح لا تروج عنده، فنصح زميليه بأن يقولا شعرًا يتفق مع منهج عمر في التقوى.

ثم استأذن لهم مسلمة، فأذن عمر، ودخلوا فسلموا عليه بالخلافة، ثم قال كثير: «يا أمير المؤمنين، طال الثواء (يعني الانتظار) وقلت الفائدة، وتحدثتْ بجفائك إيانا وفود العرب».

فقال عمر: «يا كثير، أما سمعت إلى قول الله ﷻ في كتابه: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٦٠]... أفمن هؤلاء أنت؟».

قال كثير وهو يضحك: أنا ابن سبيل ومنقطع به!

فأشار عمر إلى مسلمة قائلًا لكثير: أولست ضيف أبي سعيد؟

قال كثير: بلى. قال عمر: ما أحسب من كان ضيف أبي سعيد أنه ابن سبيل أو منقطع به.

فرجاه كثير أن يسمع شيئًا من شعره، فقال له: قل، ولا تقل إلا حقًّا، فإن الله سائلك، فأنشده كثير قوله:

وُلِّيت فلم تشتم عليا، ولم تخف ... بريئًا، ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي ... فعلت، فأضحى راضيًا كل مسلم

ألا إنـما يكفـي الفتـى بعـد زيغـه	من الأود البـاقي ثقـاف المقـوم[١]
لقد لبست لـبس الهلـوك[٢] ببابهـا	وأبدت لك الدنيا بكف ومعـصم
وتـومض أحيانًـا بعـينٍ مريـضة	وتبـسم عـن مثـل الجمان المـنظم
فأعرضــت عنهـا مـشمئزًا، كـأنما	سقتك مدوفًا[٣] من سمام وعلقـم
وقـد كنـت مـن أجبالهـا في ممنـع	ومن بحرها في مزيد المـوج مفعـم
ومـا زلـت سـباقًا إلى كـل غايـة	صـعدت بهـا أعـلى البنـاء المقـدم
فلـما أتـاك الملـك عفـوًا ولم يكـن	لطالــب دنيــا بعــده مــن تكلـم
تركت الذي يفنى، وإن كان مونقًـا	وآثـرت مـا يبقـى بـرأي مـصمم
فأضررت بالفاني، وشمرت للـذي	أمامك في يـوم مـن الهـول مظلـم
ومالك -إن كنـت الخليفـة- مـانع	سوى الله من مـال رغيـب ولا ذم
سـما لــك هـم في الفـؤاد مـؤرق	صـعدت بـه أعـلى المعـالي بـسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها	مناد ينـادي مـن فـصيح وأعجـم
يقـول: أمـير المـؤمنين ظلمتنـي	بأخــذ لــدينار ولا أخــذ درهــم
ولا بـسط كـف لامـرئ ظـالم لـه	ولا السفك منه ظالمًا مـلء محجـم
فلـو يـستطيع المـسلمون تقـسموا	لك الشطر من أعمارهم غـير نـدم
فعـشت بـه مـا حـج لله راكـب	مغـذ[٤] مطيـف بالمقـام وزمـزم
فـأربِحْ بهـا مــن صـفقة لمبـايع	وأعظم بها، أعظم بهـا، ثـم أعظـم

---

(١) أي بحسب المرء أن يجد بعد ضلاله من يقوم عوجه.

(٢) الهلوك: المرأة المتساقطة على الرجال.

(٣) المدوف: يعني المخلوف من السير.

(٤) مغذ: مسرع في السير.

فقال عمر: يا كثير، إن الله سائلك عن كل ما قلت...

وتقدم إليه الأحوص يرجوه أن يسمعه شيئًا من شعره، فأذن له قائلًا: قل، ولا تقل إلا حقًّا، فإن الله سائلك. فأنشده الأحوص قوله:

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف ... بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا ... ولا ترجعنا كالنساء الأرامل
رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة ... ولا يسرة فعل الظلوم المجادل
ولكن أخذت القصد جهدك كله ... وتقفو مثال الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ... ومن ذا يرد الحق من قول عاذل؟
ومن ذا يرد السهم بعد مروقه ... على فوقه أن عار من نزع نابل[1]
ولولا الذي قد عودتنا خلائف ... غطاريف كانت كالليوث
لما وخدت شهرًا برحلي جرة ... تفل متون البيد بين الرواحل
ولكن رجونا منك مثل الذي به ... صرفنا قديمًا من ذويك الأفاضل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع ... وإن كان مثل الدر من قول قائل
وكان مصيبًا صادقًا لا يعيبه ... سوى أنه يبني بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة ... وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذادوا عدو السلم عن عقر دارهم ... وأرسوا عمود الدين بعد تمايل
فقبلك ما أعطى الهنيدة جلة ... على الشعر كعبًا من سديس وبازل
رسول الإله المصطفى بنبوة ... عليه سلام بالضحى والأصائل
فكل الذي عددت يكفيك بعضه ... ونيلك خير من بحور السوائل

---

(١) السهم العائر: الذي لا يدرى من أين أتى.

فقال له عمر: يا أحوص، إن الله سائلك عن كل ما قلت!

ثم تقدم نصيب يستأذن في الإنشاد، فأبى عمر غاضبًا، وأمره أن يلحق بقرية «دابق»، وهي قرية قرب حلب، بينها وبين حلب أربعة فراسخ.

ويظهر أن عمر رفض أن يستمع من نصيب لكثرة تشهيره بالنساء وتعرضه للحرمات، ومجاهرته في شعره بالتشبيب الجارح. ولكن جاء في إحدى الروايات ما يفهم منه أن عمر لم يثر على نصيب، بل أعطاه شيئًا. فقد روي أن عمر قال للثلاثة يومئذٍ: ما عندي ما أعطيكم، فانتظروا حتى يخرج عطائي، فأواسيكم منه (أي أعطيكم منه). فلما خرج عطاؤه أعطى لكثير ثلاثمائة درهم، وللأحوص مثلها، ولنصيب مائة وخمسين درهمًا.

قال كثير: فما رأيت أعظم بركة من الثلاثمائة التي أعطاني، ابتعت بها وصيفة، فعلمتها الغناء، فبعتها بألف دينار.

* * *

ويلوح لنا من تتبع الروايات الكثيرة المختلفة عن مقابلات الشعراء لعمر بن عبد العزيز أن هذه المقابلات قد تكررت وتعددت، واختلفت مواقف عمر فيها باختلاف المناسبات والظروف: فتارة يكون صارمًا فيحاسب ويعاقب ويحرم، وتارة يستمع إلى صوت التوبة والندم فيعفو ويصفح، أو يجود ويمنح، وتارة يحبب ويعد، وتارة يهدد ويتوعد... وهكذا.

ولذلك يروى عن «نصيب» إنه دخل على عمر وهو خليفة، فقال له عمر غاضبًا: إيه يا أسود، أنت الذي تشهر النساء بنسيبك؟

فقال: إني قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين، وعاهدت الله ﷻ ألا أقول نسيبًا.

وشهد له بذلك من حضر، وأثنوا عليه خيرًا، فهدأت ثائرة عمر وقال: أما إذ كان الأمر هكذا فسل حاجتك. فقال: لي بنيات (يعني بنات) نفضت عليهن سوادي، فكسدن، أرغب بهن عن السودان (السود الألوان) ويرغب عنهن البيضان (البيض الألوان).

قال عمر: فتريد ماذا؟ أجاب: تفرض لهن، ففعل عمر. قال نصيب: ونفقة لطريقي. فأعطاه عمر حلية سيفه وكساه ثوبيه، وكانا يساويان ثلاثين درهمًا.

ويروي أبو الفرج الأصفهاني في «الأغاني»: أنه لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعث إلى والي المدينة يطلب منه أن يرسل إليه عمر بن أبي ربيعة والأحوص، ويقول له: «قد عرفت عمر والأحوص بالخبث والشر، فإذا أتاك كتابي هذا فاشددهما واحملهما إلي».

وأرسلهما الوالي، فأقبل عمر على ابن أبي ربيعة فقال له: «هيه...

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ... ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى

وكم مالئ عينيه من شيء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك»... ثم أمر بنفيه.

فقال ابن أبي ربيعة:

يا أمير المؤمنين، أو خير من ذلك؟. قال عمر: وما هو؟ قال: أعاهد الله ألا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبدًا، وأجدد توبة على يديك.

قال: أو تفعل؟ قال: نعم. فعاهد الله على التوبة، وخلاه.

ثم أقبل عمر على الأحوص وقال له: «هيه...

الله بيني وبين قيمها يهرب مني بها وأتبع

بل الله بين قيمها وبينك». ثم أمر بنفيه إلى بلدة «بيش» من بلاد اليمن. والصحيح أنه نفاه إلى «دهلك» وهي جزيرة في بحر اليمن، ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة، وهي بلدة ضيقة حارة تجاه مصوع، وكان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليه.

وجاء أناس إلى عمر يقدمون الشفاعة في أمر الأحوص ليرده، وجعلوا يقولون له: قد عرفت نسبه وقدمه وموضعه، وقد أخرج إلى بلاد الشرك، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله ﷺ ودار قومه.

فقال لهم عمر: من الذي يقول:

فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب؟

قالوا: الأحوص. قال: فمن الذي يقول:

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور

وما كنت زوارًا ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لا بد أن سيزور؟

قالوا: الأحوص. قال: فمن الذي يقول:

كأن لبيني صبير[1] غادية أو دمية زينت بها البيع

الله بيني وبين قيمها يهرب مني بها وأتبع

---

(١) صبير: سحابة بيضاء.

قالوا: الأحوص. قال: «إن الفاسق عنها يومئذٍ لمشغول، والله لا أرده ما كان لي سلطان». فبقي الأحوص، وكتب إلى عمر قصيدة يستعطفه فيها، فلم يستجب لها، وظل حتى مات عمر، ثم رده يزيد بن عبد الملك بعد أن سمع شيئًا من شعره تغنيه «حبابة» المغنية المشهورة على عهده!

ولكن جاء في «الأغاني» رواية تفيد أن الذي نفاه إلى «دهلك» هو سليمان بن عبد الملك الليفة السابق لعمر بن عبد العزيز، وهذه الرواية تقول:

«كان الأحوص ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة، ويتغنى في شعره معبد ومالك، ويشيع ذلك في الناس، فنهي لم ينته، فشكى إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة وسألوه الكتابة فيه إليه، ففعل ذلك، فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط، ويقيمه على البلس (الإبل) للناس، ثم يصيره إلى دهلك، ففعل ذلك به، فثوى هناك سلطان سليمان بن عبد الملك، ثم ولي عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه يستأذنه في القدوم ويمدحه، فأبى أن يأذن له».

ومن يدري فلعل نفي الأحوص تكرر، فحدث أولًا في عهد سليمان، ثم عاد رجاء أن يتوب، ثم نفاه عمر بعد أن تطاول وتفاقم شره وتعرض «للنساء ذوات الأخطار» مما أثار عليه رجال هؤلاء النساء.

ومما يدل على أن الأحوص كان طليق السراح في بعض الأوقات على عهد عمر بن عبد العزيز أن التاريخ يروي فيما يرويه أن الأحوص لما أكثر التشبيب بأم جعفر (وهي امرأة من الأنصار من بني خطمة) وشاع ما قاله فيها، غضب أخ لها يسمى «أيمن»، وهدد الأحوص فلم يرتدع.

فذهب أيمن إلى عمر بن عبد العزيز، وشكا إليه، فربط عمر الأحوص وأيمن في حبل طويل، ودفع إليهما سوطين يتبارزان بهما، وقال لهما: تجالدا، فتجالدا، فغلب أخوها، وسلح الأحوص في ثيابه، أي أحدث على نفسه، وهرب، وتبعه أخوها حتى فاته الأحوص هربًا.

وإنما أعطاهما عمر السوطين ليتضاربا بهما اقتداء بعثمان بن عفان، فإنه لما تهاجى سالم بن دارة ومرة بن واقع الغطفاني، ربطهما عثمان في حبل، وأعطاهما سوطين فتجالدا بهما.

وكأن عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يدرك أن «أيمن» قادر على البطش بالأحوص، لأن أيمن في موقف الثائر لعرضه، الغاضب لشرف أخته، وأما الأحوص فإنه في موقف المتهم المأخوذ بذنبه، فلن يكون عنده ما عند أيمن من ثورة وغضب!

وكان الأحوص قد قال في أم جعفر هذه:

لقد منعت معروفها أم جعفر ... وإني إلى معروفها لفقير
وقد أنكرت بعد اعتراف زيارتي ... وقد وغرت فيها علي صدور
أدور ولولا أن أرى أم جعفر ... بأبياتكم ما درت حيث أدور
أزور البيوت اللاصقات ببيتها ... وقلبي إلى البيت الذي لا أزور
وما كنت زوارًا ولكن ذا الهوى ... إذا لم يزر لا بد أن سيزور
أزور على أن لست أنفك كلما ... أتيت عدوًّا بالبنان يشير

ومن شعره فيها أيضًا قوله:

وإني ليدعوني هوى أم جعفر ... وجاراتها من ساعة فأجيب

وإني لآتي البيت ما إن أحبه ... وأكثر هجر البيت وهو حبيب
وأغضي على أشياء منكم تسوؤني ... وأدعى إلى ما سركم فأجيب
وما زلت من ذكراك حتى كأنني ... أميم[1] بأفياء الديار سليب
أبثك ما ألقى وفي النفس حاجة ... لها بين جلدي والعظام دبيب
لك الله، إني واصل ما وصلتني ... ومثن بما أوليتني ومثيب
وآخذ ما أعطيت عفوًا، وإنني ... لأزور عما تكرهين هبوب
فلا تتركي نفسي شعاعًا، فإنها ... من الحزن قد كادت عليك تذوب
هبيني امرأ، إما بريئًا ظلمته ... وإما مسيئًا مذنبًا فيتوب!

* * *

والمؤلم في موقف الأحوص من هذه المرأة أنه كان يتحدث عن أشياء ووقائع يدعي أنها حدثت بينه وبينها، وهو كاذب فيما يقول. وكان لحديثه وقع السهام في نفسها ونفوس قومها. وقد احتالت أم جعفر هذه بحيلة بارعة، أرادت بها أن تظهر كذب الأحوص عليها أمام النساء.

وضعت أم جعفر النقاب على وجهها، وخرجت بعد أن أكثر الأحوص القول فيها، فوقفت عليه في مجلس قومه وهو لا يعرفها، وكانت امرأة عفيفة، ثم قالت له وهي لم تلتق به من قبل:

«اقضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني».

فقال الأحوص: ما ابتعت منك شيئًا...

(١) أميم: مشجوج الرأس.

فأخرجت كتابًا قد صنعته، وفيه أن الأحوص عليه ثمن هذه الغنم، وجعلت تبكي وتشتكي الحاجة والضر والفاقة، وتقول للناس حوله: «يا قوم، كلموه».

فأخذوا يلومونه ويقولون له: اقض المرأة حقها. فجعل يحلف أنه لا يعرفها وما رآها قط. فكشفت أم جعفر عن وجهها وقالت: ويحك، أما تعرفني؟

فأخذ يحلف مكررًا حلفه، ومؤكدًا أنه لا يعرفها ولا رآها قط.

وكان الناس قد اجتمعوا وكثروا وسمعوا ما دار بينهما، وكثر لغطهم وقولهم. فقالت أم جعفر:

«يا أيها الناس، اسكتوا».

ثم أقبلت عليه تقول له: «يا عدو الله، صدقت، والله ما لي عليك حق، ولا تعرفني. وقد حلفت على ذلك وأنت صادق، وأنا أم جعفر، وأنت تقول في شعرك: قلت لأم جعفر، وقالت لي أم جعفر»... فخجل الأحوص، وانكسر عن ذلك، وبرئت عندهم...

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز لا يرى للشعراء حقًّا أو سهمًا في بيت المال، لأنهم ليسوا من الأصناف التي ذكرها الله تبارك وتعالى في مصارف المال. ولقد كان سليمان بن عبد الملك الخليفة قبله يحسن إلى الأعشى الشاعر (أعشى بني تغلب)، فلما تولى عمر الخلافة جاءه الأعشى، وافدًا عليه، ومدحه يشعر، فلم يعطه عمر شيئًا، وقال: «ما أرى للشعراء في بيت المال حقًّا، ولو كان لهم فيه حق لما كان لك، لأنك امرؤ نصراني».

فانصرف الأعشى غاضبًا، وقال يُعَرِّض بعمر:

لعمري لقد عاش الوليد حياته إمام هدى، لا مستزاد ولا نزر
كأن بني مروان بعد وفاته جلاميد لا تندى وإن بلها القطر

ويروى عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري أنه قال:

حضرت مع عمر بن عبد العزيز جنازة، فلما انصرف انصرفت معه، وعليه عمامة قد سدلها من خلفه، فما علمت حتى اعترضه رجل على بعير فصاح به:

أجبني أبا حفص، لقيت محمدًا على حوضه مستبشرًا ورآكا

فقال له عمر: لبيك. ووقف ووقف الناس معه.

ثم قال له: فمه؟ فقال:

فأنت امرؤ كلتا يديك مفيدة شمالك خير من يمين سواكا

قال عمر: ثم مه؟ قال:

بلغت مدى المجرين قبلك إذ جروا ولم يبلغ المجرون بعد مداكا
فجداك لا جدين أكرم منهما هناك تناهى المجد ثم هناكا!

فقال له عمر: ألا أراك شاعرًا، مالك عندي حق. قال: ولكني سائل وابن سبيل وذو سهمه. فالتفت عمر إلى قهرمانه، فقال: أعطه فضل نفقتي. وإذا هو عويف القوافي الفزاري!

* * *

وما يدلنا على بصر عمر بالشعر وتتبعه للشعراء وتحصيله للكثير من أشعارهم وقصائدهم، أننا نراه يستشهد عند المناسبة بما يريد من شعر الشاعر. فهذا عون بن

عبدالله الهذلي يدخل عليه بعد توليه الخلافة، وينقل إليه أن الشعراء واقفون ببابه، يريدون الدخول عليه لإنشاده ونيل عطائه، فيتأبى عمر، وكأنه كان صارمًا حازمًا بشأن الشعر والشعراء في هذا اليوم، فيحاول عون أخذ موافقته، فيقول له عمر مسائلًا:

«خبرني من بالباب منهم يا عون؟» فيقول عون: «فيهم يا أمير المؤمنين ابن عمك عمر بن أبي ربيعة». فيثور عمر ويقول:

«ذلك الفاسق! لا قرب الله قرابته، ولا حيا وجهه! أليس هو القائل:

ألا ليـت أني يـوم حانـت منيتـي ... شممت الذي ما بين عينيك والفـم
وليت طهـوري كـان ريقـك كلـه ... وليت حنوطي من مشاشك[1] والـدم
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي ... هنالـك، أو في جنـة أو جهـنم!

فليته تمنى لقاءها في الدنيا على حل، ويعمل عملًا صالحًا. والله لا يدخل علي، فمن بالباب سواه؟». فيقول عون: جميل بن معمر العذري.

فيقول عمر: «أليس هو القائل:

ألا ليتنـا نحيـا جميعًـا، وإن نَمُـتْ ... يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها
فـما أنـا في طـول الحيـاة براغـب ... إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظـل نهـاري لا أراهـا، ويلتقـي ... مع الليل روحي في المنام وروحها

اعزب به، فوالله لا يدخل عليّ، فمن غير من ذكرت؟».

فقال عون: فيهم كثير عزة.

(١) المشاش: العظام اللينة، مفردها مشاشة.

فيقول عمر: «أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عرفتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعًا وسجودا!

اعزب به، فمن بالباب غير من ذكرت؟».

فيقول له عون: فيهم الأحوص الأنصاري.

فيقول عمر: «أليس هو القائل -وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جارية هربت منه-:

كأن لبنى صبير غادية أو دمية زينت بها البيع
الله بيني وبين سيدها يفر عني بها وأتبع!

والله لا يدخل علي، فمن غيره؟».

فيقول عون: فيهم الفرزدق. فيجيب عمر:

«لعنة الله عليه، أليس هو القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا: أحي يرجى أم قتيل نحاذره؟
فقلت: ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا وليت في أعقاب ليل أبادره!

والله لا يطأ بساطي، فمن غيره؟».

قال له عون: الأخطل التغلبي. فقال عمر:

«عليه اللعنة، أليس هو القائل:

فلست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بقائم كالسير أدعو ... قبيل الصبح: حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولًا ... وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يطأ لي بساطًا أبدًا، وهو كافر.. فمن غيره؟».

قال عون: ومعهم جرير بن عطية الخطفي. ثم أثنى عليه عون خيرًا. فقال عمر: «جرير الذي يقول:

طرقتك مصائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة، فارجعي بسلام

إن كان لا بد فهذا».

وأمر بجرير فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمدًا ... جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه ... حتى ارعووا، وأقام ميل المائل
قد نال عدلك من أقام بأرضنا ... فإليك حاجة كل وفد راحل
إني لأرجو منك خيرًا عاجلًا ... والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في القرآن فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل

فقال له عمر: «اتق الله يا جرير، ولا تقل إلا حقًا».

فأنشده جرير قوله:

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني ما بلغت من خبري؟
كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش، لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف، كأن به ... خبلًا من الجن، أو مسًّا من البشر

خليفة الله، ماذا تأمرون بنا ... لسنا إليكم، ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في هم يؤرقني ... قد طال في الحي إصعادي ومنحدري
لا نفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا بادٍ على حضري
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
زان الخلافة إذ كانت له قدرًا ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر؟
الخير -ما دمت حيًا- لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر!

فيقول له عمر:

«تذكر يا جرير أن الله سائلك عن كل ما قلت، وإني والله يا ابن الخطفي لا أرى لك فيها عندنا شيئًا، فليس للشعراء حق عندي في بيت المال... وإلا فخبرني يا جرير: أمن أبناء المهاجرين أنت، فنعرف لك حقهم؟ أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب الصدقات في قومك فيصلك بها يصل به قومك؟

فيجيبه جرير: «يا أمير المؤمنين، أنا ابن السبيل، ومنقطع بي».

فيقول عمر: «إذن لك ما لأبناء السبيل: زادك ونفقتك، حتى تبلغ محلك، وراحلة تحملك، إن كانت التي معك لا تستطيع، أو انتظر يا جرير حتى يخرج عطائي، فانظر ما يكفي عيالي سنة منه، فأدخره لهم، ثم إن بقي بعد ذلك فضل دفعناه إليك».

فيقول له جرير: «بل توفر ذلك وأنت محمود، وأخرج راضيًا!».

ويخرج جرير. وبعد قليل يستدعيه عمر، ويطلب من مولاه مزاحم أن يعطيه مائة درهم كانت معه، ففرح بها جرير.. وعندما خرج من لدنه سأله الشعراء وهم على

الباب: ما وراءك يا جرير؟ فأجاب: ورائي ما يسوؤكم، خرجت من عند رجل يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وأنا مع ذلك عنه راض، ثم أنشدهم:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطني من الجن راقيا

* * *

ولكن، هل معنى هذا أن عمر بن عبد العزيز قد تنكر للشعر كله وللشعراء جميعهم؟... لا، لا... إن الخلافة بتبعاتها وواجباتها من غير شك قد شغلته عن العناية السابقة التي كان يبديها بشأن الشعر نظمًا وسماعًا وتحلينًا وغناء، وقد كرهت إليه تلك الألوان العابثة الفاحشة من الشعر، فأصبح لا يحب شعر الغزل والتشبيب بالنساء، ولا شعر الخمر واللهو، ولا شعر الباطل والإثم.

وإنما يحب أن يقال الشعر في الدين والأخلاق والحكمة وتهذيب النفوس، ولذلك يقول ويكرر مثل الأبيات التالية التي يلوم بها نفسه ويعاتبها:

أيقظان أنت اليوم، أم أنت نائم؟ ... وكيف يطيق النوم حيران هائم؟

فلو كنت يقظان الغداة لحرقت ... محاجر عينيك الدموع السواجم

بل أصبحت في النوم الطويل وقد دنت ... إليك أمور مفظعات عظائم

نهارك، يا مغرور، سهو وغفلة ... وليلك نوم، والردى لك لازم

يغرك ما يفنى، وتشغل بالمنى ... كما غر باللذات في النوم حالم

وتشغل فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

فلا أنت في النوام يومًا بسالم ... وأنت في الأيقاظ يقظان حازم

ويقول أيضًا:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له — مع الله في دار القرار نصيب
فإن تعجب الدنيا أناسًا فإنها — قليل متاع، والزوال قريب

ويأتيه رجل بعد ما ولي الخلافة فيقول له: تفرغ لنا، فيجيبه عمر:

لقد جاء شغل شاغل — وعدلت عن طرق السلامة
ذهب الفراغ فلا فرا — غ لنا إلى يوم القيامة

ويموت ابنه عبد الملك بن عمر، فينظر إليه ويخرج وهو يتمثل بالبيت الآتي:

لا يغرنك عشاء ساكن — قد يوافي بالمنيات السحر

وكان يتمثل بهذا البيت:

أنا عائذ بالله من شر نعمة — تقر بها عيناي فيها رداهما

وكان أيضًا يتمثل بهذه الأبيات:

يرى مستكينًا وهو لهو ماقت — به عن حديث القوم ما هو شاغله
وأزعجه خوف عن اللهو كله — وما عالم شيئًا كمن هو جاهله
عبوس عن الجهال حين يراهم — فليس له منهم خدين يهازله
تذكر ما يبقى من العيش آجلًا — فأشغله عن عاجل العيش آجله

وبهذه الأبيات أيضًا:

الحلم والعلم خطتا كرم — للمرء زين إذا هما اجتمعا
صنوان لا يستتم حسنهما — إلا بجمع لذا وذاك معا
كم من وضيع سما به الحلم والـ — ـعلم فحاز الثناء وارتفعا
ومن رفيع البنا أضاعهما — أخمله ما أضاع فاتضعا

وبهذه الأبيات أيضًا:

الـق بالبـشر مـن لقيـت مـن النـا س جميعًـا ولاقهـم بالطلاقـه
تجـو مـنهم بـه جنـاء ثـمار طيبًـا طعمـه لذيـذ المذاقـه
ودع التيـه والعبـوس عـلى النـا س، فـإن العبـوس رأس الحماقـه
كلـما شـئت أن تعـادي عـا ديت صديقًا، وقد تعز الـصداقه!

وكان يتمثل كثيرًا بهذين البيتين:

فـما تـزود ممـا كـان يجمعـه إلا حنوطًا غداة البـين مـع خـرق
وغـير نفخـة أعـواد تـشب لـه وقـل ذلـك مـن زاد لمنطلـق!

وذكر الموت يومًا فقال:

ألم تـر أن المـوت أدرك مـن مـضى فلم ينج منه ذو جناح ولا ظفـر

ثم دعا بسبعة دنانير فتصدق بها، ثم قال: نستقرض على الله حتى يأتي العطاء!

* * *

وكان بعد أن قاوم شعر العبث وشعراء المجون يعجبه، أن يستشهد الرجل بين يديه بالشعر القوي الرصين، وكان أحيانًا يجيب على مثل هذا الشعر ببيت أو أبيات.

فهذا مثلًا هو ابن قتادة بن النعمان، يدخل على عمر، وكان أبوه قتادة قد سقطت عينه يوم أحد، فحملها في يده، وجاء بها النبي، ورجاه أن يردها له، لأنه يخشى أن يقول النساء عنه أنه أعور وهو مبتلى بحبهن، فردها النبي له، ودعا له بالجنة، فكانت أحسن عينيه إلى أن مات...

دخل ابن قتادة هذا على عمر، فسأله: من أنت يا فتى؟ فقص قصته وقال:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأحسن حالها ... فيا حسن ما عين، ويا طيب ما يد!

فأعجب عمر بحديث الفتى وشعره، وقال: بمثل هذا فليتوسل إلينا المتوسلون، ثم أردف قائلًا:

تلك المكارم، لا قعبان من لبن ... شيبًا بماء، فعادا بعد أبوالا

ولقد كتب إليه رجل من الشراة (الخوارج) وهو خليفة يقول له:

قل للمولى على الإسلا من مؤتنفًا ... وقد يرى أنه رث القوى واهي
إذ رابه معشر عدوه مأكلة ... بنخوة الملك والإسراف والباي
أنا شرينا بدين الله أنفسنا ... نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرف ... كفى بذاك لهم من زاجر ناهي
وإن قصدت سبيل الحق يا عمرا ... آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واعظهم ... في جور سيرتهم فالحكم لله!

فأجابه عمر على ذلك شعرًا، فقال:

يا أيها الرجل المهدي نصيحته ... إن المحاسن والتوفيق بالله
إن كان أمر من السلطان تنكره ... فما عرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب: كتاب الله نقرؤه ... مصدق الوحي فينا، آمر ناهي
فقد يزل الذي يبغي الهدى رهقًا ... عند الشريعة وهو العالم الداهي
الملك، يا عمرو، ملك الله خالقنا ... والحكم، يا عمرو، مردود إلى الله

فلما بلغت الأبيات الرجل، قدم على عمر وبايعه، ولم يخرج عليه!

* * *

وحدث أن وجه عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبد الأعلى بن أبي عمرو -أو عمرة- رسولًا إلى طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام، فقال عبد الأعلى لعمر:

ايذن لي في بعض أولادي يخرج معي -وكان له عشرة أولاد- فقال عمر: ومن يخرج معك من ولدك؟ أجاب: ولدي عبد الله.

فقال عمر: إني رأيت عبد الله يمشي مشية مقتُّها (كرهتها)، وبلغني أنه يقول الشعر.

فقال عبد الأعلى: يا أمير المؤمنين، أما مشيته فغريزة هي فيه، وأما الشعر فإنما هو نواحة ينوح على نفسه!!

فقال له عمر، وقد بدأ رأيه في عبد الله يتغير، مُرْ عبد الله يأتني العشية، وأخرج معك غيره.

وكأنما أراد عمر أن يستبقي عبد الله معه لينشده، ما دام شعره مؤدبًا واعظًا... وجاء عبد الله،وأنشد أمير المؤمنين قوله:

تجهزي بجهاز تبلغين به	يا نفس قبل الردى، لم تخلقي عبثا
وسابقي بغتة الآجال، وانكمشي	قبل اللزوم، فلا منجى ولا غوثا
ولا تكدي لمن يبقى وتفتقري	إن الردى وارث الباقي وما ورثا
واخشي حوادث صرف الدهر في	واستيقظي، لا تكوني كالذي بحثا:
عن مدية كان فيها قطع مدته	فوافت الحرث موروثًا كما حرثا
لا تأمني فجع دهر مترف ختل	قد استوى عنده من طاب أو خبثا
يا رب ذي أمل فيه على وجل	أضحى به آمنًا، أمسى وقد حدثا

من كان حيث تصيب الشمس جبهته ... -أو الغبار- يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا، راغمًا، جدثا
في قعر موحشة غبراء مقفرة ... يطيل تحت الثرى في قعرها اللبثا!

فبكى عمر من هذا الشعر!

وهذا الشاهد يدلنا دلالة ساطعة واضحة على أن عمر لم ينصرف انصرافًا كليًّا عن الشعر، وإنما انصرف عن الألوان العابثة فيها... فحينما ذكر له عبد الأعلى اسم ابنه عبد الله ظنه عمر من هؤلاء الشعراء الذين اعتادوا القول في الغزل والتشبيب واللهو والباطل، ولكنه عندما سمعه تأثر به وبكى له!...

وهكذا أصبح عمر لا يحب من الشعراء إلا الذين يذكرون بفضيلة، أو ينهون عن رذيلة، أو يبعثون عواطف الأذكار والاعتبار في النفوس، ولهذا كان من الشعراء المقربين إليه «سابق البربري».

كان يحب أن يسمع منه، وأن يأخذ عنه العظة في شعره، فتارة يقول له سابق:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وافيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون شريكه ... وأرصدت قبل الموت ما كان أرصدا

وتارة ينشده سابق هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمنًا ... أتته المنايا بغتة بعدما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة ... فرارًا، ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقنعًا ... ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيله ... وفارق ما قد كان في أمسه جمع
فلا يترك الموت الغني لماله ... ولا معدمًا في المال ذا حاجة يدع

وتارة يسمعه هذه القصيدة:

باسم الذي أنزلت من عنده السور ... والحمد لله، أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر، قد ينفع الحذر
اصبر على القدر المجلوب، وارض ... وإن أتكاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيش يسر به ... إلا سيتبع يومًا صفوه كدر
إن التقى خير زاد أنت حامله ... والبر أفضل شيء ناله بشر
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب الحق قد يهدى له الظفر
والذكر فيه حياة للقلوب، كما ... يحيي البلاد، إذا ما ماتت، المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلي سواد الظلمة القمر
والمرء يصعد ريعان الشباب به ... وكل مصعدة يومًا ستنحدر
وكل بيت خراب بعد جدته ... ومن وراء الشباب الموت والكدر
كم من جميع أشت الدهر شملهم ... وكل شمل جميع سوف ينتثر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفر منها أتى سفر
لا تبطروا، واهجروا الدنيا فإن لها ... غبًّا وخيمًا، وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غررًا ... وليس من أمة إلا لها غرر
حتى تكونوا على منهاج أولكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
ما لي أرى الناس، والدنيا مولية ... وكل حبل عليها سوف ينبتر
لا يشعرون بما في دينهم نقصوا ... جهلًا، وإن نقصت دنياهم شعروا

وهي قرابة الخمسين بيتًا.

وجاءه سابق يومًا، فقال له عمر: أنشدني يا سابق شيئًا من شعرك تذكرني به، قال: أو خيرًا من شعري؟ قال: هات. قال: قال أعشى همدان:

وبينما المرء أمسى ناعمًا جذلًا ... في أهله معجبًا بالعيش ذا أنق[1]
غرًّا أتيح له من حينه غرض ... ما تلبث حتى مات كالصعق
ثمت أضحى ضحى من غب ثالثة ... مقنعًا غير ذي روح ولا رمق
يبكي عليه، وأدنوه لمظلمة ... تعلى جوانبها بالترب والفلق
فما تزود مما كان يجمعه ... إلا حنوطًا وما واراه من خرق
وغير نفخة أعواد تشب له ... وقل ذلك من زاد لمنطلق

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته!...

ووقف مرة على واعظ فقال له: ويحك، عظني!

فقال له: عليك بقول الشاعر:

تجرد من الدنيا، فإنك إنما ... قدمت إلى الدنيا وأنت مجرد

فكان يعجبه ذلك ويكرره، وعمل به حق العمل...

* * *

وأحيانًا كان يسيطر على عمر نزعة الاستشهاد بالقرآن الكريم، فيود لو أن الناس كلهم اقتصروا على التمثل بآياته في مختلف أقوالهم ومناسباتهم، وتركوا من أجله كل كلام حتى الشعر... ولو كان شعرًا بليغًا واعظًا.

---

(١) أنق: فرح وسرور.

مر يومًا -ومعه مزاحم مولاه- على قصر من قصور «آل جفنة»، فتمثل مزاحم بقول الأسود بن يعقر:

جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يومًا يصير إلى بلى ونفاد

فقال له عمر: هلا قرأت قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾...

ويروى أنه مر فسمع صوت «ابن سريج» وهو يغني:

قرب جيراننا جمالهم ليلًا ... فأضحوا معًا قد ارتفعوا
ما كنت أدري بوشك بينهم ... حتى رأيت الحداة قد طلعوا

فقال عمر: «لله در هذا الصوت لو كان بالقرآن»!...

وأخيرًا... يروى أن عمر كان يردد في أخريات أيامه هذين البيتين:

أنا ميت وعَزَّ من لا يموت ... قد تيقنت أنني سأموت
ليس مُلْكٌ يزيله الموت مُلْكًا ... إنما الملك ملك من لا يموت!

رسائل عمر
دستور للرعية

لما ولي عمر بن عبد العزيز كتب:

«أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله ولزوم كتابه، والاقتداء بسنة نبيه ﷺ وهديه... فإن الله قد بين لكم ما تأتون وما تتقون، وأعذر إليكم في الوصية، وأخذ عليكم الحجة حين أنزل عليكم كتابه الحفيظ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]».

«قال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]».

«وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]».

«فأقيموا فرائضه، واتبعوا سننه، واعملوا بمحكمه، واصبروا أنفسكم عليه، وآمنوا بمتشابهه.. فإن الله علمكم منه ما علمكم، وأولئكم يومئذ أقل الناس شوكة، وأوهنهم قوة، وأشدهم فرقة، وأحقرهم عند من سواهم من الناس محقرة... ليس لهم من الله حظ في الهدى يرجعون به إليه، مع أن الدنيا ومواضع أموالها وعددها وجماعتها ونكايتها في غيرهم.

حتى إذا أراد الله إكرامهم بكتابه ونبيه، بعث إليهم محمدًا ﷺ، عبد الله ورسوله، بالحق بشيرًا: يبشر بالخير الذي لا خير مثله، وينذر بالشر الذي لا شر مثله. وأخره الله لذلك في القرون، وسماه على لسان من شاء من أنبيائه الذين سبقوا، وأخذ عليهم ميثاق جماعتهم....

قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. فأخر الله ذلك لمحمد ﷺ حين بعثه رحمة للعالمين ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وأحكم الله في كتابه ما رضي من الأمور...

فما جعل من ذلك حلالًا فهو حلال إلى يوم القيامة، وما جعل من ذلك حرامًا فهو حرام إلى يوم القيامة. وعلمه سنته ففهمها وعمل بها بين ظهري أمته، فصلى الصلوات لوقتها كما أمره الله، وعلم مواقيتها التي وقتها الله له، فإنه قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

ودلوك الشمس ميلها بعد نصف النهار. فلما نعت الله في هذه الآية وقت صلاة الظهر والعصر والمغرب، ثم قال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور: ٥٨]. وصلاة العشاء صلاة العتمة...

فهذه الصلوات قد جمعها القرآن، وبينها محمد ﷺ.

ثم فرض رسول الله ﷺ الزكاة على أمر الله في العين والحرث والماشية، وبين مواضع ذلك فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] حتى استقامت سنتها في الأخذ حين تؤخذ، وفي القسمة حين تقسم، فعمل بها المسلمون في جزيرة العرب، حتى علموها أو كل ذي عقل منهم...

والنصر والعافية والجماعة، وسلب لكم مما كان في يد غيركم مما لم تكونوا لتسلبوه بقوتكم لو وكلكم إلى أنفسكم...

وكان قد شرط ذلك للمؤمنين، وأعطاهم إياه إذ شرط عليهم شرطه، فقد وفاكم الله ما شرط لكم وهو آخذكم بما اشترط عليكم... قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فقد أنجز الله لكم وعده، فأنجزوا دين الله في رقابكم أن يكفر كافر بنعمة الله، أو ينسى بلاءه، فيجده على الله هينًا، ويطول خلوده فيما لا طاقة له به...

ثم إني أحببت أن يعلم من كان جاهلًا من أمري والذي أنا عليه معًا لم أكن أريد به المنطق في يومي هذا، حتى رأيت أن المنطق ببعضه هو أقرب إلى الصلاح في عاجل الأمر وآجله للذي قد أفضى إلي من هذا الأمر... وأنا أعلم من كتاب الله، وسنة نبيه عليه السلام، وما سلف عليه أمر الأئمة بين يدي، علمًا من الله علمنيه من لم يكن له شغل عنه، وقد كان شغلي، والذي كتب الله أن أبتلي به عاملًا منه بما عملت، أو قاصرًا منه على ما قصرت... فما كان من خير علمنيه فبتعليم الله ودلالته، وإلى الله أرغب في بركته، وما كان عندي من غير ذلك من داء الذنوب... فأسأل الله العظيم تجاوزه عني بمغفرته...

فلعمري ما ازددت علمًا بالولاية إلا ازددت لها مخافة، ومنها وجلًا، ولها إعظامًا... حتى قدر الله لي منها وقدر على ما قدر، فأنا أشد ما كنت لها استثقالًا. ثم أحسن الله حميد أعواني وعاقبتي وعاقبة من ولاني أمره، فأصلح أمرهم، وجمع كلمتهم، وبسط

عليّ من نعمه وعليهم ما لم يكن دعائي ولا دعاؤهم ليبلغه: عند الله به ثوابي، وعنده به جزائي من صلاح عامتهم، وأداء حقوقهم إليهم، والعفو عن ذي الذنب منهم.

وقد أعطاني من ذلك، وله الحمد، في عاجل من الدنيا وجماعة من الشمل وصلاح ذات البين، وسعة في الرزق، ونصر على الأعداء، وكفاية حسنة... حتى أغنى لأهل كل ذي جانب من المسلمين جانبهم، ووسع عليهم الرزق، ولا يرى أهل كل ناحية إلا أنهم أفضل قسمًا فيما بسط الله لهم من رزقه ونعمه من أهل الناحية الأخرى...

فإن تعرفوا نعمة الله عليكم، وتشكرون فضله، فأحرص بي على ذلك، وأحبب به إلي... قد يعلم الله كيف دعائي بذلك، وكيف حرصي عليه علانية. وأن يجهل ذلك جاهل أو يقصر عنه رأيه، فإن الذي حرصت على أن أحملكم عليه من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، هو حجتي في الدنيا، وبغيتي فيما بعد الموت. ولا تلبسوا ذلك بغيره...

وإياكم أن يتشبه في أنفسكم ما حملتكم عليه من كتاب الله وسنة نبيه، وأما ما سوى ذلك من الأمور التي من رأى الناس، فإني لعمري لولا أن أعمل ذلك فيكم ما وليت أمركم، وأن تعملوا به ما نفست الذي أنا فيه من الدنيا على أبغض الناس إلى رجل واحد إذا حجزه الله عن ديني أن يفتنني، ولا كنت أرى المنزل الذي آتي به لمن عسى أن يعملَ بغير كتاب الله وسنة نبيه، غبطة ولا كرامة، ولا رفعة، ولا الدنيا وما فيها. فمن كن سائلًا عن الذي في نفسي، وعن بغيتي في أمر أمة محمد ﷺ، فإن الذي في نفسي وبغيتي منه، والحمد لله رب العالمين، أن تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه، وأن تجتنبوا ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيد. ومن عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رفعة له في الدنيا والأخرى...

وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك، أن لعمري أن تموت نفسي أول نفس أحب إلي من أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم التي عاش عليها من عاش، وتوفاه الله عليها حين توفاه... إلا أن يأتي على من ذلك أمر وأنا حريص على اتباعه. وإن أهون الناس علي تلفًا وحزنًا لمن عسى أن يريد خلاف شيء من تلك السنة...

وذلك الأمر الذي رفعنا ونحن بمنزلة الوضيعة، وأكرمنا ونحن بمنزلة الهوان، وأعزنا ونحن بمنزلة الذل... معاذ الله من أن نستبدل بذلك غيره، ومعاذ الله من أن تنفي أحدًا سواه. فإذا تكلمتم في مجالسكم، أو ناجي الرجل أخاه، فليذكر هذا الأمر الذي حضضتكم عليه من إحياء كتاب الله وسنة نبيه، وترك ما خالف ذلك... فإنه ليس بعد الحق إلا الباطل، ولا بعد البصر إلا العمى. وليحذر قوم الضلالة بعد الهدى، والعمى بعد البصر، فإنه قال لقوم صالح: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]...

اتبعوا ما تؤمرون به، واجتنبوا ما تنهون عنه، ولا يعرض أحدكم بنفسه، فإنه ليس لي في دنياكم -والحمد لله- رغبة: لا في ما في يدي منها، ولا ما في أيديكم. وليس عندي مع ذلك صبر على انتقاص شيء من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، ولا استبقاء لمن خالف، والحمد لله، ولا نعمة عين...

ولعمري أن من يعمل ذلك منكم لحقيق أن يظن بأمري، لا حاجة له في دنياكم، ولا صبر له على زيغكم عن دينكم، ولحاجتكم فيما لا خير لكم فيه -أنه جرأ على هراقة دم من انتقص كتاب الله، أو زاغ عن دينه، وسنة نبيه محمد رسول الله ﷺ...

هذا نحو من الذي قبلي قد بينته لكم، ولعمري لتخلصن جماعتكم أنها الجند وخياركم مما يكره من الأمور، ولتتعبن أحسن ما توعظون به إن شاء الله...

أسأل الله برحمته وسعة فضله، أن يزيد المهتدي هدى، وأن يراجع بالمسيء التوبة في عافية منه، وأن يحكم على من أراد خلاف كتابه وسنة نبيه ﷺ بحكم يغلب به في خاصته ويعجله له، فإنه على ذلك قادر، وإنا إليه فيه راغب، ويحسن عاقبة العامة، ولا يعذبنا بذنب المسيء، والسلام عليكم ورحمة الله».

إلى أمراء الأجناد

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أمراء الأجناد. أما بعد:

فإن عرى الدين، وقوام الإسلام: الإيمان بالله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة، وحافظ على أوقات الصلوات، فإن وقتها الهجرة بالظهر، وصلاة العصر والشمس بيضاء نقية لم يدخلها صفرة، وصلاة المغرب لفطر الصائم. ولا تصلين العشاء حتى يذهب شفق الأفق، وهو البياض، فإذا ذهب فصلها فيما بين ثلث الليل، وما عجلتها بعد ذهاب بياض الأفق فهو أحسن وأصوب... فإن من تمامها وإصابة وقتها انتظار ما وضعت لك في كتابي هذا منها. ثم صل صلاة الفجر بغلس، وحافظ على ذلك، فإن المحافظة عليها حق، واصبر نفسك على ذلك...

واجتنب الأشغال عند حضور الصلوات، واكتب بذلك إلى عمالك بالمدائن والقرى وحيثما كانوا، فـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣] و ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فإنه من يضيع الصلاة فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعًا...

ثم أكثر تعاهد شرائع الإسلام، ومر أهل العلم والفقه من جندك، فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مساجدهم. والسلام عليك».

إلى أمراء الأجناد أيضًا

وكتب عمر بن عبد العزيز

«من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين، إلى أمراء الأجناد. أما بعد:

فإنه من بلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة، وبلايا عظام: إن أغبته يومًا، فهي حرية أن تحضره في اليوم الآخر. وإنه ليس أحد بأشغل عن نفسه، ولا أكثر تعرضًا لزيغ من ولي السلطان... إلا ما عافى الله ورحم...

فاتق الله ما استطعت، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حملت، فقاتل هواك كما تقاتل عدوك، واصبر نفسك عندما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذي وعد المتقون فيما بعد الموت، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله...

فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلى به، فرأيت منه سوء رعة، وسوء سيرة في الحق عليه والحظ له، فسدده ما استطعت وبصره، وارفق به وعلمه... فإن اهتدى وأبصر وعلم، كانت حجة اتخذت بها عليه. فإن رأيت أنه أتى ذنبًا استحق فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك عليه، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبه بالغًا ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك قدر جلدة واحدة تجلده إياها...

وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قتلًا فما دونه، فارجعه إلى السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك... فإنه لعمري ربما عاقب الإمام لمحضر جلسائه، ولتأديب أهل بلده، ولتغامزهم به، وما من إمام له جلساء إلا سيكون ذلك فيهم، وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيختلفون فيه على أهوائهم، إلا من رحم الله، فإن من رحم الله لا يختلفون في قضاء، فإنه قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]...

وإن استجهلت فتثبت، وإذا نظر إليك من حولك ما أنت فاعل بسفيه من رعيتك، إن سفه وأخطأ حظه، فاعمد في ذلك للذي ترى أنه أبر وأتقى وخير لك غدًا فيما بعد الموت، ولا يطريك نظرهم إليك ولا حديثهم عنك، فإنه لا يبقى في أنفسهم حديث أحبوه ولا كرهوه إلا قليلًا إلا أبدوه. فاغتنم كل يوم أخرجك الله فيه سالمًا، وكل ليلة مضت عليك وأنت فيها كذلك.

وأكثر دعاء الله بالعافية لنفسك، ولمن ولاك الله أمره، فإن لك في صلاحهم ما ليس لأحد منهم، وإن عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك ما ليس على أحد منهم. ولا تبتغ منهم جزاء خير أحسنته إليهم، ولا تسديد سددتهم، ولا تطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاء ولا ثوابًا ولا مدحة ولا حظوة، وليكن ذلك لمن لا يعطي الخير ولا يصرف السوء غيره. ثم تعاهد صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث، فلا يعملون في شيء مما نحت يديك بغشم ولا بظلم، وأكثر المسألة عنهم، فمن كان منهم محسنًا نفعه ذلك، ومن كان منهم مسيئًا استبدلت به من هو خير منه.

نسأل الله ربنا بحرمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن ييسر لنا أمورنا، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى، والعمل فيما يحب ويرضى، وأن يعصمنا من المكاره كلها، وأن يجعلنا من الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، ومن المتقين الذين لهم العافية. والسلام عليك ورحمة الله».

رسالة إلى الخوارج

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى هؤلاء العصابة الذين خرجوا. أما بعد:

فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. فإن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]..

وإني أذكركم الله في دمائكم أن تفعلوا فعل كبرائكم الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط.

فبأي ذنب تخرجون من دينكم فتستحلون الدم الحرام، وتصيبون المال الحرام؟! فلو كانت ذنوب أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما مخرجة رعيتهما من دينهم، فقد كان لأبي بكر وعمر ذنوب، وقد كان آباؤكم في جماعتهم فلم يخرجوا فيها بشوكتهم على الجنود.

وإنما عدتكم بضعة وأربعون رجلًا، أقسم بالله أن لو كنتم أبكاري من أولادي، ورغبتم عما فرشنا للعامة فيما ولينا، لدفقت دماؤكم أبتغي ذلك وجه الله والدار الآخرة، فإنه يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

فهذا النهج إن أحببتم، وإن تستغشوني فقديمًا ما استغش الناصحون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

عهده إلى قائد

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«هذا ما عهد به عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب، وحربه من استعرض من أهل الصلح.

أمره في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله... فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة. وأمره ألا يكون من شيء من عدوه أشد احتراسًا منه لنفسه ومن معه من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم.

وإنما نعادي عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم. فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد، فإن لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا...

ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهدًا منكم لذنوبكم...

واعلموا أن معكم من الله حفظة عليكم يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحبتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله، وأنتم زعمتم في سبيل الله. ولا تقولوا أن عدونا شر منا، فلن يسلطوا علينا وأن أذنبنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم بذنوبهم... فاسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم...».

وأمره أن يرفق بمن معه في سفرهم، ولا يجشمهم مسيرًا يتعبهم فيه، ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم... فإنما يسيرون إلى عدو مقيم جام الأهبة والكراع، فإن لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهم في مسيرهم يكن لعدوهم فضل في القوة عليهم بإقامتهم في جمام الأنفس والكراع والله المستعان.

وأمره أن يقيم ومن معه في كل جمعة يومًا وليلة يكون لهم راحة يجمون فيها أنفسهم وكراعهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم...

وأمره أن ينحى منزله عن قرى الصلح، فلا يدخلها أحد من أصحابه لسوقهم وجماعتهم إلا من يثق بدينه وأمانته على نفسه، ولا يصيبوا منها علمًا، ولا يتزودوا منها إثمًا، ولا يؤذوا أحدًا من أهلها بشيء إلا بحق، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم قفوا لهم...

«ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أرض أهل الصلح. فلعمري لقد أعطيتم مما يجعل منهم ما يغنيكم عنهم، فلم أترك لكم خللًا في العدة، ولا رقة في القوة. فتظاهرت واكتفت لكم العدد، وانتخبت لكم الجند، وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح، وبسطت لك أفضل ما بسطت لغاز. فلم أجعل لك علة في التقوية.

وبالله الثقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله...»

وأمره أن تكون عيونه من العرب، وممن يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض...

«فإن الكذوب لا ينفع خبره، وإن صدق في بعضه. وإن الغاش عين عليك وليس بعين لك.

والسلام عليك».

رسالته إلى العمال

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال. أما بعد:

فإن من يلي من أمر السلطان بشيء فقد ابتلي في الدنيا ببلية عظيمة، مع ما ابتلي به في خاصة نفسه. فنسأل الله عافيته وحسن معونته. وأي بلاء أشد من بلاء يبسط للمرء فيه لسانه وفعله، فإن مال فيه إلى كل هوى أو سخطة كان فيه وكف، إلا أن يعفو الله ويغفر...

فإنما وجدت والي السلطان عبدًا مملوكًا ولي ضيعة، عليه الاجتهاد في إصلاحها: أجره إحسان إن أحسنه، وإحسان عمل به فيهم على ملكه الذي خلقه لما شاء أن يخلقه له.

فانزل بتلك المنزلة في أمرك، واصبر على ما كرهت، واصبر على ما أحببت، وقف نفسك في كل سر وعلانية عند الذي ترجو به النجاة عند ذلك حتى تفارق الذي أنت فيه، فإن ذلك لعله أن يكون إلى قريب، وأنت محسن ومأجور.

وتذكر ما سلف منك من عملك، فيما سلف مما لا تحب، فأصلحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك، ولا يكبر عليك في ذلك قول الناس. إذا علم الله أنك تجعل ذلك له، فإنه سيكفيك المئونة في عاجل الأمر مع ما يدخر لك من الخير فيها عنده.

وكن لمن ولاك الله أمره ناصحًا فيما بعثتك إليه من أمورهم: في دينهم وأعراضهم، واستر كل ما استطعت من عوراتهم إلا شيئًا أبداه الله لا يصلح لك ستره، واملك نفسك عنهم إذا هويت وإذا غاضبت، حتى يكون ذلك فيما استطعت مستويًا حسنًا. وإذا سبقك أمر، أو سلف منك هوى، أو غضب... فراجع أمرك، فقد رأيت حقًّا أن أكتب إليك بالذي كتبت به مما استطعت. واستعين بالله، ونسأله أن يصلح لنا عملنا، ويكفينا مئونة ما نحن فيه، ومئونة ما نرجع إليه فيما بعد الموت بأحسن كفاية... والسلام».

رسالة أخرى إلى الخوارج

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة. أما بعد:

أوصيكم بتقوى الله فإنه من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا.

أما بعد:

فقد بلغني كتابكم والذي كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى وسليمان بن داود، وقدوم صاحبيكم والذي أتى إليهما...

وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

قوال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وإني أدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المكر إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا في غير قوة ولا تشنيع.

وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه ونحن ندعوكم إليهما.

هذه نصيحة منا نصحنا لكم فيها، فإن تقبلوها فذلك بغيتنا، وإن تردوها على من جاء بها فقديمًا ما استغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئًا من حق الله.

وقد قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]. وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]».

رسالة في النهي عن بدعة

كتب عمر بن عبد العزيز:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد:

«أما بعد.

فإن الناس ما اتبعوا كتاب الله نفعهم في دينهم ومعايشهم في الدنيا ومرجعهم إلى الله فيما بعد الموت. وإن الله أمر في كتابه بالصلاة على النبي ﷺ فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

صلوات الله على محمد رسول الله، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

ثم قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

فقد جمع الله تبارك وتعالى في كتابه أن أمر بالصلاة على النبي ﷺ وعلى المؤمنين والمؤمنات.

وإن رجالًا من القصاص قد أحدثوا صلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل ما يصلون على النبي وعلى المؤمنين... فإذا أتاك كتابي هذا، فمر قصاصكم فليصلوا على النبي ﷺ. وليكن فيه إطناب دعائهم وصلواتهم، ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات، وليستنصروا الله، ولتكن مسألتهم عامة للمسلمين، وليدعوا ما سوى ذلك...

فنسأل الله التوفيق في الأمور كلها، والرشاد والصواب والهدى فيما يحب ويرضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... والسلام عليك».

كتاب في رد المظالم

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال أما بعد:

فإني كنت كتب إليكم برد المظالم، ثم كتبت إليكم أن تحبسوها، ثم كتبت إليكم بردها... فاطلعت من بعض أهلها على خيانات وشهود زور، حتى قبضت أموالًا قد كنت رددتها، ثم رأيت أن أردها على سوء ظن بأهلها، أحب إلي من أن أحبسها حتى ينجلي الأمر من غد على ما ينجلي عنه...

فإذا جاءك كتابي هذا فارددها على أهلها. والسلام عليك».

حث على اتباع أوامر الله

وكتب عمر بن عبد العزيز:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال.

أما بعد:

فإن هذا الأمر الذي ولاني الله، لو كنت إنما أصبحت ورغبتي فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال... لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قبل ما ولاني من أفضل ما بلغ بعباده.

ولكن أصبحت له خائفًا، أعلم أن فيه أمرًا عظيمًا، وحسابًا شديدًا، ومسألة لطيفة عند مجاهدة الخصوم بين يدي الله، إلا ما عافى الله ورحم ودفع...

وإني آمرك فيما وليتك من عملي، وأقضيت إليك من أمري، بتقوى الله، وأداء

وإن الله نعت المؤمنين عند ذكره الفيء فجعله للفقراء والمهاجرين: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]. والذين جاءوا من بعدهم، ثم قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]...

وقد كان المهاجرون يجاهدون على غير عطاء ولا رزق يجري عليهم، فيوسع الله عليهم، ويعظم الفتح لهم ولمن تأسى بهم وعمل بصالح سنتهم ممن يحبون من إخوانهم. ليوجبن الله له الأجر في الآخرة، وليعظمن له الفتح في الدنيا...

وأما الصدقات فإن الله تبارك وتعالى فرضها، وسمى أهلها حين طعن فيها أناس، وبلغوا فيها تهمة نبيهم فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨]...

فقال الله تبارك وتعالى عند ذلك: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٦٠]...

فبين رسول الله ﷺ صدقة الأموال: الحرث والمواشي والذهب والورق، فتؤخذ الصدقات كما بين رسول الله ﷺ وفرض: لا يظلمون ولا يعتدى عليهم، ولا يحابي بها قريب، ولا يمنعها أهلها، ثم تجعل إلى مرضيين من أهل الإسلام، فيجعلونها حيث أمرهم الله، يحملهم الإمام من ذلك على ما حمل، وينزه نفسه من ذلك من أمر قد أكثر فيها على الأئمة.

وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه فطعن في ذلك طاعن من الناس أكثرهم فيه، ووضع مواضع شتى... فنظرنا، فإذا هو على سهام الفيء في كتاب

الله، لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ قد قضى في الفيء قضاءً قد رضي به المسلمون، فرض للناس أعطية وأرزاقًا جارية لهم، ورأى أن لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك...

ورأى أن فيه لليتيم والمسكين وابن السبيل، فرأى أن يلحق الخمس بالفيء، وأن يوضع مواضعه التي سمى الله وفرض، ولم يفعل ذلك إلا ليتنزه منه، وخيفة التوهم فيه.

فاقتدوا بإمام عادل، فإن الآيتين متفقتان: آية الفيء، وآية الخمس. فإن الله قال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]...

وكذلك فرض الله الخمس، فنرى أن يجمعا جميعًا فيجعلا فيئًا للمسلمين، ولا يستأثر عليهم، ولا يكون ﴿دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وقد كانت تحمي فتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى في ترك حماها، والتنزه عنها، خيرًا إذا كان ذلك من أمرها...

وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء...

ثم إن الطلاء لا خير فيه للمسلمين، إنما هو الخمر يكنى باسم الطلاء.

قد جعل الله عنه مندوحة وأشربة كثيرة طيبة، وقد علمت أن ناسًا يقولون: قد أحله عمر رضي الله عنه، وشربه ناس ممن مضى من خيارنا، وإن عمر إنما أتى منه بشراب طبخ حتى خثر، فقال حين أتي به: أطلاء هذا؟... يعني به طلاء الإبل. فلما ذاقه قال: لا بأس بهذا. فأدخل الناس فيه بعد عمر.

أما من شربه من صالحيكم فإنهم شربوه قبل أن يتخذ مسكرًا...

وقد قال رسول الله ﷺ: «**حرام كل مسكر على كل مؤمن**»، فلا أرى أن يتخذ الفاجر البار دلسة، ونرى أن ينتزه المسلمون عنه عامة، وأن يحرموه، فإنه من أجمع الأبواب للخطايا، وأخوفها عندي أن تصيب المسلمين منه جائحة تعمهم...

وأما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]...

فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا تحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعًا، سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله. فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم؟!

ثم إن المكيال والميزان نرى فيهما أمورًا علم من يأتيها أنها ظلم... إنه ليس في المكيال زيغ إلا من تطفيف، ولا في الميزان فضل إلا من بخس. فنرى أن تمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحدًا في جميع الأرض كلها...

وأما العشور فنرى أن توضع إلا عن أهل الحرث، فإن أهل الحرث يؤخذون بذلك. وإنما أهل الجزية ثلاثة نفر: صاحب أرض يعطي جزيته منها، وصانع يخرج جزيته من كسبه، وتاجر يتصرف بماله يعطي جزيته من ذلك، وإنما سنتهم واحدة...

فأما المسلمون قائمًا عليهم صدقات أموالهم، إذا أدوها في بيت المال كتبت لهم بها البراءة. فليس عليهم في عامهم ذلك في أموالهم تباعة...

وأما المكس فإنه البخس الذي نهى الله عنه فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٥]. غير أنهم كنوه باسم آخر...

ونرى ألا يتجر إمام، ولا يحل لعامل جارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتجر ستائر، ويصب أمورًا فيها عنت وإن حرص على ألا يفعل...

وقد أردت بالذي نهيت عنه من شرب الخمر، وما ضارع إليه من الطلاء، وما جعل في الدباء والجرار والظروف المزفتة... اتخاذ الحجة عليكم اليوم، وفيما بعد اليوم. فإنه من يطع يكن خيرًا له، ومن يخالف ما نهى عنه نعاقبه في العلانية، ويكفينا الله ما أسر. إنه على كل شيء رقيب، والله على كل شيء شهيد.

أسأل الله أن يغنينا وإياكم بما أحل عما حرم، وأن يزيد من كان فينا مهتديًا هدى ورشدًا، وأن يراجع بالمسيء التوبة في عافية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

دعوة إلى صراط الحق

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن:

«أما بعد:

فإن الله جعل الإسلام الذي رضي به لنفسه، ومن كرم عليه من خلقه، لا يقبل الله دينًا غيره، كرمه بما أنزل من كتابه الذي فرق به بين الإسلام وبين ما سواه.

فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فبعث الله محمدًا ﷺ حين بعثه، وأنزل عليه الكتاب حين أنزله، وأنتم معشر العرب فيما قد علمتم من الضلالة والجهالة والجهد وضنك العيش وتفرق الدار، والفتن بينكم عامة، والناس لكم حاقرون مستأثرون عليكم بالدين.

وليس من ضلالتهم من شيء إلا وأنتم على مثله: من عاش منكم عاش فيما ذكرت من الجهل والضلالة، ومن مات منكم مات إلى النار، حتى أخذ الله بنواصيكم عما كنتم فيه من عبادة الأوثان والتقاطع والتدابر وسوء ذات البين... فأنكر منكركم، وكذب مكذبكم، ونبي الله عليه السلام يدعو إلى كتاب الله وإلى الإسلام، ثم ألم معه قليل مستضعفون في الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم وأيدهم بنصره، ورزقهم الله من أذن له بالإسلام، والدنيا مقبوضة عنه.. والله منجز لرسوله موعوده الذي ليس له خلف، فيراه من يراه بعيدًا إلا قليلًا من المؤمنين فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال في بعض ما يعده والمسلمين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فأنجز الله لنبيه عليه السلام وأهل الإسلام موعودهم الذي وعدهم. فلم يعطكم الله يا أهل الإسلام ما أعطاكم من ذلك إلا بهذا الذي تفلجون به على خصمكم، وبه تقومون شهداء يوم القيامة. ليس لكم نجاة غيره، ولا حجة ولا حرز، ولا منعة في الدنيا والآخرة. فإذا أعطاكم الله منه أحسن يوم وعدتموه، فارجوا ثواب الله فيما بعد الموت، فإن الله قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]...

وإني أحذركم هذا القرآن وتباعته، فإن تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيتها الأمة وقائع من هراقة دماء، وخراب ديار، وتفرق جماعات... فانظروا ما زجركم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه، فإن أحق ما خيف وعيد الله بقول أو بعمل أو غير ذلك: فإن كان يقول في أمر الله فنعما له، وإن كان يقول في غير ذلك فإنما يقضي إلى سبيل هلكة...

ثم إن هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثًا: ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسيانًا عظيمًا، وغيروا فيه نعمه تغييرًا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه. وذكر لي أن رجالًا من أولئك، يتحاربون إلى مضر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم، وسبحان الله وبحمد، ما أبعدهم من شكر نعمة الله، وأقربهم من كل ملهكة ومذلة وصغر. قاتلهم الله أية منزلة نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا... ولكن قد عرفت أن الشقي بنيّته يشقى، وأن النار لم تُخلق باطلًا... أو لم يسمعوا إلى قول الله في كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١٥] فلم يمت يحيى إلا بالقتل، وهو موت كما مات من قتل منهم شهيدًا، أو قتل عمدًا، أو قتل خطأً، كمن مات بمرض أو فجأة... كل ذلك موت بأجل توفاه، ورزق استكمله، وأثر بلغه، ومضجع برز إليه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ولا تموت نفس ولها في الدنيا عمر ساعة إلا بلغته، ولا موضع قدم إلا وطئته، ولا مثقال حبة من رزق إلا استكملته، ولا مضجع بحيث كان إلا برزت إليه، يصدق ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٢]. فأخبر الله سبحانه بعذابهم بالقتل في الدنيا، والآخرة بالنار وهم أحياء بمكة.

وتقولون أنتم: إنهم قد كانوا ملكوا رد علم الله في العذابين اللذين أخبر الله ورسوله أنهما نازلان بهم، وقال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [الحج: ٩] يعني القتل يوم بدر، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ [الحج: ٩]. فانظروا إلى ما أرداكم فيه رأيكم، وكتابًا سبق في علمه بشقائكم إن لم يرحمكم... ثم قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بني الإسلام على ثلاثة أعمال: الجهاد ماض منذ يوم بعث الله رسوله إلى يوم القيامة في عصابة من المؤمنين يقاتلون الدجال لا ينقض ذلك جور جائر، ولا عدل من عدل، والثانية أهل التوحيد لا تكفروهم ولا تشهدوا عليهم بشرك، والثالثة المقادير كلها خيرها وشرها من قدر الله»، فنقضتم من الإسلام جهاده، ونقضتم شهادتكم على أمتكم بالكفر، وبرئتم منهم ببدعتكم، وكذبتم بالمقادير كلها، والآجال والأعمال والأرزاق، فما بقيت في أيديكم خصلة ينبني الإسلام عليها إلا نقضتموها وخرجتم منها».

مبالغات في تاريخ عمر

اختلف الناس في أمر التاريخ، فهناك فريق يرى أنه من الممكن تمحيص الحقائق وغربلة الأنباء والتثبت من الأخبار، وهناك فريق آخر يرى أن التحريف موكل بالتاريخ يزخرف فيه، وينقص منه، ويزيد عليه، حتى هتف بعض الناس قائلًا: «إنني كافر بالتاريخ»، وقال آخر: «ما التاريخ إلا مجموعة من الأكاذيب».

والقريب من الإنصاف أن الباحث في التاريخ يستطيع بالإخلاص والجهد اللازم أن يميز بين الخبيث والطيب، وأن يقارن ويستنبط، وأن يغربل الروايات، فيرد منها ويقبل، ويحلل ويعلل، ومجهود الباحث هنا مجهود ضخم عنيف، يحتاج إلى الصبر والذكاء والبصيرة.

ومن المتفق عليه أن الناس مولعون بأن يبالغوا في سرد ما يتعلق بالأبطال وعظماء التاريخ، فنراهم يزخرفون في ذكر الحوادث المتعلقة بهم، ويضيفون إليها من خيالهم، أو زاد إعجابهم، أو وحي أمانيهم، ما يرضي نفوسهم ونفوس غيرهم. وقديمًا قال الناس، ولا يزالون يقولون: «ما آفة الأخبار إلا رواتها».

وهناك كثيرون من العامة تعجبهم هذه الزخرفة في الأنباء والأخبار، لأنها ترضي عواطف في نفوسهم، وقد تعوضهم في دنيا الخيال والذكرى عما حرموه في دنيا الحقيقة والواقع. ولكن واجب المحققين أن يشيروا من حين لحين إلى هذه الزيادات التي زيدت، وتلك الزخرفة التي أضيفت، لكي يردوا الحق إلى نصابه، فلا يطول الأمد على انتشار الباطل فيسود، ويضيع وراءه الحق.

والإمام العادل والخليفة الراشد والحاكم الزاهد عمر بن عبد العزيز رضوان الله

عليه رجل من أعلام التاريخ وأبطاله، وقد جاء تنفسًا كريمًا للحياة خفف لأواءها، وأمد بالماء والخضرة صحراءها، وفرح الناس به فرحًا كبيرًا، وأعجبوا بعهده إعجابًا عميقًا، وتغنوا بفعاله وأعماله، وكان قد جاء في أعقاب مظالم ذاق الناس من هولها ما ذاقوا، وقاسوا من شرها ما قاسوا... وبضدها تتميز الأشياء. وزاد عهد عمر تميزًا وإشراقًا أن العهود التي تلت عهده لم تخل من مظالم وسيئات، فبقي عهده كالغرة البيضاء في جبهة الجواد، أو كالشامة المضيئة التي تتميز عما حولها بوضوح ولألاء...

ومن هنا أخذ الناس، على عهد عمر وبعد عهده، يبالغون في تصوير حياته، ويتزيدون نوعًا ما فيما كان من أمره. ومرت الأيام، وتطاول الأمد على الناس، وإذا هذه المبالغات تأخذ طابع الروايات، وتأخذ طريقها إلى التسجيل والبقاء، وإذا الإنسان في حيرة من أمرها: ماذا يثبت منها وماذا ينفي؟ وما الذي كان منها حقيقة واقعة، وما الذي كان فيه نوع من المبالغة أو زيف من الافتراء...

مهما يكن من أمر، فهاأنذا أقف أمام طائفة من الأنباء مترددًا محتاجًا إلى مصباح يقطع من أمامي ستار الشك وظلام الارتياب لأصل إلى ضوء الحقيقة واليقين...

من هذه الطائفة ما يرويه العباس بن راشد قال:

«نزل بنا عمر بن عبد العزيز، فلما رحل قال لي مولاي: اخرج فشيعه، فخرجت معه فمررنا بواد، فإذا نحن بحية ميتة على الطريق، فنزل عمر فنحاها وواراها، ثم ركب وسرنا، فإذا نحن بهاتف يهتف ويقول: يا خرقاء، يا خرقاء! فالتفتنا يمينًا وشمالًا فلم نر أحدًا. فقال عمر: أسألك بالله أيها الهاتف إن كنت ممن يظهر إلا ظهرت، وإلا أخبرتنا ما الخرقاء؟

فقال الهاتف: الحية التي دفنتم بمكان كذا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لها يومًا:

يا خرقاء، تموتين بفلاة من الأرض يدفنك خير مؤمني أهل الأرض يومئذٍ.

فقال عمر للهاتف: من أنت يرحمك الله؟

قال: أنا من التسعة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في هذا الوادي.

فقال عمر: الله لأنت سمعت هذا من رسول الله؟

قال: الله إني سمعت هذا من رسول الله!

فدمعت عينا عمر وانصرفنا».

* * *

وحدث فياض بن محمد الرقي أن عمر بن عبد العزيز كان على بغلة له ومعه ناس من أصحابه، فإذا هو بجان ميت على قارعة الطريق، فنزل عمر وحفر له ودفنه، ثم عاود سيره، فإذا هو بصوت عال يسمعونه ولا يرون أحدًا، وهو يقول:

«لتهنك البشارة من الله يا أمير المؤمنين، أنا وصاحبي هذا الذي دفنته آنفًا من النفر من الجن الذي قال فيهم الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وإنا لما أسلمنا وآمنا بالله ورسوله قال رسول الله لصاحبي هذا: أما إنك ستموت في أرض غربة، يدفنك فيها يومئذٍ خير أهل الأرض».

* * *

وهذه إحدى الصور التي تحتاج إلى تمحيص...

حدث شيخ من أهل «خراسان» قال:

«لما أراد أبو جعفر بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز إذا أراد بيت المقدس، فقال: يا راهب، أخبرني بأعجب شيء رأيت من عمر بن عبد العزيز.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما عمر عندي ذات ليلة على سطح غرفتي هذه -وهو من رخام- وأنا مستلق على قفاي، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب على صدري، فقلت: والله ما عندي ماء، ولا رشت السماء مطرًا، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب!».

* * *

والجن أيضًا قد اشتركوا في رثاء عمر والبكاء عليه كما يروون..

فقد أورد ابن عبد الحكم هذه القصة:

«بينما امرأة بالكوفة ذات ليلة تغزل في كوة إلى سفل، ومعها ابنة لها، إذ وقع مغزل ابنتها، فاطلعت من الكوة لتنظر مكانه، فإذا هي بحلقة من النساء الجنيات كحلقة المأتم، وفي وسطهن امرأة وهي تقول:

ألا قل لنساء الجن يبكين شـجيات
ويخمشن وجوهًا بعد ما كن نقيات
ويلبسن عباء بعد جـر الفرقبيـات
ويردفن علوجًا بعد ما كن حظيات

ويولون من حولها: وا أمير المؤمنيناه! وا أمير المؤمنيناه!...

فقالت الفتاة لأمها: أما ترين ما أرى؟ قالت: وما ترين؟... فاطلعت الأم فإذا هي ترى ذلك فلما أصبح الصباح وجدوا أن عمر بن عبد العزيز مات في تلك الليلة!».

* * *

وأجمل المبالغات الواردة في شأن عمر بن عبد العزيز هي تلك المبالغة التي تصور عدالته الشاملة التي اتسعت واتسعت حتى نالت الرعية كلها، وحتى أوجدت الأمان والاطمئنان في كل مكان، وحتى أشاعت الألفة والمحبة والإخاء بين الجميع. ولم يكتف المبالغون بأن تشمل المحبة البشر فقط، بل امتدوا بها إلى رحاب الشياه والذئاب، فتحدثوا بأن النوعين اجتمعا بلا اعتداء من الذئاب على الشياه، والعداوة معروفة بين الذئب والشاة.

حدث مالك بن دينار قال: «لما ولي عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال رعاة الشاه في ذروة الجبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس؟ فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟ قالوا: إنا إذا قام على الناس خليفة صالح كفت الذئاب والأسد عن شائنا!».

وحدث حسن القصار قال: «كنت أحلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت براع وفي غنمه نحو من ثلاثين ذئبًا، فحسبتها كلابًا -ولم أكن رأيت الذئاب من قبل- فقلت: يا راعي الغنم، ما ترجو بهذه الكلاب كلها؟ فقال: يا بني، إنها ليست كلابًا، وإنما هي ذئاب!

فقلت: سبحان الله، ذئب في غنم لا يضرها؟فقال: يا بني، إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس!!... وكان ذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز».

وعن موسى بين أعين: «كنا نرعى الشاه بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز،

فكانت الشاه والذئب ترعى في مكان -والله- واحد، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة، فقلت: ما نرى الرجل الصالح إلا قد هلك... وبحثوا لوجدوا عمر قد مات في تلك الليلة!!».

* * *

ويلحق عمر بربه فلا تتركه مبالغات الناس في أنبائه وأخباره، وتدور الأيام وتتتابع، فتدور معها هذه المبالغات وتتابع، فيقتصد بعضها، ويسرف البعض الآخر، ويختلط الحق الثابت بالخيال التمني، ويلتوي الطريق أمام الباحث أو يطول...

وتبدأ هذه المبالغات بعد موت عمر من ساعة دفنه..

عن يوسف بن ماهك قال: «بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا رق من السماء فيه كتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار!».

رحم الله عمر بن عبد العزيز ورضي عنه وأرضاه، وأنزله منازل الصديقين الأبرار من جنته وحماه... لقد كان عمر غنيًّا كل الغنى عن هذه المبالغات وأمثالها... كان غنيًّا عنها بسيرته العاطرة، وأفعاله الحميدة، ومكارمه الكثيرة، وتاريخه الرائع.

ولكن ماذا نصنع والألسنة والأيدي مولعة بالتوسع في زخرفة الجميل والتزيد في الشيء الرائع حتى يرضي خيالها الواسع؟!...

* * *

ونستطيع أن نعد من قبيل هذه المبالغات تلك الرؤى والأحلام التي سجلها المؤرخون لعمر، كابن الجوزي وغيره، والتي قيل أن أصحابها قد رأوها في منامهم لعمر بن

عبد العزيز، وقد يكون بعضهم أو جلهم أو كلهم على صدق في أنهم رأوا، ويبقى التعليل لتلك الرؤى... ومن يدري، لعلها كانت تنفيسًا عن الرغبات المكبوتة في نفوس أصحابها، وتصويرًا للرغبات والأهواء المستكنة في صدورهم، وتغييرًا عن مبلغ إعجابهم بشخصية الحاكم العادل، والخليفة الراشد، والإمام الزاهد عمر بن عبد العزيز.

فهذا وهيب بن الورد يرى، وهو في مكة، كان داخلًا دخل من باب بني شيبة وهو يقول: يا أيها الناس، ولي عليكم كتاب الله. فقلت: من؟ فأشار إلى ظفره، وإذا مكتوب عليه «ع. م. ر». فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز!...

وهذا ثان يحدثنا بأنه رأى النبي ﷺ في النوم وعن يمينه أبو بكر، وعن يساره عمر بن الخطاب، وجاء عمر بن عبد العزيز ليجلس بين أبي بكر وبين النبي، فشح أبو بكر بمكانه، فجاء عمر ليجلس بين النبي وبين عمر، فشح عمر بمكانه، فدعا النبي ﷺ عمر بن عبد العزيز وأقعده في حجره!!..

وهذا ثالث يقول: رأى رجل في منامه على باب الجنة مكتوبًا: «براءة من الله العزيز الرحيم، لعمر بن عبد العزيز من عذاب يوم أليم».

وهذا رجل من بني تميم يقص أنه رأى في المنام كتابًا منشورًا من السماء بقلم جليل: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم، براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الأليم، إني أنا الغفور الرحيم».

وعن أبي هاشم الرماني أن رجلًا جاء لعمر بن عبد العزيز فقال له: «رأيت النبي ﷺ في المنام، وكان بني هاشم يشكون إليه، فقال لهم: فأين عمر بن عبد العزيز؟!».

وهناك من طراز هذه الرؤى عدد كبير.

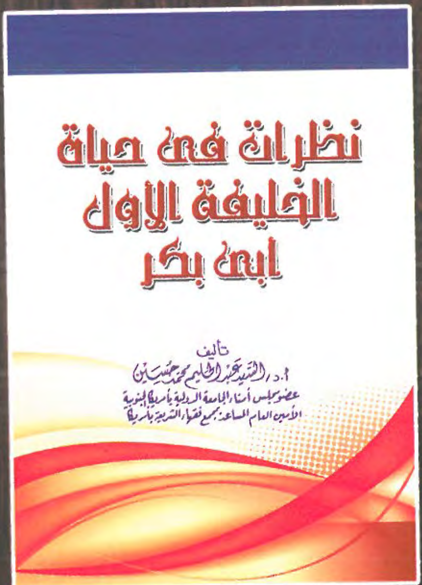
فهرس خامس الراشدين

الموضوع	الصفحة


المسابقة والمسارعة
إلى الخيرات
فى القرآن الكريم
تأليف
أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا الجنوبية
الأمين العام المساعد بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا


الحافظ المحدث الحجة
الإمام البخارى
وكتابه الجامع الصحيح
تأليف
أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا الجنوبية
الأمين العام المساعد بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا


بحوث شرعية
في
المواريث الإسلامية
ترتيب
أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا الجنوبية
الأمين العام المساعد بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا


نظرات فى حياة
الخليفة الأول
أبى بكر
تأليف
أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا الجنوبية
الأمين العام المساعد بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا